دراسات قومية



١ - فى مواجهة الحملة الفرنسية

تأليف

عبد الرحمن الرافعى

العدد الثانى

مصـــــر

(١) فى مواجهة الحملة الفرنسية

تأليف

عبد الرحمن الرافعى

كلمة

هذه السلسة من كتب المؤرخ الكبير الاستاذ عبد الرحمن الرافعي هي خلاصة دراساته العظيمة في تاريخ مصر القومي التي اصدرها في مجلدات .

وقد لخص بقلمه هذه الدراسات التي ننشرها في سلسلة « دراسات قومية » ، لنقدمها الى الاجيال الشابة الجديدة كثمرة من ثمرات هذه الشجرة العريقة المباركة التي غرسها عبد الرحمن الرافعي في تاريخ الكفاح الوطني في مصر ، وقد لخصها في كتب اربعة سنصدرها تباعا .

وعبد الرحمن الرافعي واحد من القلائل النادرين الذين اثروا الحياة الفكرية في مصر المعاصرة ، وكان له دور الرائد في كتابة التاريخ المصري الحديث منذ عصر محمد علي وحتى

ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ . وقد بدأ من حيث انتهى عبد الرحمن الجبرتى مؤرخ الحملة الفرنسية ونصف عصر محمد على ، بل ان الجبرتى تناول فترة من عصر العثمانيين والمماليك فى مصر .

والرافعى على كل حال هو جبرتى عصرنا الحديث ، مع اختلاف منهجه وطريقته عن الجبرتى ، بحكم انه رجل عصرى مثقف واسع الثقافة ، عارف بمصادر التاريخ ومراجعه فى كتب الاوربيين الذين كتبوا عن مصر الحديثة ، كما انه معاصر لاحداث هامة وخطيرة فى حياة مصر منذ ظهور مصطفى كامل وحتى قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

وهذا المؤرخ العظيم كان نزيه القصد ، متجردا عن الهوى مؤمنا بمبدئه الذى اعتنقه منذ عرف اسم « مصطفى كامل » وهو مبدأ الحزب الوطنى ، وظل مخلصا لهذا المبدأ حتى نهاية حياته ، فلم يتقلب بين الاحزاب ، ولم يطلب متاع الدنيا ، بل كان ينفق ما يكسبه فى المحاماة على نشر كتبه ، والدعوة الى افكاره ، وكان محاميا شهيرا جهيرا ، وكان وزيرا عظيما ، وكان قبل ذلك وبعد ذلك نائبا فى مجلس النواب يحمل على سترته شعار الحزب الوطنى ، ويدافع عن مبـادىء الزعيم مصطفى كامل .

وقد انصرف عبد الرحمن الرافعى الى تأليف المجلدات عن تاريخ مصر القومى ، وانفق حياته وماله من اجل تحقيق هذا الهدف الرفيع ، حتى اصبح مؤرخ مصر الحديثة .

ثم شاءت الاقدار ان يلخص بعض مجلداته فى هذه الكتب التى نقدمها اليوم لشباب جيل جديد يعيد صنع الحياة فى مصر .

لقد توافق الزمن بين هذا الشيخ الجليل والمؤرخ الكبير ، وبين هذا الجيل الجديد من شباب مصر الذى ينطلق فى هذه الايام انطلاقة البنـــاء التى تســـتعيد لمصر حضـــارتها بعد سنوات عجاف مضت الى غير رجعة .

وهذه الكتب التى نقدمها للقارىء هى خلاصة النضـــال المصرى فى العصر الحـــديث بقلم المـــؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى ..

وليس فى استطاعتنا تقديمها للقارىء .. لأنه أعظم من يقدمها .. وهو الذى يقدم نفسه .

وليس لنا كلمة الا أن نقدم التحية لروح هذا الرجـــل الذى منحنا نورا يضىء لنا طريق المستقبل .

وسيظل اسم عبد الرحمن الرافعى مضيئا فى حياة الاجيال فقد كتب تاريخ مصر القومى فى كلمات شريفة نظيفة بعيدة عن الهوى .

عبد المنعم شميس

يوليو ١٩٧٩

الفصل الاول

مصر فى العهد العثمانى المملوكى

دخلت مصر فى حوزة الحكم العثمانى ابتداء من سنة ١٥١٧ (٩٢٣ هـ) باستيلاء السلطان سليم على البلاد ، واستتبع الفتح العثمانى وضع نظام جديد للحكم فى مصر وهو النظام الذى رزحت تحته البلاد نحو ثلاثة قرون متعاقبة من سنة ١٥١٧ الى سنة ١٧٩٨ .

صارت مصر فى هذا العهد ولاية من ولايات السلطنة العثمانية ، بعد أن كانت دولة مستقلة ذات سيادة ، ووضع السلطان سليم قاعدة نظام الحكم فيها ، وهى ايجاد ثلاث سلطات تتنازع الحكم وتتقاسمه :

(الأولى) سلطة الوالى التركى (نائب السلطان) ، وكان يلقب بالباشا ، ومقره (القلعة) ، وكانت الحكومة التركية تعين الوالى لمدة سنة واحدة قابلة للتجديد .

(الثانية) سلطة رؤساء الجند وهم قواد الفرق التى تتألف منها الحامية العثمانية وتسمى كل فرقة « وجاقا » ولكل فرقة ضباط يسمون (الوجاقلية) .

(الثالثة) سلطة الأمراء المماليك الذين قدموا طاعتهم للسلطان العثمانى ، فعينهم حكاما للمديريات ، وقد صار اليهم حكم البلاد منذ أواخر القرن السابع عشر ، وتضاءلت بجانبهم سلطة الوالى التركى ، وكانت البلاد مقسمة الى مديريات أو أقاليم تسمى كل مديرية اقليما أو (سنجقية) يحكم كلا منها حاكم يقال له (سنجق) أو (بك) .

استأثر المماليك بالنفوذ والحكم ، وساعدهم على ذلك ماصارت اليه السلطة العثمانية من الضعف فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر بسبب حروبها المتواصلة واختلال شئونها الداخلية وفساد نظام الحكم فيها ، وزاد فى نفوذهم كثرة تغيير الولاة الأتراك وعزلهم ، فضعف شأنهم وتراجع ، فى حين أن المماليك احتفظوا بعصبيتهم بمااستكثروا من الجند والأتباع الذين كانوا يشترونهم من بلاد الشركس والقوقاز والكرج ، واستمالوا أيضا الى جانبهم أفراد الحامية العثمانية اذ كان رجال « الوجاقات » قد استوطنوا مصر واستقروا بها واندمجوا فى أهلها وضعف ارتباطهم بعاصمة

السلطنة العثمانية ، وكانت ادارة الحكومة المدنية والمالية بيد المماليك ، واليهم يسند توزيع المرتبات على الجنود ، فصار ولاء تبعا لهم بحكم الروابط المالية،ثم صار رؤساء الوجاقات واغلب ضباطها من المماليك ، فانحصرت السلطة العسكرية والمدنية فى ايديهم ، وصار لرئيس المماليك الذى يختارونه زعيما لهم ويلقبونه (شيخ البلد) النفوذ الذى لايعارض والكلمة التى لا ترد ، وصارت (مشيخة البلد) بمثابة امارة مصر ، وعبث المماليك بالولاة واخذوا يعزلون من لايرضون عنه .

نتائج الحكم العثمانى المملوكى

فى حالة مصر السياسية والعمرانية :

كان لنظام الحكم الذى رزحت تحته البلاد من عهد الفتح العثمانى اسوا الأثر فى حالتها السياسية والعمرانية ، فقد زال عنها الاستقلال الذى كان مصدر عزها وعظمتها،وصارت مسرحا للفتن والمشادة بين السلطات الثلاث التى تنازعت الحكم فيها ، فحال ذلك دون قيام حكومة ثابتة مستقرة ترفع من شأن مصر وتقيم العدل وتحفظ الأمن بين ربوعها وتعنى بمرافقها ، فلا غرو ان اقترن نظام الحكم العثمانى بتأخر البلاد وتقهقرها وتناقص عدد سكانها ، ولو قارنت بين حالتها فى ذلك العهد وحالتها من قبل حينما كانت مملكة مستقلة فى عهد الدول الفاطمية والايوبية والبحرية والبرجية لرايت ان البلاد قد رجعت القهقرى خطوات واسعة .

في الحالة الاقتصادية :

اهمل الولاة العثمانيون والبكوات المماليك امر الري وتوزيع المياه واقامة القناطر والجسور وحفظ الامن ، فجفت الترع ، وتلفت الاراضي ، وتعطلت الزراعة ، وفقد الامن وذهبت ثروة البلاد وهاجر الكثير من سكان القطر الى البلاد المجاورة .

واضمحلت الصناعات والفنون التي كانت تزدان بها مصر في سالف العصور ، فقد بدأت في الاضمحلال عقب الفتح العثماني مباشرة بسبب اضطراب الاحوال وكثرة الفتن وفقد الامن واسراف الجنود العثمانية في السلب والنهب ، أضف الى ذلك ان السلطان سليما بعد ان استقر له الامر في القاهرة جمع رؤساء الصناعات المتخصصين في الفن والصناعة ونقلهم الى الاستانة لينشروا فيها صناعاتهم وفنونهم ، فكان ذلك سببا في نضوب معين الصناعة والفن في البلاد ، وتلاشت صناعات كانت عامرة ، وفي ذلك يقول ابن اياس المؤرخ المصري الذي شهد الغزو العثماني والسنوات الاولى من حكم الاتراك :

« ان السلطان سليما خرج من مصر ومعه ألف جمل محملة من الذهب والفضة فضلا عن التحف والسلاح واعمدة الرخام والصيني والنحاس ، واخذ من مصر من كل شيء احسنه وذلك عدا ما غنمه وزراؤه من الاموال الجزيلة ، وكذلك عسكره فانهم غنموا من النهب مالا يحصى ، وبطل من مصر نحو خمسين صنعة » .

وجد الولاة والحكام المماليك الذين تركت لهم ادارة البلاد فكان حكمهم آفة على الصناعة والتجارة ، وكانت مصادرتهم لأموال التجار من أهم أسباب ركود الحركة التجارية فاختفت رؤوس الأموال من أيدى الأهالى وغلب عليهم الفقر وصار الشعب الى حالة محزنة من الضنك والفاقة .

فى الحالة الصحية :

فتكت بالسكان الامراض والاوبئة التى كانت تجتاح البلاد وتجتاح مئات الآلاف من الناس . وتأخذهم أخذا وبيلا ، كل ذلك والحكام يصرفهم الجهل عن مقاومتها ، وليس فى البلاد طبيب ولا اطباء . والناس متروكون لرحمة المنجمين والحلاقين .

فى العلوم والآداب :

فشا الجهل فى البلاد ورزح الشعب تحت نير العبودية وظلام الجهالة ، وحرمت البلاد من معاهد العلم والتعليم ولم يبق بها سوى الجامع الأزهر الذى كان فى ماقبل عصر البكوات المماليك وبعض المدارس الملحقة بالمساجد . فكان الأزهر هو المعهد الوحيد الذى تدرس فيه العلوم ، ولولاه لانطفأت آخر شعلة للعلم فى مصر ، وكان بالقاهرة وبعض البنادر والثغور كتاتيب ينفق عليها من أموال الصدقات والأوقاف ، ولكنها كانت قليلة النفع ضعيفة الاثر فى تبديد ظلام الجهالة فى البلاد .

وفوت العلوم والآداب فى مصر بعد أن كانت زاهية زاهرة فقد ظلت الآداب العربية الى عهد السلاطين البحرية والبرجية

(الشراكسة) حافظة مكانتها التى كانت لها من قبل ، واليهم يرجع الفضل فى انقاذ آداب اللغة العربية من غزوات المغول التى كادت تقضى على العلوم والآداب العربية فى الشرق ، فكانت مصر ملجأ للناطقين بالضاد ممن فروا امام التتار فى العراق وفارس وسوريا وخراسان . وبقيت لغة حكومتها عربية فى عهد تينك الدولتين ، واستظلت العلوم والآداب بحماية الملوك والسلاطين فى مصر ، ونبغ فيها طائفة من فطاحل الشعراء والادباء والعلماء كالبوصيرى صاحب البردة ، والسراج الوراق وابن نباته المصرى ، والقلقشندى صاحب صبح الاعشى والابشيهى صاحب المستطرف ، وابن منظور صاحب لسان العرب ، وابن هشام النحوى العظيم الذى يقال فيه انه انحى من سيبويه ، وابن عبد الظاهر ، والنواجى صاحب حلبة الكميت ، والقسطلانى المحدث المشهور ، وشمس الدين السخاوى صاحب الضوء اللامع ، وابن خلكان المؤرخ المشهور صاحب وفيات الاعيان ، والصفدى صاحب الوافى ، وابن حجر المؤرخ امام الحفاظ المحدثين فى زمانه ، والعينى المؤرخ والمحدث ، وابن وصيف شاه ، وابن دقماق ، والمقريزى صاحب الخطط والمكين ابن العميد ، وابو الفداء المؤرخ الجغرافى المشهور ، صاحب تقويم البلدان ، والذهبى ، والنويرى صاحب نهاية الارب فى فنون الادب ، وابن فضل الله العمرى صاحب مسالك الابصار فى ممالك الامصار ، وابن عقيل ، وابن تغرى بردى صاحب النجوم الزاهرة ، وجلال الدين السيوطى صاحب التآليف الشهيرة فى التفسير والعلوم

الشرعية والتاريخ والادب واللغة وهو آخر من ظهر في ذلك العصر من كبار العلماء بمصر ، والدميري صاحب حياة الحيوان ، وابن اياس المؤرخ الذى ادرك الفتح العثمانى .

وقد استضافت مصر فى ذلك العصر جماعة من أئمة العلم والفلسفة فى الشرق ، كالامام ابن تيمية ، وابن قيم الجوزية ، وفيلسوف المؤرخين ابن خلدون .

اما فى عهد الولاة العثمانيين والبكوات المماليك فقد اضمحلت الاداب العربية وجمدت القرائح وركدت حركة العلم ، ولاغرابة فى ذلك فان القاهرة صارت مركز ولاية تابعة للاستانة بعد ان كانت عاصمة دولة مستقلة ، بل عاصمة العالم العربى كله وصارت مخاطبات السلاطين والولاة باللغة التركية بعد أن كانت العربية لسان الحكومة لغاية انتهاء دولة السلاطين البرجية ، وتقهقرت البلاد وساءت ادارتها ، فأثرت هذه الأسباب مجتمعة فى حالة العلوم والآداب وآلت الى الاضمحلال والذبول ، واندثرت المدارس التى كانت زاهرة فى عهد الفاطميين والأيوبيين وخلفائهم السلاطين البحرية والبرجية وتبددت خزائن الكتب التى يرجع انشاؤها الى عهد الفاطميين ولم يبق منها الا بعض المكاتب الملحقة بالمساجد كمكتبة الأزهر التى كان بها الى عهد الحملة الفرنسية نحو ٣٣٫٠٠٠ مجلد .

قال المرحوم على باشا مبارك يصف اهمال شأن المدارس فى مصر مدة ثلاثة قرون متوالية :

« من ابتداء القرن التاسع الى القرن الثانى عشر يعنى مدة ثلاثة قرون قد اهمل امر المدارس وامتدت ايدى الاطماع الى أوقافها ، وتصرف فيها النظار على خلاف شروط وقفها وامتنع الصرف على المدرسين والطلبة والخدمة فاخذوا في مفارقتها ، وصار ذلك يزيد فى كل سنة عما قبلها لكثرة الاضطرابات الحاصلة بالبلاد حتى انقطع التدريس فيهابالكلية وبيعت كتبها وانتهبت ، ثم اخذت تتشعث وتتخرب من عدم الالتفات الى عمارتها ومرمتها ، فامتدت ايدى الناس والظلمة الى بيع رخامها وابوابها وشبابيكها حتى آل بعض تلك المدارس الفخمة والمبانى الجليلة الى زاوية صغيرة تراها مغلقة فى اغلب الأيام وبعضها زال بالكلية وصار زريبة أو حوشاأو غير ذلك ولله عاقبة الامور » .

هذه صورة لما آلت اليه العلوم والآداب من الاضمحلال والذواء فى عهد الحكم العثمانى ، من أجل ذلك قلما نبغ من عهد الفتح التركى شاعر او عالم أو أديب ، ولاتكاد تعد فى هذا العصر سوى شهاب الدين الخفاجى . والسيد محمد مرتضى زبيدى العالم اللغوى المشهور صاحب تاج العروس فى شرح جواهر القاموس ، واصله من اليمن واستوطن مصر وتوفى بها . وعبد الوهاب الشعرانى صاحب الطبقات وغيرها من المصنفات الكثيرة ، وابن ابى السرور البكرى الصديقى صاحب الروضة المأنوسة ، والصبان ، وعبد الرحمن الجبرتى المؤرخ المشهور . ولو تأملت فى تراجم من ذكرهم الجبرتى فى كتابه من علماء ذلك العصر لما رأيت منهم من يصح اعتباره عالما نابها فى الفلسفة

او العلوم والآداب ، واقتصر التدريس في الأزهر على العلوم الفقهية واللسانية ، وبطل تعليم العلوم العقلية والرياضية والطبيعية التى كان يدرسها أسلافهم والتى كانت تزدان بها جامعات بغداد وقرطبة فى عصر ازدهار الحضارة الاسلامية واعتزل الازهر النهضة العلمية الاوربية الحديثة فبعدت الشقة بينه وبين التقدم العلمى القديم والحديث ، واقتصر المؤلفون من علمائه على النقل ووضع الشروح والحواشي والتقارير والتعليقات ونحوها مما لايمكن ان يكون أساسا لنهضة علمية صحيحة ، وانحط أسلوب الكتابة حتى قرب من العامية ، وكان المجيدون من الكتاب والادباء لا يتوخون فى كتابتهم الا تنميق العبارات بالسجع الركيك والمحسنات البديعية كالجناس والتورية ، واضمحلت روح البلاغة ، ولم يبق فى متناول الجمهور من آثار الآداب العربية سوى قصص أبى زيد الهلالى وعنترة والزناتى خليفة وما الى ذلك، وتضاءلت مكانة الشعر والأدب لدرجة أن كلمة « شاعر » كانت تطلق على جماعة يجلسون فى القهوات ويلقون على مسامع الجماهير قصص أبى زيد والظاهر بيبرس وينشدونها على نغمات الربابة ».

هذا التقهقر هو نتيجة حكم الولاة الاتراك والبكوات المماليك .
ومن الواجب أن نفرق بين عهد البكوات المماليك وعهد السلاطين المماليك من الدولتين البحرية والبرجية ، فان عهد هؤلاء كان عهد عمران وحضارة ، وعلى ما كان يتخلله من المظالم ، فقد

كان كثير من السلاطين ذوى علم وادب وثقافة لقرب عهدهم بعصر الحضارة الاسلامية .

أما حكم البكوات المماليك فكان عصر تأخر وجهالة،وكانوا هم والولاة الاتراك علة ماأصاب البلاد من التقهقر ، ومن الخطأ أن يظن بعض المؤرخين أن البكوات المماليك ظلوا على توالى السنين سلالة الدولتين البحرية والبرجية ، فان المعروف أن أفواج المماليك كانت ترد الى مصر من بلاد الشركس والقوقاز ، فالصلة التى كانت تربط المماليك بالدولتين البحرية والبرجية عند الفتح العثمانى قد انقطعت مع الزمن ، اضف الى ذلك ان المماليك كان معروفا عنهم العقم وقلة النسل وكانت ذريتهم تنقرض ونسلهم ينقطع فى جيل أو جيلين فكانوا يسدون النقص الذى يبدو فى صفوفهم بشراء أفواج الأرقاء من أسواق الرقيق ، واذا تأملت فى تراجم البكوات المماليك الذين ذكرهم الجبرتى فى تاريخه تجد أنهم ليسوا من سلالة الدولتين البحرية والبرجية بل هم مجلوبون من أسواق الرقيق ، وليس فيهم أحد لم يكن أصله مملوكا اشتراه أحد المماليك .

الفصل الثانى

المجتمع المصرى الذى كافح الحملة الفرنسية
سنة ١٧٩٨ ــ ١٨٠١

الآن وقد انتهينا من الكلام عن نتائج نظام الحكم العثمانى المملوكى ، فلننتقل الى الحديث عن الحالة الاجتماعية للشعب المصرى فى اواخر القرن الثامن عشر ، ونبين عناصر المجتمع الذى واجه العدوان الفرنسى سنة ١٧٩٨ .

كان عدد سكان مصر فى ذلك الحين ثلاثة ملايين نسمة ينقسمون الى حكام ومحكومين ، فالمحكومون هم الشعب المصرى ، والحكام هم فئة المماليك الذين استبدوا بحكم البلاد وكانوا من سلالات اجنبية .

اما الشعب المصرى فهو سلالة الفراعنة والعرب ، امتزج به الدم المصرى القديم بالدم العربى الحديث ، وكان يتألف من عدة طبقات اجتماعية نذكرها فيما يلى :

العلماء :

فأولها طبقة العلماء ورجال الشرع ، وكان لهم فى ذلك العهد تاثير عظيم فى نفوس الامة وقيادة افكارها ولهم الزعامة الادبية والسياسية بين الجماهير ، واليهم ترجع قيادة الحركات التى ظهرت على مسرح الحوادث السياسية فى مصر .

وكان هؤلاء العلماء وكلاء المواطنين فى الاعتراض على مظالم الحكام والمطالبة برفعها ، وكانوا بحكم مكانتهم العلمية والدينية بمثابة نواب الأمة فى التعبير عن آلامها وآمالها . وقد ظهرت نيابتهم عن الشعب فى القرن السابع عشر والثامن عشر ، وكان لهذه النيابة اثرها فى بعض المواطن فى رفع المظالم عن الشعب أو التخفيف منها .

الملاك والتجار :

وطبقة الملاك والتجار وهى تشمل أصحاب الاملاك العقارية والزراعية والمشتغلين بالتجارة والاعيان من سكان المدن والاقاليم من ذوى الثروات المتوسطة ، وفيهم عدد قليل من أغنياء الملاك والتجار .

وكان التجار يشغلون حيزاً كبيراً فى المجتمع المصرى ، وكانوا اغنى طبقات الشعب ، ووصل بعضهم الى درجة عظيمة

من الثراء والجاه ، واتسعت تجارتهم الخارجية ، وكانوا يستمدون ثروتهم من نشاطهم ومن مركز مصر التجارى اذ كانت (ولاتزال) الملتقى الطبيعى للقارات الثلاث أفريقيا وآسيا واوربا .

المزراعون (الفلاحون) :

ومنهم يتكون الشطر الاكبر من الامة ، وكانوا فى حالة يرثى لها من الفاقة والجهل ، والزراعة فى تقهقر وتأخر بسبب حرمان البلاد من منشآت الرى والصرف ، وحرمانها حكومة عادلة توطد الامن وتصون حقوق الافراد .

الصناع والصناعات :

لم تكن البلاد وقتئذ تعرف الصناعات الكبرى ، واقتصر الشأن على الصناعات الصغرى ، وكان الصناع والعمال ينتظمون فى طوائف تشبه نقابات الصناع الحالية ، لكل حرفة طائفة يرأسها شيخ يسمى (شيخ الطائفة) ، واليه يرجع النظر فى شئونها .

وكانت الصناعات الصغرى منتشرة ومتفرعة الى فروع عدة ، فمنها الصناعات والمهن المتعلقة بالمواد الغذائية والصناعات الخاصة بالملبس ، والصناعات المتعلقة بالبناء والعمران .

ومن الصناعات الاخرى الصياغة وتركيب الاحجار الكريمة وسك النقود .

ويدخل في عداد الصناع السقاؤون وكان عددهم كبيرا جدا في ذلك العهد لانهم يحملون ماء النيل الى جميع السكان في القاهرة والبنادر . والمكارون (الطائفة التي تؤجر الحمير) والحمالون . والنوتية في النيل .

المسلمون والاقباط :

كان المسلمون والاقباط يشتركون على السواء في احتمال ظلم الحكام وسوء الادارة ، وشارك الاقباط اخوانهم المسلمين في الزراعة والصناعة والتجارة ، وتخصص الاقبـاط في الاعمال الحسابية والمالية ، فعهد اليهم البكوات المماليك بتحصيل الضرائب وتقديرها وتوزيعها على الاطيان والحاصلات فكانت لهم في هذه الناحية من ادارة الحكومة سلطة لا ينازعهم فيها منازع ، ورؤساؤهم يسمون (المباشرين) ـ جمع مباشر ـ وهم اصحاب النفوذ والسلطة عليهم ، ورئيسهم يسمى (كبير المباشرين) وله نفوذ عظيم يستمده من اتساع اعمال وظيفته وتفرعها في الاقاليم ، وسلطته على من تحت يده من المباشرين والصيارفة والكتبة والمساحين .

وعاش المسلمون والاقباط شعبا واحدا عرف بالتسامح والاعتدال ، والبعد عن التعصب الديني او العنصري ، وكان هذا ولم يزل من مميزات الشعب المصري .

الفصل الثالث

المقاومة الشعبية فى الاسكندرية والبحيرة

كانت الحملة الفرنسية حلقة من حلقات الاستعمار الاوروبى ، والعدوان على بلدان الشرق العربى ، وكانت من ناحية اخرى مظهرا للتنازع الذى قام بين فرنسا وانجلترا على الغزو والاستعمار ، هذا التنازع الذى يرجع الى القرن السابع عشر واستمر خلال القرن الثامن عشر ، ففى مارس ١٧٩٨ قررت الحكومة الفرنسية انفاذ الحملة على مصر لاحتلالها واسندت قيادتها الى نابليون بونابرت .

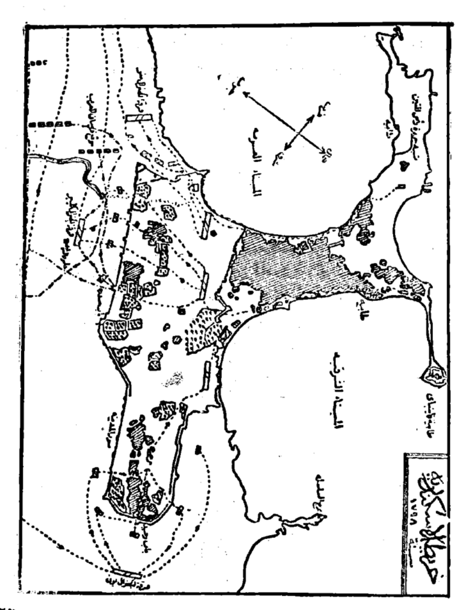
وبلغت قوة هذه الحملة ٣٦٠٠٠ مقاتل مزودين بأحدث المعدات الحربية ، اقلتهم عمارة بحرية من ثلاثمائة سفينة يحرسها اسطول من ٥٥ سفينة حربية .

كانت الحكومة الفرنسية تظن قبل تجريد هذه الحملة انها لن تلقى مقاومة من جانب المصريين ، لما وقر فى الاذهان وقتئذ من ميلهم الى الهدوء وكراهيتهم لحكامهم المماليك ، ولانهم كانوا فى الجملة عزلا من السلاح ، فلم يكن الفرنسيون ينتظرون من جهة الشعب مقاومة او محاربة .

ولكن الحوادث خيبت ظنونهم ، فان المقاومة التى لقوها من جانب المصريين كانت اشد من مقاومة المماليك .

وانك اذا تتبعت سلسلة المقاومات التى لقيها الجيش الفرنسى من المصريين تعجب لشدة مقاومة الامة وقتئذ للاحتلال الفرنسى ، واستمرار هذه المقاومة وانفساح مداها فى انحاء البلاد ، حتى كأن ثورة عامة قد اندلعت فى وجه الفرنسيين واشتد لهيبها من اقصى البلاد الى اقصاها .

ولقد هزت الحملة الفرنسية اعصاب الامة المصرية ، فاخذت تنفض عنها غبار الجمود الذى كان يخيم عليها منذ الغزو العثمانى سنة ١٥١٧ ، فاستثار العدوان الاستعمارى روح القومية فى نفوس المصريين ، واخذوا يشعرون ان لبلادهم مركزا ممتازا فى العالم وان لهم كيانا يدعوهم للمحافظة عليه والنضال فى سبيله ، وكان من نتائج هذا الشعور سريان روح المقاومة ضد الحملة الفرنسية فى البلاد كلها ، من الاسكندرية الى اسوان .



فى الاسكندرية :

كانت الاسكندرية اول بلد قصدته القوات الفرنسية الغيرة ، وكان عدد سكانها لا يزيد وقتئذ عن ثمانية آلاف نسمة ، وقد توقع اهلها زحف الفرنسيين قبل مجيئهم بايام وتأكدت انباء هذا العدوان المتوقع من حضور الاسطول البريطانى بقيادة الاميرال (نلسن) الى مياه الاسكندرية يوم ٢٨ يونية سنة ١٧٩٨ يفتش عن العمارة الفرنسية فى انحاء البحر الابيض المتوسط ، ولم تكن هذه العمارة قد وصلت بعد الى المياه المصرية .

وقد ارسل نلسن الى السيد محمد كريم حاكم المدينة الوطنى ينبهه الى احتمال حضور العمارة الفرنسية ، وطلب منه ان ياذن له فى دخول الثغر ليتزود منه بما يحتاجه من المؤونة والماء العذب ، ولكن السيد كريم رفض طلبه واساء الظن فى مقاصده ، وكان محقا فى موقفه ، اذ ان الانجليز والفرنسيين سواء فى اغراضهم الاستعمارية ، فأقلع الاميرال نلسن بأسطوله متجها الى شواطىء الاناضول .

واذ علم الاهلون بقرب مجىء العمارة الفرنسية اخذوا يستعدون للدفاع قدر ما استطاعوا ، ويحصنون القلاع ويزيدون عدد الجنود بالمتطوعين للقتال ويجمعون جيشا من المواطنين .

وقد جاءت العمارة الفرنسية ونزلت القوات الاولى من جيش الغزو ليلة ٢ يولية سنة ١٧٩٨ بجهة العجمى

التى تبعد عن المدينة غربا بنحو اثنى عشر كيلو مترا ، وظل نزول الجنود الى الشاطىء متراسلا طوال الليل ، وفى الصباح الباكر من هذا اليوم (٢ يولية) زحفت قوات الغـزو على الاسكندرية فوصلت تجاه اسوار المدينة عند شروق الشمس

السيد محمد كريم

وكان السيد محمد كريم حاكم الاسكندرية الوطنى على راس المقاومة الشعبية التى كافحت الغزاة ، ولم تكن المدينة على أهبة القتال بسبب تراخى حكومة المماليك واهمالهـــا شؤون الدفاع عامة .

ومنذ قدوم العمارة الفرنسية ارسل السيد كريم السعاة الى مراد بك بالقاهرة يطلب منه النجدة ، ولكن الوقت لم يكن فيه متسع لوصول السعاة برا الى العاصمة ،ولا الى وصول نجدة ما ، على ان الاسكندريين بقيادة السيد كريم قد بذلوا مافى مقدروهم دفاعا عن المدينة ، فحصنوا الاسوار ، وشحنوا القلاع بالميرة والذخيرة جهد ما وصلوا اليه ، وفزعوا الى السلاح فحمله قادرون منهم ، وركبوا المدافع العتيقة على اسوار المدينة ، وعهدوا الى جماعة من الفرسان بمناوشـــة القوات الفرنسية قبل اقترابهـــا ، فحدثت مناوشـــات بين الفرنسيين والفرسان ارتد هؤلاء على اثرها ، وتابع الفرنسيون زحفهم على المدينة .

احتشد الاهلون الذين يحملون السلاح على الاسوار وفى الابراج التى تتخللها للدفاع ، وشاهد نابليون عن بعد أهل المدينة محتشدين بأعلى الاسوار مشاة وركبانا ، ورجالا ونساء ، كبارا وصغارا ، ومعظمهم مسلحون بالبنادق والرماح ، فأصدر أمره بالهجوم العام ، واخذ الاهلون يطلقون النار من المدافع المركبة على الابراج والاسوار اطلاقا من غير احكام ، وهاجم الغزاة المدينة من عدة جهات ، فقابلهم الاهلون فى الشوارع باطلاق النار اطلاقا شديدا من المدافع والبنادق ، واخذوا يطلقون الرصاص من البيوت على الجنود المهاجمين وكاد نابليون نفسه يصاب برصاصة فى احدى الحارات لولا الحظ الذى نجاه من الموت ، قال بوريين Bourienne

سكرتيره الخاص فى هذا الصدد « دخل بونابرت المدينة من حارة لا تكاد لضيقها تسع اثنين يمران جنبا الى جنب ، وكنت أرافقه فى سيره ، فأوقفتنا طلقات رصاص صوبها علينا رجل وامرأة من احدى النوافذ ، واستمرا يطلقان الرصاص ، فتقدم جنود الحرس وهاجموا المنزل برصاص بنادقهم ، وقتلوا الرجل والمرأة » .

وظل السيد محمد كريم يدافع بعد دخول الفرنسيين المدينة معتصما بقلعة (قايتباى) بالميناء الشرقى ومعه فريق من المقاتلة ، الى أن كلت قواه ، ورأى استمرار المقاومة عبثا لا يجدى ، فكف عن القتال ، فتلقاه نابليون لقاء كريما مقدرا شجاعته فى الدفاع ، وابقاه حاكما للاسكندرية .

ولم يكن بد من استيلاء الفرنسيين على المدينة ، لان قوة الدفاع عنها كانت اضعف من ان تقاوم جيش نابليون وهو في عنفوان قوته .

وقدر نابليون في مذكراته خسائر الجيش الفرنسي في مهاجمة الاسكندرية بثلاثمائة بين قتيل وجريح ، وقدر خسائر الاسكندريين بسبعمائة الى ثمانمائة بين قتيل وجريح .

وقبل ان يغادر الاسكندرية اعاد نابليون الى السيد محمد كريم سيفه وقال له : « لقد اخذتك والسلاح في يدك ، وكان لى ان اعاملك معاملة الاسير ، ولكنك استبسلت في الدفاع والشجاعة متلازمة مع الشرف ، لذلك اعيد اليك سلاحك وآمل ان تبدى للجمهورية الفرنسية من الاخلاص ما كنت تبديه لحكومة سيئة » .

على ان السيد محمد كريم لم يخلص لفرنسا ، اذ كان يدرك بفطرته السليمة انها انما جاءت لتعدوان على البلاد تحقيقا لاطماعها الاستعمارية ، واخلص السيد كريم لوطنه ، فأخذ ينظم المقاومة السرية ضد الاحتلال الاجنبي في الاسكندرية ثم في القرى المجاورة .

عين نابليون قبل زحفه على القاهرة الجنرال كليبر Kleber قومندانا للاسكندرية وضواحيها .

ولم يستتب الامر للفرنسيين في المدينة ، بل كان الاهالون لا يدعون فرصة تمر دون ان يبدوا سخطهم على الاحتلال .

ومن ذلك انه فى يوم ١٣ يولية سنة ١٧٩٨ قتلّ احد جنود مدفعية الاسطول الفرنسى ، ولم يعرف قاتله ، ووجدت جثته ملقاة فى احد الشوارع ، وفى الوقت نفسه القى فى البحر خادم احد الضباط الفرنسيين فمات غريقا ، حصلت الحادثتان فى يوم واحد ، فترامى الخبر فى المدينة ، وتحفز الاهلون للهياج فاتخذ الجنرال كليبر الشدة فى معالجة هذه الحالة ، واعتقل بعض اعيان المدينة بصفة رهائن ، واستدعى السيد محمد كريم والقاضى الشرعى وكبار الاعيان ، وطلب منهم البحث عن الجناة ومحاكمتهم ، وتهدد بشنق من تقع عليه القرعة من الرهائن اذا لم يعاقب الجانى فى خمسة ايام .

وتعهد السيد كريم وزعماء المدينة بتعقب الجناة ومحاكمتهم ولكن البحث لم يؤد الى نتيجة ، وعرف اسم القاتل وتبين انه نجا بنفسه ، فحوكم غيابيا بالمحكمة الشرعية وحكم عليه قاضى الاسكندرية بالقصاص (الاعدام) .

وتجلت روح الكراهية للفرنسيين حين انفذ الجنرال كليبر كتيبة طوافة من الجنود لتجوب بعض جهات مديرية البحيرة وتعرج بدمنهور ثم تنثنى الى رشيد « فأبو قير » فالاسكندرية للاطمئنان على سلامة مواصلات الجيش الفرنسى بين المدينة والمواقع المهمة .

لم تستطع هذه الكتيبة ان تتزود فى الاسكندرية بما يكفيها من الماء والزاد ، لان الاهلين حين علموا بعزم القيادة الفرنسية على تجريد هذه الكتيبة هربوا الجمال لكيلا يستعين بهـــا

الفرنسيون ، ولقيت الكتيبة عنتا ومشقة بعملهم هذا ، وقوبلت الكتيبة فى طوافها بالمقاومة الشديدة من الاهلين ، وخاصة فى دمنهور ، فقد احتشد فيها نحو ستة آلاف من الثائرين واستعدوا لقتال الفرنسيين وتجمعوا فى الطرق والشوارع وفوق اسطح المنازل ، فاضطرت الكتيبة الى أخلاء دمنهور وعدلت عن طوافها لما عانته من المتاعب والغارات فى طريقها ورجعت ادراجها الى الاسكندرية مضعضعة منهوكة القوى .

واستنتج الفرنسيون من مقاومة دمنهور ان هناك مخابرات سرية بين الاسكندرية والمدن التى مرت بها الكتيبة وان اهالى دمنهور كانوا على علم بقدوم الفرنسيين قبل وصولهم الى المدينة .

وبدأت القيادة الفرنسية من ذلك الحين ترتاب فى السيد محمد كريم وتتهمه بالعمل ضدها ، فأمر الجنرال كليبر بالقبض عليه يوم ٢٠ يولية سنة ١٧٩٨ ، وارسله متحفظا عليه الى ابو قير حيث كان الاسطول الفرنسى راسيا ، واعتقل بالبارجة (أوريان) سفينة الاميرال (برويس) قائد الاسطول .

وقد اتهمه كليبر بأنه كانت له يد فى المقاومة التى لقيتها الكتيبة الفرنسية التى اخفقت فى مهمتها ، وكان السيد كريم قبيل القبض عليه قد دافع عن اهل المدينة لمناسبة وضع سلفه اجبارية على تجار الثغر يدفعونها للجيش الفرنسى ، فعارض السيد كريم فى فرض هذه السلفة ، وتلكأ فى دفع

عليها او المعاونة فى تحصيلها ، فاسرها كليبر فى نفسه ، ولما عادت الكتيبة وتحقق ما لحق جنودها من الخسائر بسبب توالى هجوم الاهلين عليها اجتمعت كل هذه العوامل وافضت الى القبض على السيد كريم .

ولما علم نابليون بما هو منسوب الى السيد كريم ارسل الى الاميرال برويس بان يكبلـه بالحديد لكى لا يهـرب من الاعتقال .

وارسل السيد كريم الى القاهرة وظل سـجينا رهـن التحقيق ، وتولى الجنرال ديبوى Dupuy قومندان القاهرة أمر التحقيق معه ، فاستجوبه فى التهمة الموجهة اليه وهى اتصاله بأعداء فرنسا ، وانتهى التحقيق بثبوت التهمة عليه ، وأصدر نابليون أمره فى ٥ سبتمبر سنة ١٧٩٨ باعدامه رميا بالرصاص ومصادرة املاكه وامواله ، وسمح له ان يفتدى نفســه بدفع غرامة ثلاثين الف ريـال فى أربع وعشرين ساعة ، فلم يقبل السيد كريم ان يدفع هذا المبلغ ، وأظهر جلدا وشجاعة امام حكم الاعدام ، فكان بطلا من ابطال المقاومة .

وقد نصحه المستشرق فانتور Venture كبير تراجمة الحملة الفرنسية بأن يدفع الغرامة وقال له : « انك رجل غنى فماذا يضيرك ان تفتدى نفسك بهذا المبلغ ؟ » .

فأجاب السيد كريم : « اذا كان مقدورا على ان اموت فلا يعصمنى من الموت ان ادفع هذا المبلغ ، واذا كان مقدرا لى الحياة فعلام ادفعه ؟ » .

وظل على اصراره الى ان نفذ فيه الحكم بالاعدام رميا بالرصاص فى ميدان الرميلة (القلعة) يوم ٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨ ومات بطلا شهيدا .

تكريم الثورة لذكرى السيد كريم
بعد نيف ومائة وخمسين عاما

وفى سنة ١٩٥٣ أمرت حكومة الثورة بتكريم ذكرى السيد محمد كريم ، فوضعت لاول مرة صورته مع صور محافظى الاسكندرية فى دار محافظة المدينة تخليدا لذكراه .

واطلق اسمه على شارع من أهم شوارع الاسكندرية وهو (شارع التتويج) فصار اسمه (شارع السيد محمد كريم)
واطلق اسمه على المسجد الذى يحمل الان اسم السيد محمد كريم والكائن بجوار قصر رأس التين ، وكان منشأ داخل أسوار القصر ليحمل اسم فاروق ، فاستبدل به اسم السيد محمد كريم ووضعت فى واجهة هذا المسجد لوحة رخامية تذكارية نقشت عليها العبارة الاتية :

« اكبارا للبطولة وتكريما للذكرى واعتزازا بالوطنية وانصافا للتاريخ رأت وزارة الاوقاف ان يطلق اسم السيد

محمد كريم على هذا المسجد فى حى رأس التين ، والسيد محمد كريم هو حاكم الاسكندرية وابنها البار وشـــهيدها العظيم ، اعتقله الجيش الفرنسى وقتله رميا بالرصاص فى مدينة القاهرة بجوار القلعة يوم ٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨ وهو يدافع عن امته ويزود دنس الاحتـــلال عن شرف وطنـــه العزيز » .

وافتتح قادة الثورة هذا المسجد يوم الجمعة ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٥٣ ، وادوا فيه فريضة الجمعة ايذانا بافتتـــاحه للشعب ، وهكذا كرمت الدولة ذكرى السيد محمد كريم بعد ان ظلت مغمورة فى عهد الحكومات المتعاقبة قبل ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ .

فى البحيرة

كانت البحيرة اول مديرية اجتازها الجيش الفرنسى فى زحفه الى القاهرة فلاقت من وراء اجتيازه لها شدائد وأهوالا منها نهب القرى التى مر بها الجيش ، وقد قاومت القرى زحف الحملة قدر ما اســتطاعت ، وبلـغ الفرنســـيون (الرحمانية) على شاطىء النيل يوم ١٠ يولية سنة ١٧٩٨ ، ووصلت اليها عن طريق رشيد حملة نيلية يقلها اســـطول من السفن الفرنسـية الخفيفة .

ولما علم مراد بك وهو فى العاصمة بأنباء زحف الجيش الفرنسى تقدم بجيشـه ليصد زحف الفرنسـيين .

معركة شبراخيت
١٣ يولية سنة ١٧٩٨

وكان جيش مراد بك مؤلفا من نحو ١٢ الف مقاتل ، منهم ثلاثة آلاف فقط من فرسان المماليك ، والباقون من المصريين ، وكان هؤلاء مسلحين بالبنادق والعصى (الشماريخ) ، ويحمى ميمنة هذا الجيش اسطول من السفن المصرية المسلحة يقوده القبطان خليل الكريتلى .

وقد التقى الجيشان فى شبراخيت يوم ١٣ يولية سنة ١٧٩٨ ، ودارت فيها معركة تراوح الحظ فيها بين الفريقين فقد تلاقى الاسطولان المصرى والفرنسى فى النيل بالقرب من شبراخيت ، واخذا يتبادلان اطلاق القنابل ، وكان مركز الاسطول الفرنسى فى بداية الواقعة محفوفا بالخطر ، اذ كان الوف من الاهلين المسلحين على شاطىء النيل يهاجمونه من الجانبين ، فغرقت منه خمس سفن فى قاع النيل ، واستولى الاهلون على سفينتين مسلحتين ، ومرت لحظة كادت الدائرة تدور على السفن الفرنسية لولا احكام مرمى مدافعها ، فأصابت قنبلة منها سفينة من سفن الاسطول المصرى كان بها مستودع البارود ، فانفجرت ونسفت السفينة نسفا .

نزلت قوة من الجنود الفرنسيين الى البر لمقاومة الاهلين الذين كانوا يطلقون النار على السفن ، فاستطاعوا ان يبعدوا

عن الشاطىء جموع الاهلين الذين كانوا يهاجمون الاسطول الفرنسى ، واستمر القتال ثلاث ساعات .

ثم دار القتال بين الجيشين برا ، وانتهى بهزيمة جيش مراد بك بعد ان قتل منه نحو مائتى قتيل ، وتعقبه نابليون بجنوده واحتل شبراخيت واخلى شاطىء النيل من جموع الاهلين الذين كانوا يهاجمون الاسطول الفرنسى ، وتراجع جيش مراد بك الى امبابة للدفاع عن القاهرة .

يتضح من هذا البيان ان القسط الذى احتمله الاهلون فى معركة شبراخيت كان اكبر مما احتمله المماليك .

وبعد انسحاب مراد بك تابع الجيش الفرنسى زحفه قاصدا القاهرة ، وكان الاهلون يتعقبون فرق الجيش الزاحفة ويقتلون كل من يدركونه ممن يتخلفون عن الجيش اعياء او تعبا ، او ممن يتنقلون بين مختلف القرى لتبليغ الرسائل بين قواد الفرق الفرنسية .

الفصل الرابع

المقاومة فى القاهرة

كانت القاهرة فى اضطراب وفزع منذ أن علمت برسو العمارة الفرنسية فى مياه الاسكندرية ، فقد ارسل السيد محمد كريم الى مراد بك يخبره الخبر ، وكان اسلوب رسالته يدل على خطورة الحال ، قال فيها : « ان العمارة التى حضرت هذا اليوم مراكب عديدة مالها أول يعرف ولا آخر يوصف ، فبالله ورسوله أدركونا بالرجال » .

فلما تلا مراد بك الرسالة اجتمع بزميله فى الحكم (ابراهيم بك) وعقد الاثنان جمعية عامة من كبار العلماء والمماليك ، وانتهوا الى وجوب الاستعداد للقتال .

وسار مراد بك بجيشه فى البر وبمراكبه فى النيل لملاقاة الفرنسيين ، وكان ما كان من هزيمته فى واقعة شبراخيت كما سلف القول .

تطوع الشعب للقتال

ولما وصلت القاهرة انباء واقعة شبراخيت وتراجع جيش مراد بك ، احس الناس شرا مستطيرا .

اما المماليك فقد ادركوا حرج موقفهم امام الجيش الزاحف ، فاخذوا يهتمون بشئونهم دون الدفاع عن المدينة ، وينقلون امتعتهم من قصورهم المشهورة الى بيوت صغيرة لا يعرفها أحد ، واستمروا عدة ليال ينقلون امتعتهم ويستودعونها معارفهم وثقاتهم ، وارسلوا بعضها للاقاليم ، كل ذلك حتى لا تصل اليها أيدى المغيرين بعد احتلال المدينة ، وبينما هم منهمكون فى هذه الصغائر كان اهل القاهرة الذين طالما عانوا من ظلم المماليك ما عانوا ، يتطوعون للدفاع عن العاصمة فى وجه الجيش الزاحف ، وظهر الشعب فى ساعة الخطر ارقى نفسا وانبل قصدا من حكامه الظالمين ، ففى يوم الثلاثاء ١٧ يوليه سنة ١٧٩٨ ، اى قبل معركة الاهرام ببضعة ايام ، نودى بالنفير العام وخروج الناس للمتاريس ، فلبى الاهلون الدعوة واغلقوا الدكاكين والاسواق ، وخرج الجميع الى جهة بولاق للدفاع عن القاهرة ، واشتركت طوائف الشعب فى التطوع ، فكانت كل

طائفة من اهل الصناعات تجمع المال من افرادها اكتتابا ويجتمعون ليرتبوا ما يصرف عليهم وما يحتاجون اليه مما جمعوا ، وتبرع بعض الناس بالانفاق على البعض الآخر ، ومنهم من جهز بالسلاح والزاد بعض المقاتلة ، بحيث بذل جميع الناس ما في وسعهم وفعلوا ما في مقدورهم وطاقتهم، وسمحت نفوسهم بانفاق أموالهم ، فلم يشح أحد في ذلك الوقت بشيء يملكه ، وخلت طرقات العاصمة وبيوتها من كل قادر على حمل السلاح ، واتجهوا جميعا نحو بولاق استعدادا لرد الجيش الزاحف على البلاد ، ولم يبق في المنازل سوى النساء والصغار والضعفاء والمرضى الذين لا يقدرون على الحركة ».

سوء استعداد المماليك وضعف وسائل الدفاع

تلك كانت حالة الشعب النفسية واستعداده للبذل والتضحية دفاعا عن عاصمة البلاد ، ولم يكن في الامكان ان تنجح هذه التدابير في رد جيش نابليون المجهز بالعلم والنظام والسلاح والكفاءة الحربية التي اكسبته النصر في حروب أوروبا ، لكن أهل القاهرة لم يقصروا في الدفاع ، وانما المقصر المسئول عن ضعف المقاومة هم طائفة المماليك الذين قضوا السنين الطوال يتخبطون في الجهل والغباوة ، لا هم لهم الا ارتكاب المظالم وابتزاز أموال الناس بالباطل ، فأهملوا شأن الدفاع عن البلاد ، وتركوا القلاع التي أنشأها أسلافهم السلاطين تتهدم وتتخرب ، ومن ثم سرى الخراب الى قلاع

الاسكندرية وابو قير ورشيد ودمياط والبرلس والقرين ،
وخلت من آلات الحرب والمدافع الصالحة للضرب ، وكذلك
قلعة القاهرة لم تعد فى عهدهم تصلح للدفاع عن المدينة
بما توالى عليها من الاهمال وقلة الاستعداد .

واقعة امبابة او معركة الاهرام

٢١ يولية سنة ١٧٩٨ — ونصيب المصريين فيها

يصور بعض المؤرخين واقعة الاهرام قتالا دار بين
الفرنسيين والمماليك وحدهم ، والواقع أن المصريين قد
اشتركوا فيها بمقدار ما لديهم من قوة واستعداد ، وفى الحق
ان قسطهم فيها كان أكبر من قسط المماليك .

بعد ان انسحب مراد بك من شبراخيت وتراجع الى
القاهرة ، اخذ يستعد للقتال فى امبابة بالبر الغربى للنيل ،
واقام المتاريس بين امبابة وبشتيل (شمالى امبابة بغرب) ،
وكانت قواته ممتدة من بشتيل وامبابة الى الاهرام ، فميمنة
الجيش كانت مرتكزة على شاطىء النيل وقاعدتها امبابة التى
انشأ فيها مراد بك الاستحكامات والمتاريس وركب فيها
المدافع ، والميسرة تمتد قريبا من الاهرام ، وبينهما القلب .

ورسا الاسطول المصرى على ساحل امبابة ، وكان مؤلفا من
السفن الراسية تجاه بولاق وما انضم اليها من المراكب
الحربية التى قدمت من دار صناعة الجيزة (الترسانة) .

اما ابراهيم بك فقد عسكر فى بولاق على الشاطىء الشرقى للنيل ، وتفاوض مع الوالى والعلماء فى اعداد معدات الدفاع، فأجمعوا رأيا على اقامة متاريس من بولاق الى شبرا ، فصار البر الغربى والبر الشرقى للنيل مملوءين بالمقاتلة والمدافع والمتاريس .

وفى الساعة الثانية من صبيحة يوم السبت ٢١ يوليه سنة ١٧٩٨ تحركت فرق الجيش الفرنسى كلها من ام دينار واستقرت فى نحو الساعة الثانية بعد الظهر بين وراق الحضر (بالبر الغربى للنيل) وبشتيل ، فكانت الاهرام عن يمينهم ، والنيل عن يسارهم ، وأمامهم قرية امبابة وفيها جموع المقاتلة من المصريين وعددهم نحو عشرين الفا تحميهم المدافع والمتاريس وتتألف منهم ميمنة جيش مراد بك ، وفى القلب والميسرة فرسان المماليك ومتطوعة القاهرة وعددهم نحو سبعة آلاف يرابطون فى خط يمتد بين النيل والاهرام ، وفى أقصى الميسرة فرسان العرب .

واطمأن نابليون لما شاهد جيش مراد بك وقابل بين قواته وقوات خصمه ، وكيف لا يطمئن وهو قادم بجيش مؤلف من ثلاثين الف مقاتل مزودين بأحدث آلات الحرب والقتال مدربين على خوض غمار الحروب ممتازين بالنظام وكفاية القيادة معتزين بالانتصارات التى نالوها فى ميادين القتال بأوروبا ، وأمامهم جيش يعوزه الاستعداد والنظام والسلاح وكفاية القيادة ، أى ينقصه كل ما يكفل له الفوز والظفر .

نشبت المعركة بعد ان رتب نابليون فرق الجيش على شكل مربعات ، ووضع المدافع على زوايا كل مربع ، وهجم بهذه الفرق على جيش مراد بك ، ودار قتال شديد بين الفرنسيين من جانب ، والمصريين والمماليك من جانب آخر ، وكر هؤلاء على الفرنسيين ، لكنهم ارتدوا أمامهم ورجعوا الى معاقلهم ، وحاولوا صد هجوم الفرنسيين باطلاق النار من المدافع المركبة فى استحكامات امبابة ، لكن هذه المدافع كانت من الطراز العتيق فلم تطلق قنابلها الا مرة واحدة ولم يستطع رماتها ان يعيدوا الضرب بها ، فاختل نظام الجيش المصرى ، واحاط الفرنسيون بالاستحكامات لقطع خط رجعة المصريين الى النيل ، وتمكنوا من تطويقها ، فوقع المصريون والمماليك بين نارين ، فكان العدو أمامهم ، والنيل من ورائهم ، فوقعت الهزيمة بجيش مراد بك ومات معظم رجاله قتلا أو غرقا فى النيل .

واستولى الفرنسيون على امبابة وغنموا ما بها من المدافع والاستحكامات والمؤن .

فلما علم مراد بك بسقوط امبابة تحقق أن الهزيمة حلت به ، ففر بالباقين من جنوده وكان عددهم نحو ثلاثة آلاف الى جنوبى الجيزة ، واغرق المماليك السفن المصرية التى كانت بالنيل حتى لا تقع فى أيدى الفرنسيين .

وانتهت المعركة فى نحو الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم بانتصار الغزاة والقضاء على قوة البلاد الحربية .

ولكن بقيت قوة الشعب المعنوية تغذى روح المقاومة فى مختلف انحاء البلاد .

بلغت خسائر جيش مراد بك فى معركة الاهرام نحو الفى قتيل من المماليك وخمسة آلاف من المصريين ، وهذا الاحصاء يدل قطعا على ان الشعب قد احتمل من اعباء الدفاع وتضحياته أكثر مما احتمل المماليك .

وقدر نابليون خسائر الفرنسيين بثلاثمائة قتيل .

وبعد انتهاء المعركة سار نابليون الى الجيزة ، واتخذ قصر مراد بك معسكرا له .

اما ابراهيم بك الذى كان يرابط بالشاطىء الشرقى للنيل فانه ظل يرقب تطورات المعركة ، وبقى جامدا لا يتحرك حتى علم بهزيمة صاحبه مراد بك ، فركن الى الفرار هو ومن معه من المماليك وغادروا العاصمة وقصدوا الى بلبيس ثم الى سوريا حاملين ما وصلت اليه ايديهم من المتاع والاموال والتحف لينجوا بها ويستخلصوها لانفسهم ، وبذلك ترك رؤساء المماليك سكان القاهرة وأهل البلاد وجها لوجه امام القوات الفرنسية الزاحفة .

ولا يمكن لامة عزلاء من السلاح أن تدافع عن كيانها باكثر مما فعلت الامة المصرية فى عهد الحملة الفرنسية .

الفصل الخامس

المقاومة السلبية

دخل الفرنسيون القاهرة بعد معركة الاهرام ، فلم يستسلم أهلها لعزاة المستعمرين ، وكان من أسلحتهم فى النضال سلاح المقاومة السلبية ، الى جانب المقاومة الايجابية .

أراد نابليون أن يستميل اليه الاهلين بادعائه أنه انما جاء لمحاربة المماليك دون المصريين ، ولكن الشعب المصرى ادرك بفطرته السليمة ان الاستعمار انما يريد اخضاع البلاد وبسط سيطرته عليها ، فوجبت محاربته .

وقد أنشأ نابليون ديوانا فى القاهرة مؤلفا من بعض العلماء للمشاركة فى الحكم ، ولكنه كان مسلوبا كل سلطة .

سياسة الحفلات

وكان مما عمد اليه نابليون لاستمالة المصريين اقامة حفلات الابتهاج فى مختلف المناسبات ، محاولا بذلك ادخال السرور الى نفوسهم .

وكان لنابليون غرض آخر من اقامة هذه الحفلات ، وهو انه اراد ان يحجب عن الشعب عظم النكبة التى حلت باسطوله فى الامير ال انلس والاسطول الفرنسى بقيادة الاميرال بروبس ، وانتهت بتحطيم الاسطول الفرنسى وتدمير معظم بوارجه واسر الباقى وقتل اميراله وخيرة رجاله ونحو اربعة آلاف من بحارته ، فكانت هذه الواقعة كارثة عظمى اصابت البحرية الفرنسية وقضت على آمال فرنسا فى بسط سيادتها على البحر الابيض المتوسط ، وجعلت الحملة الفرنسية شبه محصورة فى مصر .

ومع عظم هذه الكارثة فقد قابلها نابليون بالجلد ، وتظاهر امام المصريين انه لا يكترث لها ، وعمد الى سياسة الحفلات يحجب بها جزعه ويحاول أن يستميل بها قلوب الشعب .

مهرجان وفاء النيل

فانتهز أولا فرصة وفاء النيل واراد ان يشارك المصريين احتفالهم بهذا اليوم السعيد ، وامر ان يجرى الاحتفال

المعتاد وان يشترك الجيش في الفوجان (١٨ أغسطس سنة ١٧٩٨) ، وأقيمت الزينات وأطلقت المدافع والصواريخ من البر والبحر ، ولكن الاهلين لم يشتركوا في هذا الاحتفال وقاطعوه ولم يخرجوا للتنزه ليلا في المراكب كعادتهم كل عام ، ومن هذه المقاطعة تستطيع أن تعرف الحالة النفسية للشعب ومبلغ انصرافه عن الاشتراك في الاحتفال بيوم يبتهجون له كل عام .

حفلة المولد النبوى

وجاءت مناسبة أخرى حاول فيها نابليون التودد الى الشعب ، وهي حفلة المولد النبوى الشريف (ليلة ١٢ ربيع الأول سنة ١٢١٣ ـ ٢٤ اغسطس سنة ١٧٩٨) ، فأمر أن يحتفل به كالمعتاد ، وأقيمت الليلة الكبرى للمولد في منزل السيد خليل البكرى نقيب الاشراف ، وحضر نابليون الاحتفال وشهد حفلة الذكر من بدايتها الى نهايتها .

تعيين أمير الحج

وكانت التقاليد المتبعة في ذلك العصر ان يعين أمير للحج كل عام في حفلة حافلة ، فأمر نابليون ان تتبع هذه السنة ، فعين مصطفى بك وكيل الوالى التركى اميرا للحج يوم أول سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، وخلع عليه خلعة خضراء ، وأهداه جوادا كريما وأطلقت المدافع ابتهاجا بهذا التعيين .

عيد الجمهورية الفرنسية

وانتهز نابليون ايضا فرصة عيد الجمهورية الفرنسية الأولى (٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨) فأقام بميدان الازبكية احتفالا عسكريا فخما ، ونصب الفرنسيون اقواس النصر ، واقيم عرض عسكرى ، واضيىء ميدان الازبكية ليلا ، ونصبوا فى وسط الميدان عمودا مرتفعا سموه (شجرة الحرية) ، واستمرت الموسيقى تعزف الى ما بعد منتصف الليل .

وبالرغم مما بذله الفرنسيون ليجعلوا احتفالهم حافلا بمظاهر السرور والبهجة ، فقد قاطعه المصريون واعرضوا عنه ، وكانت نفوسهم منقبضة عن تلك المظاهر ، وكانوا يقولون عن (شجرة الحرية) انها (اشارة الخازوق الذى أدخلوه فينا ، واستيلائهم على مملكتنا) كما رواه شاهد عيان ممن سمعوا هذه العبارة .

واستمر هذا العمود منصوبا نحو عشرة اشهر ، ثم رفعه الفرنسيون ، فاستبشر الاهلون بازالته وابتهجوا فرحا .

الفصل السادس

المقاومة فى القليوبية والشرقية

سلف القول ان ابراهيم بك فر بمماليكه عقب انتصار الفرنسيين فى معركة الاهرام الى جهة بلبيس ، وحمل معه ما استطاع من الاموال والمتاع ، ولم تحارب القوة التى اصطحبها معه فى معركة الاهرام ، فبقيت سليمة وان كانت قليلة العدد ، لكن نابليون توجس من وجود هذه القوة فى شرق الدلتا وعلى مسافة ٤٠ كيلو مترا تقريبا من القاهرة ، ورأى فيها خطرا يتهدد مركز الفرنسيين ، فاعتزم بعد ان وطد مركزه فى القاهرة ان يتعقب ابراهيم بك ليخلص له الوجه البحرى ، وكذلك اجمع ان يطارد مراد بك الذى فر بالبقية الباقية من فلول جيشه الى الوجه القبلى .

المعارك بين الخانكة وابى زعبل

بدأت طلائع الجيش الفرنسى تزحف يوم ٢ اغسطس سنة ١٧٩٨ من القاهرة فمرت بالقبة ومنها سارت الى المطرية ثم الى المرج دون أن تجد مقاومة ما ، فان الاهالى كانوا ينزحون عن بلادهم قبل قدوم الفرنسيين ، ومن المرج سارت القوة الى الخانقاه (الخانكة) وبها استقرت واتخذها الفرنسيون قاعدة عسكرية للزحف ومركزا لتموين الجيش ، وانشأوا بها الأفران ومخازن البقسماط والزاد والعلف .

قصدت الكتيبة الفرنسية يوم ٤ من اغسطس قرية ابى زعبل ، ولكن صدهم عنها جمع من العرب والفلاحين مسلحين بالبنادق والعصى (الشماريخ) فعادت ادراجها الى الخانكة ، واخذ الاهالى من العرب والفلاحين يتعقبونها الى مستقرها .

وفى صباح ٥ من اغسطس هاجم الاهالى المخافر الامامية لمعسكر الخانكة بقوة أكبر من قوتهم الاولى ، اذ انضم اليهم مائتان من المماليك ، وبدأ الهجوم ، فبرزت من غابة ابى زعبل قوة من فرسان العرب يتبعهم عدد حاشد من الفلاحين . ولم يكن هؤلاء يحملون فى الغالب الا أسلحة ضعيفة فلم يتجاوز عدد حملة البنادق منهم السدس ، فأحاطوا بالفرنسيين من كل جانب ، تخفيهم المزارع والغيطان ، وانضم اليهم سكان القرى المجاورة ، فأطلقوا النار على الفرنسيين من كل صوب ، ولكن نيران المدفعية والبنادق أوقفتهم بعيدا عن المعسكر ، فأعادوا الهجوم كرة بعد كرة ، واضطر جنود المقدمة الى التراجع ، وأخلى الفرنسيون الخانكة مؤقتا .

وبعد أن تلقى الفرنسيون المدد احتلوا الخانكة بعد مقاومة عنيفة ثم احتلوا بلبيس .

معركة الصالحية

(١١ أغسطس سنه ١٧٩٨)

لم يضيع نابليون وقتا فى بلبيس بل ارسل قوة من فرسانه ليلة ١٠ أغسطس فى أعقاب ابراهيم بك ، ووصل الجيش الى (القرين) فى ١٠ أغسطس دون ان يلحق بقوة ابراهيم بك الذى غادرها قبيل وصول الجيش الفرنسى قاصدا الى الصالحية ، فتعقبه نابليون بفرسانه واشتبك مع قوة المماليك فى معركة عرفت بمعركة الصالحية (١١ اغسطس سنة ١٧٩٨) لانها وقعت على مقربة منها ، وقد حمى وطيس القتال فى هذه المعركة ، وكادت تدور الدائرة على قوة الفرنسيين لانها كانت مؤلفة من عدد قليل من فرسانهم لايزيد على اربعمائة ، وكان فرسان المقاومة أكثر منهم عددا وأشد بأسا ، فكانت هذه اول معركة نشبت بين فرسان الجيشين والتقى فيها الفريقان وجها لوجه ، واقتتلوا بالسلاح الابيض، فتحرج وقتا ما مركز الفرنسيين ، ولم ينفذ نابليون الا وصول المدد اليه ، فاضطر المماليك الى الانسحاب الى حدود مصر الشرقية .

ولم تنقطع حركات المقاومة فى الشرقية والقليوبية .

الفصل السابع

ثورة القاهرة الاولى

٢١ – ٢٢ أكتوبر سنة ١٧٩٨

لم تكن القاهرة فى يوم من الايام راضية عن الاحتلال الفرنسى أو مستسلمة له ، وما فتئت تتحين الفرص للتخلص منه ، وعبثا حاول نابليون بعد انتصاره الحربى أن ينتصر على ثورة النفوس وأن يجتذب اليه قلوب المصريين ، ولم يكن انشاؤه الديوان ، ولا تودده الى الزعماء ، ولا اشتراكه فى حفلات الشعب ، ليحل الصفاء والوئام محل الجفاء والخصام .

والواقع أن يد الفرنسيين الباطشة قد ضربت على الديوان فجعلته محدود السلطة ، مشلول الارادة ، وكان

اعضاء الديوان انفسهم يظهرون الطاعة للفرنسيين مداراة ومجاملة ، وقلوبهم منكرة نافرة ، اعتبر ذلك فى المشادة التى حصلت بين نابليون واعضاء الديوان ، فقد طلبهم الى داره ذات يوم (اول سبتمبر سنة ١٧٩٨) ، ولما استقر بهم المقام اراد ان يلبسهم رداء الجمهورية الفرنسية ذا الثلاثة الالوان ، ووضع بيده الرداء على كتف الشيخ عبد الله الشرقاوى رئيس الديوان ، تكريما له وتعظيما ، فرمى به الارض محنقا غاضبا ، واستعفى من الديوان ، وعبثا حاول الترجمان أن يقنع الاعضاء أن الباسهم هذا الرداء هو تكريم لهم ، فلم يلق منهم قبولا ، وغضب نابليون على الشيخ الشرقاوى وقال انه لا يصلح للرئاسة .

لم يعمل اذن اعضاء الديوان على تمكين علاقات نابليون بالشعب ، وما كان فى استطاعتهم ذلك لو ارادوا ، فأخذ سخط الاهالى يستفحل ، وزاد فيه اعمال كثيرة احرجت صدورهم وانتهت بنشوب الثورة فى العاصمة .

ثارت القاهرة فى وجه الفرنسيين يوم الاحد ٢١ اكتوبر سنة ١٧٩٨ - ١١ جمادى الاولى سنة ١٢١٣ هـ .

لم يكن الفرنسيون يتوقعون أن تثور العاصمة فى وجههم وهم الذين فتحوا العواصم ودوخوا الممالك فى القارة الأوروبية .

لكن ثورة القاهرة جاءت عنوانا لنفسية الشعب المصرى ، ولا غرو فان الحملة الفرنسية قد استفزت فى نفوس الشعب

روح المقاومة الاهلية ، وكانت القاهرة مسرحا لتلك المقاومة ، كما كانت مصدرا لسريان الهياج والثورة الى انحاء البلاد كافة .

لماذا ثارت القاهرة ؟

ان لثورة القاهرة الأولى أسبابا ومقدمات عدة ، فهى ترجع أولا الى كراهة الشعب للاحتلال الاجنبى .

واجتمعت الى هذا السبب الرئيسى أسباب أخرى ثانوية وجوهرية .

فسلوك نابليون مع المصريين خالف فى كثير من المواطن ما وعدهم به فى منشوراته وبياناته ، لقــد كان ينعى على المماليك ظلمهم واعتسافهم ، فانظر ماذا فعل هو فى ارهاق الأهالى بالضرائب والمغارم .

لما دخل الفرنسيون القاهرة فرضوا على سكانها ضريبة فادحة فى شكل سلفة اجبارية (مائة الف جنيــه) ، ولم يستطع « الديوان » أن يمنعها على الرغم من تدخله فى الأمر وتوسطه فى تخفيضها ، وتلك كانت سنة الفرنسيين فى فرض الضرائب على مختلف البلاد ، فقــد فرضــوا على تجـار الاسكندرية ثلاثمائة الف فرنك وعلى تجار رشيد مائة الف فرنك ، وتجار دمياط ٥٠ الف فرنك ، وعلى تجار المنسوجات بالقاهرة ٦٠ الف ريال نقدا و ٤٠ الف ريال عروضا (ملابس

واحذية الجنود) وعلى تجار البن والبهار بالقاهرة ٢٠٠ ألف ريال ، وعلى الاقباط الذين يتولون تحصيل الضرائب في الاقاليم ١٠٠ ألف ريال ، ثم فرضوا على تجار خان الخليلي عشرة آلاف ريال ، ووكائل الصابون عشرة آلاف ريال ، ووكائل الفاكهة ستة آلاف ريال ، والسقائين ١٥ ألف ريال ، وتجار السكر عشرة آلاف ريال ، وتجار الاقمشة الهندية بالغورية ١٥ ألف ريال ، فهذه غرامات فادحة تنوء بها البلاد ولا سيما اذا لاحظنا ما كانت تعانيه وقتئذ من الضنك والفاقة .

وقد تفنن الفرنسيون فى ابتزاز الأموال ومصادرة الممتلكات بمختلف الوسائل ، فمن ذلك انهم أذنوا لنساء البكوات المماليك أن يفتدين انفسهن بالمال ليسكن فى بيوتهن ، وان كان عندهن شيء منه يصالحن على أنفسهن ويأمن فى دورهن .

فهذه طريقة بلغت حد الاعنات والارهاق فى جمع الأموال من النساء تلقاء أن يأمن على أنفسهن ! وهى أشد وطأة من الغرامات الحربية .

وقطعوا رواتب الاوقاف الخيرية عن مستحقيها الفقراء « فبمثل هذه المغارم الفادحة لا يمكن أن تجتذب القلوب وتسترضى النفوس »

ولم تقتصر هذه المغارم على الايام الاولى من الاحتلال ، بل استمر الفرنسيون فى فرض الضرائب وجمع الأموال

ولا سيما بعد أن تحطم اسطولهم فى معركة (أبو قير)
واصبحت الحملة الفرنسية منقطعة عاجزة عن تلقى الامداد
والمساعدات من فرنسا متروكة لمواردها وموارد البلاد ، فأخذ
الفرنسيون من ذلك الحين يتفننون فى ابتزاز الأموال من
البلاد وأهلها ، وتذرعوا الى ذلك بوضع نظام ابتدعوه لاثبات
الملكية وتسجيل السندات والعقود وما تبعه من فرض اتاوات
جديدة .

راى الشعب ان الضرائب التى كانت تثقل كاهله فى عهد
المماليك قد بقيت كما كانت وزادت عليها ضرائب جديدة
ابتكرها الفرنسيون ، فصارت الحالة من الوجهة المالية اسوأ
مما كانت فى عهد المماليك ، والمسائل الاقتصادية كانت فى
مختلف العصور والبلدان من أهم أسباب تذمر الشعوب
وشكواها .

مصادرة الاملاك وهدم المبانى

ومن مظالم الفرنسيين التى أحرجت الصدور انهم اخرجوا
كثيرا من أصحاب البيوت من بيوتهم بحجة حاجتهم هم
اليها ، وهدموا كثيرا من المبانى والآثار والمساجد بحجة
تحصين قلعة القاهرة .

هدم ابواب الحارات

وأمروا كذلك بهدم أبواب الحارات والدروب ، وكانت
هذه الأبواب تغلق فى الليل فتصير كل حارة فى مأمن من

اعتداء اللصوص ، فاشتد قلق الناس من هدمها وتظننو بالفرنسيين انهم عازمون على قتل الناس وهم فى صلاة الجمعة ، ولم يكن الناس واهمين فى ظنونهم ومخاوفهم ؛ فان الفرنسيين كانوا يقصدون من هدم الابواب اخضاع المدينة ومنع كل محاولة للمقاومة .

وقد اقفل التجار دكاكينهم احتجاجا على هذا العمل ، ثم عادوا وفتحوها تحت تأثير التهديد والارهاب .

القتل والارهاب

ومن المظالم التى اثارت نقمة الناس اعتقال الفرنسيين للسيد محمد كريم حاكم الاسكندرية الوطنى ، والحكم عليه بالاعدام وتنفيذ الحكم فيه كما سلف القول .

وكذلك وصول اخبار الفظائع التى ارتكبها الجنود فى المديريات ، وحضور الرهائن الذين قبض عليهم من البلاد وحبسهم بالقلعة .

والواقع ان الفرنسيين كانوا يسرفون فى قتل الناس ليدخلوا الرهبة فى قلوب الاهلين ويحملوهم على الخضوع والاذعان .

كل هذه الأسباب مجتمعة جعلت فكرة الهياج تختمر فى الأذهان ، وباءت الضرائب الجديدة فأشعلت بركان الثورة . ومهما اختلف المؤرخون الفرنسيون فى بيان أسباب ثورة القاهرة وعزاها بعضهم الى الدعاية الدينية التى كان يبثها

رجال الدين ، فانهم يعترفون بأن فداحة الضرائب كانت من اهم العوامل التى عجلت بها .

وكانت الدعوة الى الثورة تختلط علنا بأذان المؤذنين فيدعون الى الله والى الثورة على المآذن صباح مساء ، فبلغ تهيج النفوس اشده .

لجنة الثورة ورئيسها

كانت للثورة لجنة تديرها وتنشر دعوتها وتنظم صفوفها ، ومقرها فى الأزهر ، واخذت هذه اللجنة تنظم المتطوعين للقتال وتستخرج الاسلحة المخبوءة ، وانتخب السيد محمد السادات رئيسا لهذه اللجنة .

فالازهر اذن كان مركز الثورة فى أواخر القرن الثامن عشر ، وقد شغل هذا المركز بعد أكثر من مائة عام ، فان الازهر خلال ثورة سنة ١٩١٩ كان فى فترة من الزمن المعسكر العام للثورة .

نشوب الثورة

اخذ دعاة الثورة يحرضون الناس على الثورة ، وشرعوا فى الوقت نفسه يثيرون الشكوك والريب حول اعضاء الديوان ، ويتهمونهم بممالاة الفرنسيين حتى لا يستمع الجمهور لنصائحهم فى الاخلاد الى السكينة ، وقد افلحوا

في احراج مركز اعضاء الديوان ، فاخذت منزلتهم تتضعضع في نفوس الشعب .

وسرت روح الثورة الى طبقة الملاك والتجـار وأصـحاب الصناعات ، وجاء تنفيذ نظام الضرائب الجديدة على طريقة مثيرة للخواطر ، لان تقييد الاملاك فى دفاتر الضرائب اقتضى معاينة المنازل والدخول فيها لتقدير قيمتها ، وهذا امر يستفز الملاك ، فاشتركت طبقات الشعب كلها فى ثـورة القاهرة ، واغتنم دعاة الحـركة فرصـة تذمر الشعب من الضرائب الجديدة فبداوا يعملون لاهتياج الخواطر ، واشعال النار ، وتعاهدوا على الاجتماع ليلة الأحد ٢١ اكتوبر سـنة ١٧٩٨ لرسم الخطة الواجب اتباعها ، فاجتمعوا وكان عددهم فى ذلك الاجتماع ثلاثين ، فاتفقوا رأيا على البدء بالعمل فى اليوم التالى ، وأزمعوا اقفال الدكاكين ودعوة اكبر عدد من التجار والصناع للذهاب بجمع كبير من الشاكين الى مركز القيادة العامة لرفع الصوت احتجاجا على الضرائب الجديدة ، وبذلك تحدث فى المدينة حركة تكون مقدمة للثورة .

اليوم الاول للثورة

(٢١ اكتوبر سنة ١٧٩٨)

ولقد وقع ما رسموا ، ففى اليوم الموعود ــ ٢١ اكتوبر ــ كانت القاهرة فى حالة لم يالفها الناس من قبل ، كان الناس يتألبون فى الشوارع زرافات ، يشـكون ، ويتهـددون ،

ويخطب بعض المعممين هذه الجموع فيشعلون نار الحماسة في نفوسهم فتقابلهم الجماهير بالتأييد والتحبيذ ، وكان الناس يتلاقون على غير تعارف ، فيتبادلون الشكوى ويتعاهدون على المقاومة ، واخذت سمات الغضب تبدو على الشعب الهادىء الوديع ، وظهرت الأسلحة فى ايدى المتجمهرين فى الشوارع والميادين بعد ما كانت محجوبة عن الانظار ، واقبل القرويون وأهل الضواحى الى القاهرة ، فاشتركوا فى هذا التجمهر ، واخذت صيحات السخط واللعنات تنصب على الفرنسيين ، ولم يعد هناك شك فى أن الثورة قد بدات »

وهرعت جموع الناس الى بيت القاضى التركى ابراهيم ادهم افندى ، وكان رجلا وقورا يحترمه الناس وله فى نفوسهم مكانة ومنزلة ، وتقدم عشرون من الثائرين فقابلوه وقالوا له انهم يريدون الذهاب الى بونابرت ليلغى نظام الضرائب الجديدة ، وطلبوا منه أن يركب معهم ، فاستجاب لهم ، ولكنه لم يكد يتخطى عتبة داره حتى راى الثائرين وجموعهم تزحف زحفا ، فادرك خطورة الامر وقال للجمع ان هذه الطريقة ليست مما يتبع لتقديم شكوى ... واعتذر من مصاحبتهم وانكفأ الى بيته ، فثارت نفوس الجماهير ونادوا : الى بونابارت ! الى بونابارت ! القاضى معنا الى بونابارت !

ولما لم يقبل القاضى مصاحبتهم انهالوا عليه وعلى رجاله ضربا بالعصى ورجما بالاحجار »

كانت هذه الحادثة كاعلان للثورة ، فاحتشدت الجموع في الجامع الأزهر يضجون ويصيحون ويهتفون بالقتال ، وامتلأت الطرق والشوارع بالناس حاملين الاسلحة قاصدين الى احياء الفرنسيين لمهاجمتها .

حدث كل ذلك والسلطات الفرنسية لم تحسب حسابا لهذه الجموع أو تتوقع حدوث ثورة ما ولم تتخذ التدابير لمنع احتشاد الجماهير المسلحة ، فعمت الثورة مدينة القاهرة كلها في اسرع من لمح البصر ، واخذ الثوار طريقهم الى مركز المخافر الفرنسية ، فقتلوا الجنود والحراس .

مقتل الجنرال ديبوي

لم يقدر الجنرال ديبوى قومندان القاهرة في مبدا الأمر خطورة الحالة ، وجاءته أنباء غامضة عن الهياج ، فلم يحسب لهحسابا ، ولم يده أمرا ذا بال ، واكتفى بانفاذ بعض دوريات من الجند ، ولكنه لم يلبث أن أنبىء الخبر بما يدل على اشتداد الأمر وتفاقم الثورة ، فعزم على مواجهتها ، وكان معروفا بالجرأة والاقدام ، فاصطحب ياوره وتاجرا فرنسيا يدعى المسيو بودوف Baudeuf ليكون ترجمانا له في مخاطبة الجماهير ، وسار يقصد بيت القاضي ليتعرف أسباب الهياج ، وأصدر في الوقت نفسه أمره الى الجنود المرابطة في بركة الفيل بأن تحمل السلاح وتتأهب للقتال ، ومضى في كتيبة من الفرسان قاصدا مركز الهياج ، فسار

من بركة الفيل (حيث كان يسكن) الى الموسكى واتجه الى شارع العورية ، واراد ان يذهب الى بيت القاضى (بين القصرين) ، ولكن الشوارع ازدحمت بالجموع حتى صارت كأنها بحر يزخر بالناس ، فاخذ الجنرال ديبوى يشق لنفسه طريقا بين هذه الجموع الصاخبة ، وتساقطت الاحجار على الكتيبة من الناس ومن المنازل ، فخرج من بين القصرين وباب الزهومة ، وهناك لقى جمعا من الثوار اخذوا الطريق عليه ، فحاول بودوف ان يخاطب الناس فأجابوه بالسخط واللعنات ، ولم يحسب ديبوى حسابا لعواقب مواجهته هذه الجموع الثائرة ، فهجم عليها على راس فرسانه ، فارتدت أول وهلة ، لكن الهجوم كان فى زقاق ضيق بحيث لم يستطع الفرسان أن ينطلقوا فى حركتهم ، فأطبق الناس على الجنرال ديبوى من كل جانب ، وانتهت هذه الملحمة بمقتل الجنرال .

ذاع خبر مقتل ديبوى فى انحاء المدينة كالبرق ؛ فحمى الثوار وامتلأوا حماسة ، وزاد عددهم وتضاعف ، وانحازت الجموع الى صفوف الثورة ، متشجعين بهذا « النصر الاول » واشتدت حمية القتال فى نفوسهم ، واستولوا على المواقع المحيطة بمعظم خطط القاهرة ، كباب الفتوح وباب النصر والبرقية الى باب زويلة وباب الشعرية الى جهة البندقانيين ، واتخذوا من مساطب الحوانيت متاريس اقاموها فى الشوارع والحارات يستدفعون بها الجنود ويعرقلون سيرهم ، واخذوا

يطلقون النار من خلالها ، وزادت جموع الثائرين بمن انضم اليهم من أهل الضواحى الذين اقبلوا من طريق الاهرام وطبيس ».

ولما بلغت الثورة هذا المبلغ أطلق مدفع الخطر وضرب النفير العام صائحا بالجنود الفرنسية الى القتال ، فاخذوا يتجمعون ويطلقون النار على الثوار فى الشوارع وخلف المتاريس ، وطفقت جموع الثوار تحتشد فى حى الازهر ، وامتنع بالجامع الأكبر خمسة عشر ألفا من أشد الثوار حماسة ، وأقاموا المتاريس فى الطرق والازقة الموصلة اليه ».

وهنا حضر نابليون اذ كان يتفقد استحكامات مصر القديمة والروضة ، فاذا بالقاهرة كالشعلة يضطرم نارها ، حضر صحبة بعض قواده ، فلما ادرك خطورة الثورة اعتزم اخمادها بالقوة ، فأمر أن تنصب المدافع على مرتفعات المقطم شرقى القلعة لتعاون مدافع القلعة فى اطلاق القنابل على الجامع الأزهر ».

وأمر بتنظيم قيادة الجنود المعسكرة فى الأزبكية واقامة مخافر من الجنود لمراقبة الجهات المجاورة لها ، وتسيير طلائع مسلحة لاكتشاف جهات القاهرة ووضع مدافع على منافذ الشوارع المهمة ، والتأهب لقمع الثورة فى اليوم التالى ».

اليوم الثانى للثورة

يوم الاثنين ٢٢ اكتوبر ١٧٩٨

انقضى الليل فى سكون ، والفريقان يتاهبان للغد ، ونصب الفرنسيون ليلا المدافع على سفح المقطم بالقرب من القلعة ، اما دعاة الثورة فقد ذهبوا فى جنح الليل الى القرى المجاورة يستصرخون الناس للقتال ، وفى الفجر كان اهالى هذه الضواحى يتوافدون على المدينة ، وكان معظم ابواب القاهرة لم تزل فى ايدى الثوار ففتحوها لهم ودخلوا المدينة وجابوا شوارعها حاملين اسلحتهم من عصى ورماح وبنادق .

وبدا النهار بتجمهر الاهلين فى الشوارع ، وكانت صيحات المتجمهرين تشق طريقها الى السماء ، واخذ نابليون ينفذ الخطة التى وضعها فى ليلته . فوجه الى كل جماعة من الثوار القوة الكافية للتغلب عليهم ، وعلم أن حشدا من الثوار قدرهم هو بين سبعة آلاف وثمانية آلاف خرجوا من باب الفتوح يرمون الى الهجوم على المرتفعات المركبة فيها المدافع ، فصدتهم الجنود الفرنسية وفرقت شملهم ، وصعد جموع من الثوار على اسطحة جامع السلطان حسن ومناراته لضرب القلعة ومن فيها من الجنود ، فلم يفوزوا بطائل ، وكانت كتيبة من الجنود الفرسان ومعها مدفعان تحتل مدخل الحارة الموصلة الى ميدان الازبكية ، فعزم الثوار على مهاجمة هذه الكتيبة ولكنهم لم يستطيعوا أن يهاجموها من الشارع فتسلقوا المنازل

وعلوا الأسطحة القريبة واحتلوا جامعا صغيرا يشرف على موقع الكتيبة ، واصلوها نارا حامية قتلت الكثير من الجنود ، فهجم العسكر على المسجد وحطموا ابوابه وقتلوا معظم الثوار بنار البنادق والمدافع ، وتنفيذا لتعليمات نابليون وزع القواد الفرنسيون جنودهم بعد الفجر فى ضواحى القاهرة لمنع سكانها ان ينحازوا الى ثوار العاصمة ، وقد صدت القوات الفرنسية جموعا كثيرة من الاهالى وحالت بينهم وبين العاصمة ، وبذلك تمكن نابليون من حصر الثورة فى المدينة وعزلها عن البلاد المجاورة .

ضرب المدينة بالمدافع

وبينما كان الثائرون مجتمعين فى الازهر قذفت اولّ قنبلة من المدافع القائمة على ربى المقطم ، فانفجرت فى المسجد ، وكانت هذه القنبلة نذيرا بابتداء ضرب المدينة بالمدافع . وابتدأ الضرب فى الظهر واستمر الى الليل .

أخذت آلاف القنابل تنهال على الأزهر وتترامى فى الاحياء المجاورة له ، كالصنادقية والغورية والفحامين ، وتنفجر بهول لم يعهده سكان القاهرة من قبل ، فالقت الرعب فى نفوس الناس ، وفى الوقت نفسه اقبلت كتائب الجنود فاحتلت الشوارع الموصلة الى الازهر ، بحيث اصبح الثوار محصورين بين نارين ، نار المدافع من فوقهم ، ونار الجنود من حولهم ، واحدثت المدافع تخريبا فى الجامع الازهر والبيوت القائمة فى الاحياء المجاورة له .

واوشك الجامع الازهر ان يتداعى من شـدة الضرب ، واصبح الحى المجاور له صورة من الخراب والتدمير ، فلم يكن يرى فيه الا بيوت مدمرة ، ودور محترقة ، ومات تحت الانقاض آلاف من السكان الآمنين ، وكانت الجهات القريبة من الازهر ولا سيما شوارع الغورية والصنادقية مسرحا لهذه المشاهد الفظيعة .

واستمر الضرب الى الساعة الثامنة مساء ، فوقع الاضطراب فى صفوف الثوار ، وطلبوا الهدنة والتسليم ، وانتهت المفاوضة بالقاء السلاح ورفع المتاريس ، فدخل منها الجنود الفرنسيون حتى وصلوا الى الجامع الازهر ، فاقتحموه عنوة وعسكروا فيه طول الليل .

وبذلك انتهت ثورة القاهرة ، وباتت المدينة تلك الليلة غارقة فى لجة من الظلام ولجة من الفزع .

قمع الثورة

تغلبت قوة الحديد والنار مرة اخرى على مقاومة شعب اعزل لا سلاح معه ، واستهدف سكان القاهرة بعد اخماد الثورة لأشد ضروب الانتقام ، ونزلت بهم النوازل بخطوبها واهوالها .

وبلغت خسائر الاهلين فى هذه الثورة على ارجح الروايات أربعة آلاف شهيد ، وهذا يدلك على ضخامة هذه الثورة .

وبلغت خسائر الفرنسيين ٢٠٠ قتيل ، منهم جنرال وهو (ديبوى) ، وكولونل (سلكوسكى) ، وبعض الضباط والمهندسين الذين استهدفوا لسخط الشعب اذ كانوا يتولون اقتلاع ابواب الدروب والحارات وهدم البيوت ونبش القبور .

فظائع الفرنسيين فى أخماد الثورة

أسلفنا أن عدد من قتلهم الفرنسيون من سكان العاصمة فى اخماد الثورة بلغ على أرجح الروايات أربعة آلاف ، ولا جدال فى أن قمع الثورة فى مدينة اشتهر أهلها بالوداعة والسكينة ما كان يدعو الى افناء هذا العدد الكبير من السكان ، على أن قواد الفرنسيس لم يكن همهم الا قمع الثورة بكل وسائلهم فى الفظاعة والارهاب ، ولم يحسبوا حسابا لتضميد جراح النفوس واجتذاب قلوب الشعب بعد هذه الضربة . والواقع ان ثورة القاهرة وما تخللها واعقبها من الفظائع قد باعدت بين المصريين والفرنسيين ، فالدماء التى سالت فى شوارع العاصمة فى أيام ٢١ و ٢٢ و ٢٣ أكتوبر وما بعدها قضت نهائيا على آمال نابليون فى اكتساب قلوب الشعب المصرى ، على أنك اذا تأملت فى الفظائع التى ارتكبها الفرنسيون بعد تسليم المدينة واخلادها الى السكنية وجدتها ابعد ما تكون عن مقتضيات الحرب والقتال ، ولهى أجدر أن تعتبر من ضروب التنكيل والانتقام .

ولم تقتصر الفظائع على اليوم الذى أخمدت فيه الثورة بل استمرت بعد ذلك ولا ضرورة لها من حرب ولا من سياسة .

ففى يوم الثلاثاء ٢٣ أكتوبر ، غداة احماد الثورة ، بعد أن سادت السكينة واستولى الفزع على النفوس ، كانت الجنود لم تزل مرابطة بالازهر وما حوله فكانوا يمنعون الناس من دخول الجامع ، وشردت الجنود فى الأحياء المجاورة للأزهر ونهبوا بعض البيوت بحجة التفتيش على السلاح حتى اضطر سكان تلك الجهة الى الرحيل عن دورهم والنجاة بأنفسهم ، واخذ الجنود يتسكعون فى الاسواق ويقفون صفوفا ، فاذا مر بهم أحد فشوه واخذوا ما معه ، وربما قتلوه ، وصاروا يقبضون على الناس جزافا بحجة انهم كانوا يخبئون السلاح أو انهم اشتركوا فى الثورة ، فوقع الفزع وكثرت الوشايات ، وراجت الدسائس ، وتفالت المفتريات ، وتعددت المظالم ، واستبيحت الحرمات ، واملأت السجون بالابرياء ، وذاق الناس فيها أنواع الأذى والهوان ، وقتل منهم الكثير بلا محاكمة ولا حساب .

ففظائع الفرسيين جاوزت الغرض من اخماد الثورة الى الانتقام والارهاب ويعترف الفرنسيون بأن اعدام كثير من المتهمين فى الثورة تم سرا فى القلعة من غير محاكمة ، فقتلوا بحد السنك ، ويعترف القواد الفرنسيون فى رسائلهم التى تبادلوها بالفظائع التى ارتكبت فى قمع الثورة .

ومما يذكر في هذا الصدد ان نابليون أمر الجنرال برتييه رئيس اركان حرب الجيش الفرنسي بتاريخ ٢٣ اكتوبر ان يصدر تعليماته الى قومندان المدينة ، بقطع رؤوس جميع المسجونين الذين اخذوا ومعهم اسلحة ، وارسال جثثهم الى شاطىء النيل فيما بين بولاق ومصر القديمة ، واغراقها في النهر .

وفي مذكرات نابليون أن رجال الشرطة قبضوا على ثمانين من أعضاء لجنة الثورة وسجنوهم بالقلعة ، وأن نحو اربعة آلاف من سكان العاصمة هاجروا منها قبل شروق الشمس قاصدين الى السويس ليلتجئوا اليها (وكان الفرنسيون لم يحتلوها بعد) وان اعضاء لجنة الثورة (اى الثمانين) قد ثبتت ادانتهم ، فأصدر المجلس العسكرى يوم ٢٤ أكتوبر سنة ١٧٩٨ قرارا باعدامهم جميعا ، ونفذ فيهم الحكم ، ولعل هؤلاء هم الذين اعدموا سرا بدون محاكمة كما سلف القول .

وقد أسرف الفرنسيون في القتل ، ولم تأخذهم رحمة حتى بالنساء ، فقتلوا كثيرا منهن ، وهذا من أفظع ما سمع في التنكيل وسفك الدماء ، قال (بوريين) سكرتير نابليون الخاص في مذكراته : « سيق المسجونون الى القلعة ، وكنت أتولى في مساء كل يوم كتابة الاوامر القاضية باعدام اثنى عشر سجينا كل ليلة ، وكانت جثث القتلى توضع في زكائب وتغرق في النيل ، واستمر ذلك ليالي عديدة ، وكان كثير من النساء ممن نفذت فيهن احكام الاعدام الليلية » .

وفى مذكرات نابليون ايضا ان السيد محمد السادات الذى انتخب رئيسا للجنة الثورة نفى عن نفسه تهمة التحريض على الثورة بانه كان مريضا ، وقد تردد نابليون فى شأنه ، وقال فى مذكراته انه مع قيام البينات على أنه زعيم الثورة ، فقد عفا عنه ورأى ان الضرر من قتله اكثر من نفعه ، لما كان له من المنزلة الرفيعة فى الشرق ولان قتله يجعله شهيدا فى نظر الشعب .

اما الذين حوكموا رسميا من المقبوض عليهم باعتبارهم زعماء الثورة فهم : الشيخ اسماعيل البراوى . والشيخ يوسف المصيلحى . والشيخ عبد الوهاب الشبراوى ، والشيخ سليمان الجوسقى (شيخ طائفة المكفوفين) ، والشيخ أحمد الشرقاوى . وكلهم من اواسط علماء الأزهر ،

وقد حبس هؤلاء العلماء فيمن قبض عليهم بعد اخماد الثورة ولم يكن أحد يعلم التهمة التى اخذوا بها .

وفى يوم الأربعاء ٢٤ اكتوبر ذهب الى نابليون وفد كبير من الشيوخ يسالونه العفو عن اهل المدينة لتطمئن قلوب الناس ويسكن روعهم ، فوعدهم وعدا مشوبا بالتسويف ، وطالبهم بارشاده عمن تسبب من المعممين فى اثارة العوام فلم يتهموا احدا ، ثم طلبوا منه اخراج الجنود من الجامع الأزهر ، فأجابهم الى ذلك ، وامر باخراج الجنود على ان يبقى سبعون جنديا اسكنوهم فى خط الأزهر للمحافظة على النظام .

ولما علم الشيوخ باعتقال المتهمين بالتحريض على الثورة شفعوا لهم ، واختلفوا الى ولاة الامور من الفرنسيين لاطلاق سراحهم ، فلم يتلقوا جوابا صريحا ، وقبض كذلك على ابراهيم افندى كاتب جمرك البهار واتهم بأنه الب الجموع وكان يوزع عليهم السلاح و « المساوق » وانه كان يؤوى عدة من المماليك والرجال المعدودين ، وقد تردد الشيوخ غير مرة للافراج عنه وعن باقى المتهمين ، أما ابراهيم افندى فأطلق سراحه ونقل الى بيته ، واما باقى المشايخ المتهمين بالتحريض على الثورة فقد بقوا فى السجن ، وهناك حكم عليهم بالاعدام يوم ٣ نوفمبر سنة ١٧٩٨ ، وكانت محاكمتهم فى السر فلم يعلم بها أحد ، ونفذ فيهم الحكم يوم ٤ نوفمبر ، ففى الساعة الثامنة صباحا جىء بهم الى القلعة مخفورين بشرذمة من الجنود ، وهناك تلى عليهم حكم الاعدام واعدموا رميا بالرصاص ، وغيب حالهم عن أكثر الناس أياما .

وأمر الفرنسيون الاهالى الساكنين حول ميدان الأزبكية ـ حيث كان معسكر القائد العام وقواد الجيش ـ أن يتحولوا من بيوتهم ليسكن بها رجالهم العسكريون والملكيون الذين كانوا موزعين من قبل فى القاهرة حتى يجتمعوا فى حى واحد ، اذ لم يعودوا يأمنون على أنفسهم بين الاهالى ، وقد استيقنوا ان الشعب معاد لهم ساخط عليهم يتربص بهم الدوائر .

وأصدر نابليون أمرا عسكريا اذاعه بين الجنود يأمرهم فيه بالا يبتعدوا عن معسكراتهم .

واصدر أمرا آخر يحظر فيه على الجنود والضباط اصلاح اسلحتهم عند صناع الاسلحة (البندقية) الـوطنيين وأن يسترجعوا منهم كل الاسلحة التي لديهم .

وانتزعت الثقة التى كانت قائمة بين الجنود والاهلين ، فكانت ثورة القاهرة كالهوة العميقة التى باعدت الى الأبد بين الامة المصرية والجيش الفرنسي ، وراح كل جندى لا يمشى الا بسلاح ، بعد أن كانوا لا يمشون به أصلا من حين دخولهم القاهرة ، وصار من لم يكن معه سلاح من الفرنسيين حمل فى يده عصا أو سوطا أو نحو ذلك ، ونفرت قلـوبهم من المصريين ، وكف هـؤلاء من جهتهم عن الخـروج والمـرور بالاسواق من العشية الى طلوع النهار ، وعامل الفرنسيون الشعب بالشدة والقسـوة ، وشرعوا فى احصـاء الأملاك والمطالبة بالضرائب الجديدة التى كانت سـببا فى نشـوب الثورة ، وساد حكم الارهاب فى مدينة القاهرة ، فلا عدل ولا أمن ولا طمأنينة .

ابطال الديوان

وانشاء القلاع لاخضاع القاهرة

أبطل نابليون اجتماع الديوان عقب اخماد الثورة عقـابا لسكان القاهرة على ثورتهم ، وانصرف الى تحصين المدينـة وجعلها بمأمن من وقوع ثورة أخرى ، فأقام الفرنسيون القلاع على التلول المحيطة بالمدينة ، ونصبوا فيها المدافع ، وهدموا

كثيرا من الاماكن بالجيزة ومصر القديمة وشبرا وحصنوها تحصينا منيعا ، واقاموا المعاقل فى اهم شوارع القاهرة ، واصلحوا قلعة القطم وزادوها مناعة وهدموا عدة مساجد ، منها المساجد المجاورة لقنطرة امبابة ومسجد المقسى المعروف الآن بجامع أولاد عنان ، وقطعوا كثيرا من النخيل والاشجار لعمل الحصون والمتاريس ، وهدموا جامع الكازرونى بالروضة والجامع المجاور لقنطرة الدكة غربى الأزبكية ، وخربوا دورا كثيرة وكسروا شبابيكها وابوابها وأخذوا اخشابها ليجعلوها فى بناء الحصون الجديدة ، ولم يمض ستة أسابيع على اخماد ثورة القاهرة حتى اصبحت محاطة بسلسلة من القلاع والاستحكامات التى أقامها الفرنسيون لاخضاعها ، وبلغ عددها تسع عشرة قلعة ، وهذا العدد من القلاع يدلك على مبلغ المقاومة التى لقيها الفرنسيون من المصريين فى عهد الاحتلال الفرنسي .

الفصل الثامن

صدى الثورة فى الاقاليم

مافتئت القاهرة خلال العصور مصدر كل حركة ومنبع كل تطور فى الديار المصرية ، ولاغرو فهى بمثابة الراس المفكر الذى يرسم الخطط ويدبر البرامج ويبتكر الأفكـار ، أو هى بمثابة القلب يوزع دم الحيـاة فى شرايين البلاد ؛ وهى ابدا حافظة لمنزلتها بين سائر البلدان التى تظلها سماء مصر، تلك المنزلة التى جعلت لها الزعامة الفكرية والسياسية فى البـلاد بلا منازع ولامزاحم ؛ وجعلتها دائما مصدر كل تطور سياسى فلا تحدث فيها حركة الا ويتردد صداها فى الأقاليم .

فالثورة التى شبت فى القاهرة خلال شهر أكتـوبر سـنة ١٧٩٨ كان لها صدى فى سائر البلاد ، والمقدمات التى سبقت تلك الثورة والحاله الفكرية التى كانت عليها القاهرة من أواخر

سبتمبر وأوائل اكتوبر عمت الأقاليم ، حتى اعتقد الفرنسيون أن هناك تدبيرا سابقا لقيام ثورة عامة فى كل انحاء القطر والواقع انك اذا تتبعت الحركات التى قامت هنا وهناك من أقصى البلاد الى اقصاها اخذتك الدهشة من تقارب تلك الحركات وتشابهها ، على انه ليس ثمة تدبير ولا اتفاق ، بل هى القاهرة عاصمة القطر السياسية والفكرية ، تغذى البلاد بأفكارها وعواطفها ، وتفيض عليها من امانيها وآمالها، وتشركها فى أفراحها وأحزانها ، فكأن البلاد مرآة تنعكس عليها صورة القاهرة ، أو كأنها الأفق يتردد فيه صدى نداء العاصمة .

بهذا التفسير نفهم الحوادث التى وقعت فى الوجه البحرى فى شهر سبتمبر وشهر أكتوبر من تلك السنة .

فى القليوبية والجيزة والبحيرة

فمن ذلك أن البلاد الواقعة على مقربة من القاهرة أو على طريقها قد اشتركت فعلا فى الثورة وأمدتها بالرجال والعتاد وانك لتقدر مبلغ اشتراكها فى الثورة بما وقع عليها من القصاص بعد اخمادها ، فقد أمرت القيادة الفرنسية بعض كتائب من الجيش بالطواف فى القرى التى اشتركت فى الثورة للبحث عن الأعيان ومشايخ البلاد الذين كان لهم ضلع فيها ، وعهدت الى ضباط هذه الكتائب بمواجهة مشايخ البلاد (العمد) وتكليفهم تسليم الرسائل التى وردت عليهم ليلة الثورة تدعوهم الى الانضمام لصفوف الثائرين بالقاهرة وشد أزرهم .

وقد القت القوة الفرنسية فى طوافها القبض على جماعة من الاعيان ومشايخ البلاد بتهمة الاشتراك فى الثورة ، وعادت بهم الى القاهرة ، فأعدم بعضهم واعتقل البعض الآخر، منهم الشيخ سليمان الشواربى شيخ ناحية قليوب وكبيرها فقد اعتقلوه وحبسوه بالقلعة واتهموه بأنه كان يوم ثورة القاهرة يحرض رجال البلاد المجاورة على الانضمام للثوار ، فحكموا عليه ومعه ثلاثة من عرب الشرقية بالاعدام ، وقطعت رؤوسهم بالرميلة ونقل رفاق سليمان الشواربى الى قليوب ، ودفن هناك مع اسلافه .

وفى اول نوفمبر انفذ نابليون كتيبة من الجنود الى القطا « من بلاد مركز امبابة » لاعتقال بعض الزعماء ليكونوا رهائن، ثم الى النجيلة وكفر غرين (من بلاد مركز كوم حمادة) لمعاقبة أهلها ، وكانت تهمة هذه القرى الثلاث انها اطلقت الرصاص على السفن الفرنسية الجارية فى النيل وهددت الملاحة بين القاهرة والرحمانية ، وقد اعتقل قائد هذه الكتيبة الرهائن من هذه القرى وانذر الاهلين بأنه اذا وقع اى اعتداء على اى من السفن تحرق القرية بالنار وتقطع رؤوس الرهائن ، وقد احرق الفرنسيون قرية (القطا) وهاجر اهلها منها قبل احراقها .

واصدر نابليون امرا بتأليف كتيبة من الاروام المقيمين فى ذلك العهد بالقاهرة ورشيد ودمياط ، وعهد اليها حراسة السفن الفرنسية أثناء مرورها بالنيل واراد نابليون من هذا الأمر أن يوفر بعض الجنود الفرنسية وأن يستخدم فى هذه

المهمة الاروام الذين اظهروا ولاءهم للجيش الفرنسى ، ولكن الاروام لم يتطوعوا لهذه المهمة بالعدد الذى ينتظره الفرنسيون وكانت المهمة فى ذاتها خطيرة لكثرة حوادث مهاجمة السفن اذ كانت هذه الحوادث لاتفتأ تتكرر منذ انحدار اسطول السفن الفرنسية من بوغاز رشيد الى القاهرة ، اى فى اوائل عهد الاحتلال الفرنسى ، فكانت جموع الأهالى تعطل سيره وتطلق عليه الرصاص باستمرار من الشاطئين ، وقد شهد مدير مهمات الجيش الفرنسى احدى هذه الحوادث ، فان السفينة التى كانت تقله مع ضباط اركان الحرب جنحت بالقرب من (كوم شريك) فهجم عليهم الأهلون وقتلوا بعض ركاب السفينة واصيب مدير المهمات بجرح بالغ فى ذراعه .

وحدث للكابتن جوليان (Julien) ياور نابليون ماهو أشد وأدهى ، فقد أوفده نابليون من القاهرة الى الاسكندرية برسالة منه الى الجنرال كليبر ، وأخرى الى الأميرال بروبس (Brueys) فى (أبو قير) ، فاستقل سفينة ومعه بعض الجنود وجنحت به على الشاطىء الغربى لفرع رشيد ، فما كاد ينزل هو وجنوده الى الشاطىء حتى هجم عليهم أهالى « علقام » (من بلاد مركز كوم حماده الآن) . فقتلوهم عن آخرهم ، فلما علم نابليون بنبأ هذه الحادثة أمر باحراق القرية عقابا لها على اعتدائها ، فأحرقها الجنود وخربوها ولم يبقوا منها بيتا قائما ثم فكر نابليون فى اتخاذ طريقة فعلية لحماية المواصلات النيلية ، فشرع فى انشاء أسطول نيلى مسلح ألفه من السفن الصغيرة الحربية ، التى نجت من كارثة (أبو قير) ومن المراكب

المصرية التى استولى عليها الفرنسيون ؟ وسلحوها بالمدافع وجعل قواعد هذا الاسطول وسفنه فى موانىء بولاق ومصر القديمة ورشيد ودمياط والوجه القبلى .

وفى شهر نوفمبر سنة ١٧٩٨ اصدر امره بتسيير دوريات من السفن الحربية فى فرعى النيل تتولى كل منها حراسة الملاحة فى قطاعات محدودة ، ففى فرع رشيد ثلاث منهن جعلت الاولى بين رشيد والرحمانية ، والثانية بين الرحمانية والطرانة (من بلاد مركز كوم حمادة الآن) والثالثة بين الطرانة وبولاق .

وفى فرع دمياط ثلاث اخرى ، الاولى من دمياط الى المنصورة ، والثانية من المنصورة الى ميت غمر ، والثالثة من ميت غمر الى بولاق ، وكل دورية مؤلفة من ثلاث او أربع سفن مسلحة بقيادة ضابط بحرى نيطت به حراسة المواصلات فى القطاع الذى هو فيه ، وعليه أن يطوف بسفنه وأن يرسل للقيادة الحربية فى كل فرصة تقريرا عما يحدث فى قطاعه وهو مسئول عن الحوادث التى تقع فى ناحيته ، وخصص عدة سفن مسلحة لتجوب النيل فى الوجه القبلى وتحمى مواصلات الجيش الفرنسى ، وتحرس نقل الغلال الى القاهرة .

ولقد لقى الفرنسيون اشد الجهد فى استخدام النوتية المصريين فى مراكبهم لامتناع الكثير منهم واستعصائهم ان يخدموا المحتلين فى نافعة او ضارة .

تدخل العلماء

وبياناتهم للشعب

في خلال المدة التي ساد فيها حكم الارهاب وابطل الديوان تدخل كبار العلماء (اعضاء الديوان) وتوسطوا لدى نابليـون ليعيد الطمأنينة الى النفوس ، فطلب اليهم نابليون كتابة بيان للأهالي ينكرون فيه الثورة ويذكرون عواقبها من قتل المصريين ونهب بيوتهم وتدميرها وينصحون الأهالي بالاخلاد الى السكينة تفاديا من الهلاك ، فلم تفد هذه البيانات شيئا في صرف الأهلين عن المقاومة .

الفصل التاسع

المقاومة فى المنوفية والغربية

عين نابليون قوادا من الحملة لاخضاع مديريات الوجه البحرى ، واصدر تعليماته اليهم ان يتعاونوا على توطيد سلطة فرنسا فى هذه المديريات ، وان يجردوا الأهلين من السلاح ويصادروا خيولهم ويعتقلوا أعيانهم رهائن ، كل ذلك لاخضاع البلاد والقاء الرهبة فيها .

وسائل همجية

وكتب نابليون الى قومندان المنوفية ينبئه بسفر قومندان الغربية ويقره على اعدام خمسة من الاهلين فى كل قرية من القرى الثائرة ، وامره ان تقدم كل قرية جوادين من خير الجياد

وأن كلّ قرية لاتذعن لهذا الأمر وتمضى خمسة أيام على اعلانها به تفرض عليها غرامة الف ريال ، وقد كان لهـذه الاوامـر الظالمة اثرها فى تأجيج نار الكراهية ضد الفرنسيين .

مشاركة النساء للرجال فى المقاومة

سار قومندان الغربية فى قوة من الجند من القاهرة قاصدا منوف فى اغسطس سنة ١٧٩٨ ، ثم غادرها قاصدا الغـربية واصطدم فى طريقه بمقاومة عنيفة من قريتى (غمرين) و (تتا) وهما بلدتان متجاورتان شمالى منوف .

ثار اهل القريتين ، وحملوا السلاح ، وأغلقـو الأبواب فى وجه الجنود ، فحاول القائد الفرنسى عبثا أن يكره البلـدين على فتح أبوابهما فلم يستطع ، ولما أعيته الحيل طلب المـدد مـن قومندان المنوفية الذى كان مرابطا بمنوف ، فأمده بقوة من جنوده ، وتعاونت القوتان على اخضـاع القريتين بعـد مادافع اهلهما دفاعا شديدا ، واشتد القتال بخاصة فىغمرين واشتبك الأهالى والجنود فى طرقاتها ، فانهمرت فيها الـدماء وغطيت الأرض بجثث القتلى ، قال احد الضباط الفرنسيين : « جاءنا المدد ، وتعاونت الكتيبتان على مهاجمة قرية غمرين فأخذناها عنوة بعد قتال ساعتين ، وقتلنا من الأهالى مـن اربعمائة الى خمسمائة بينهم عدد من النسـاء كن يهـاجمن جنودنا بكل بسالة واقدام ، اما خسائر الفرنسيين فكانت قتيلا واحدا واثنى عشر جريحا ، ولم تكن عندنا فؤوس ، فكـان ذلك من الأسباب التى أخرتنا عن اقتحام ابواب القرية » .

فانظر الى هذا الوصف ، وتأمل كيف كان النساء يشاركن الرجال فى مقاتلة الفرنسيين ودفاعهم ، وهذا لعمرى من ابلغ ما يذكر عن استبسال شعب فى الدفاع عن كيانه . وابلغ منه أن الشهادة به جاءت من عدو ، وسترى فى خلال الوقائع التالية أن النساء كن فى بعض البلاد يشاركن الرجال فى مقاومة الفرنسيين .

استولى الفرنسيون أولا على (غمرين) ثم قصدوا الى (تتا) فاستولوا عليها ، واضرموا النار فى القريتين عقابا لهما على الثورة .

ونفدت ذخيرة الجنود فى محاربتهم لبلدتى غمرين وتتا فعاد قائدهم الى منوف ينتظر المدد وبقى هناك ثمانية ايام ولما كان الفيضان قد بدا يغرق الطرق فقد نزل بجنوده فى السفن ووصل الى المحلة الكبرى من طريق ترعة مليجواستقر بها .

فى المحلة الكبرى

كانت المحلة الكبرى عاصمة الغربية ، وهى يومئذ أكبر بلاد الدلتا فى اتساعها ومركزها الصناعى ، واشتهرت فى ذلك العصر (كشهرتها الآن) بنسيج الأقمشة الحريرية والقطنية .

وكان عمال نسيج القطن قبل الحملة الفرنسية يبلغ عددهم فيها الفى عامل فنزل عددهم مدة الحملة الى خمسمائة

وهذا يدلك على تقهقر البلاد من الوجهة الاقتصادية فى عهد الحملة الفرنسية .

وقد رابط قومندان الغربية فى المحلة الكبرى ، ثم انتقل منها فى خلال الحملة الى سمنود التى اتخذها الفرنسيون عاصمة لمديرية الغربية وفضلوها على المحلة الكبرى لوقوعها على النيل ، وسهولة اتخاذها مركزا للمواصلات النيلية والحركات العسكرية .

الثورة فى طنطا

كانت طنطا كما هى الآن أكبر بلاد الدلتا من الوجهة التجارية ، بلغ عدد سكانها فى ذلك العصر عشرة آلاف نسمة وترجع مكانتها الى مركزها التجارى والى ضريح السيد أحمد البدوى ومواسمه المعروفة ، فكان يزورها سنويا فى أيام المولد الأحمدى نحو مائة ألف زائر من مختلف المدن والأقطار .

ظهرت اعراض الهياج والثورة فى طنطا أوائل أكتوبر سنة ١٧٩٨ ، وأجمع أهلها على الامتناع عن دفع أى ضريبة أوغرامة تفرض عليهم .

وكان نابليون ينظر الى طنطا كمدينة مقدسة عند المسلمين تلى مكة والمدينة فى الأهمية ويستشعر احترامها محافظة على احساس الأهالى ، فتحاشى أول الأمر ان يرسل اليها قوة من الجنود كيلا يصطدموا بالأهالى او يعتدوا على الشعائر الدينية

فتثور نائرتهم ، ولكن فومندان الغربية راى روح الهياج والتمرد تقوى وتشتد ، فأرسل اليها كتيبة من الجنود وعهد اليها اعتقال زعماء المدينة واخذهم رهائن ، وكلفها كذلك أن تخضع الأهالى فيما جاورها وفى البلاد الواقعة على طريق الجنود وأخذ الرهائن منها ، وكان دعاة الثورة فى القرى يحرضون الأهالى على عصيان الفرنسيين .

وصلت الكتيبة تجاه طنطا يوم ٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨ورابط قائدها بجنوده وكلف حاكمها سليم الشوربجى أن ينفذ اليه أربعة من كبراء المدينة يكونون رهائن ، فجاءه بأربعة من ائمة مسجد السيد أحمد البدوى ، ورفض أكابر المشايخ أن يحضروا معه ليعطوا القائد الفرنسى موثقا بالمحافظة على السكينة فى طنطا ، وكان المولد قائما فى ذلك اليوم ، وقدتجمع فيه خلق كثير من ارجاء البلاد ، فلم يكد قائد الكتيبة ينزل الرهائن الأربعة الى المراكب ليبعث بهم الى القاهرة ، حتى هرعت الجماهير مسلحين بالبنادق والحراب يصيحون صيحات الغضب والسخط ، رافعين الرايات والبيارق، فلما رآها أهالى البلاد المجاورة اقبلوا من كل حدب وانضموا الى الثائرين وفيهم ١٥٠ من الفرسان ، فاندفعت هذه الجموع على الكتيبة وكادت تستولى على المراكب التى معها فقابلتها الكتيبة بنار شديدة من البنادق الحديثة ، فانهزمت الجموع الى المدينة ،وعادت غير مرة تهاجمها ثم ترتد الى داخل البلد . ورأى قائد الكتيبة ان لاسبيل الى تعقب الثائرين فى مدينة

الكبيرة كطنطا لقلة عدد جنوده وافتقاره الى المدفعية ، فلـزم
خطة الدفاع واقتصر على منع الثائرين أن يحيطوا بجنـوده
وعلى الدفاع عن مراكبه ، وتمكن من انزال معظم قوتهبالسفن
ومعهم الرهائن ، ثم اقلعت سفنه ، وترك قوة من رجاله على
شاطىء الترعةلمنع الثوار أن يلحقوا به ، وانسحب الثوار بعد
معركة دامت اسبع ساعات ، وقد قدر القائد الفرنسى عدد
الثوار بعـدة آلاف ، وقدر خسـائرهم بثلاثمائة بين قتيـل
وجريح ، وطلب من نابليون معاقبة اهالى طنطـا لأن معظم
الثوار كانوا منهم والح فى طلب المدد من الرجال والمدافع
لاخضـاعهم .

ولكن نابليون جنح وقتا ماالى الحكمة ، وآثر أن يتـريث
ولايتمادى فى التقتيل والتنكيل ، اذ خشى عاقبة انفجارالهياج
فى مدينة لها حرمتها عند الأهلين .

وكان القائد الفرنسى قد نبه نابليون الى أن الثـوار قـد
استعانوا بالعرب ، فكلفه نابليون أن يأخـذ الرهـائن منهم
لاخضاعهم ، وان لم يذعنوا فلينكل بهم .

وقد عزم نابليون على تجريد الحملة عليهم بقيادة قائدجديد
عينه قومندانا لمديرية المنوفية ، وامره أن يسير الى العرب
فى سنباط حيث يرابطون بها ويحاربهم ، وينتزع منهمالرهائن
والأسلحة .

المقاومة فى عشما

كان القائد الجديد (الجنرال لانوس) يهاجم حينئذ قرية عشما (من بلاد مركز شبين الكوم) لاخضاع زعيمها المشهور فى ذلك العهد بسطوته وشدة بأسه ، واسمه « ابو شعير » وقد اتهمه الفرنسيون بعدائه لهم ، وممالاته على الجنود فجرد القائد الفرنسى حملة عليه ، وسار ليلة ٢٠ أكتوبر سنة ١٧٩٨ قاصدا قرية عشما فى كتيبة من الجنود ، فوصلها الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، وفاجأ مخفرين من المخافر التى وضعها ابو شعير حول القرية لحراستها ، فتخطاهما حتى وصل الى مدخل البلد ، وهناك التقى بمخفر ثالث اطلق رجاله الرصاص على الفرنسيين ، لكن الجنرال لانوس تمكن من تطويق القرية بالجنود ومحاصرة منزل ابى شعير الذى وصفه لانوس بأنه قصر محصن تحصينا تاما بالنسبة لحالة البلاد ، وقد علم ابو شعير بوصول الفرنسيين ، فركب فى رهط من رجاله استعدادا للقتال ، وسعى لانوس فى أخذه بالحسنى ، ولكنه أجاب باطلاق الرصاص على الفرنسيين فأمر الجنرال لانوس رجاله باقتحام أسوار القصر ، وادرك (ابو شعير) أنه واقع لامحالة فى اسر الفرنسيين ، فأمر جنوده ان يطلقوا النار على الجنود ليشغلهم عن نفسه ويلوذ بالنجاة ، وقد تمكن من تسلق الأسوار ثم القى بنفسه فى الترعة وقطعها سباحة ، ولكنه لم يكد يصل الى عدوتها الاخرى حتى اصابته رصاصة جندلته ، فمات شهيدا ، وكان بطلا من ابطال المقاومة الأهلية ، والظاهر ان الفرنسيين اعتبروا قتل ابى

شعير انتصارا كبيرا ، فقد ابتهج له الجنرال لانوس، وارسل الى نابليون بتاريخ ٢٣ اكتوبر ينبئه بمصرعه ، ويذكر عنه أنه ألحق الجيش الفرنسى منه اذى كبير وانهم وجدوا بمنزله بعض شارات للضباط الفرنسيين ، وقد ذكر لانوس عن ابى شعير أنه اذا مشى سار معه الف ومائتا رجل فى سلاحهم واعترف فى رسالته لنابليون أنه لولا مفاجاته لأبى شعير فى قريته لما استطاع ان يظهر عليه ، ولو هو علم بمقدم الفرنسيين وأعد لملاقاتهم ، لاصابهم منه جهد وشدة واذى ، وقد استولى لانوس على ماوجده فى القصر من الأسلحة ، ومنها ثلاثة مدافع وعدد كبير من البنادق .

وكانت الملاحة فى الترع بدأت تتعطل لنقص مياه النيل على حين أن المواصلات فى البر متعذرة ، فتأخرت الحملة التى كلف بها الجنرال لانوس الى أوائل نوفمبر حتى جاءه المدد من القاهرة .

ولما وصله المدد سار بجنوده وأوقع بكثير من القرى المحاذية للنيل بحجة مهاجمتها للسفن الفرنسية على فرع رشيد ، وبلغ طنطا دون أن يلقى مقاومة ، وأمكنه أن يحصل بعض الضرائب وشتت قوات العرب التى كانت تشد أزر الثوار ، لكنه لم يستطع ان يقهرها أو يتغلب عليها ، ثم عاد الى منوف .

الفصل العاشر

المقاومة فى الدقهلية ودمياط

على أثر تعيين احد قواد الحملة قومندانا لمديريتى المنصورة (الدقهلية) ودمياط فى اوائل اغسطس سنة ١٧٩٨ ، مضى بفرقته الى المديريتين لاخضاعهما ، فقصد اولا الى المنصورة ومكث بها قليلا وترك بها حامية تحتلها ، ثم تابع سيره الى دمياط ليجعلها مقرا لفرقته ، فأحتلها واحتل عزبة البرج (*)

واقعة المنصورة

ائتمر أهالى المنصورة والبلاد المجاورة بجنود الحامية واتفقوا على الفتك بهم ، فبينما كان الجنود فى معسكرهم يوم ١٠ اغسطس سنة ١٧٩٨ دخلت المدينة جموع كثيرة

من اهالى البلاد المجاورة ، وكان اليوم يوم السوق العامة ، فاختلطوا بأهل المدينة ، ووافقوهم على الفتك بجنود الحامية فهاجموا الجند ، ونادت المدينة كلها بالثورة ، رجالا ونساء ، وكان النساء يحرضن ازواجهن على ان يثوروا بالفرنسيين ، ولما شعرالجنود بالخطر امتنعوا فيمعسكرهم فحاصره الثائرون وشرعوا فى دكه واشعلوا فيه النار ، فأضطر الجنود الى اخلائه هاربين وانحدروا الى السفن قاصدين الفرار ، ولكن الجموع تكاثرت عليهم وابى رجال السفن ان يحملوهم ، فالتجأوا الى البر وقصدوا الى دمياط ولكن الثوار أخذوا عليهم الطريق ثم قتلوهم عن آخرهم ، وكان من الناجين امرأة احد الضباط وابنتها ، فأبقى عليهما الثوار ، ولم يمسوهما بسوء . وفى المراجع الفرنسية ان الفتاة قد اشتراها شيخ العرب (ابو قوره) بميت العامل (مركز اجا) وتزوج بها فلبثت عنده حتى مات عنها سنة ١٨٠٨ فى عهد محمد على وبقيت حافظة عهده قائمة على تربية أولادها منه بعد وفاته وقد زارها كلوت بك كبير اطباء الجيش المصرى فى عهد محمد على سنة ١٨٣٤ وتحقق منها صحة هذه الراوية فى جملتها .

اشعلت واقعة المنصورة نار الثورة والهياج فى البلاد المجاورة ، ثم وصل الجنرال دوجا Dugua الذى عينه نابليون قومندانا لمديرية المنصورة ، فلما علم بواقعة المنصورة اخذ يفحص عن المحرضين عليها ، وتبين انهم غادروا

المنصورة ومنهم رجلان كانت لهما شهرة فى تلك الجهات بالسطوة والجاه وشدة البأس ، وهما الامير مصطفى ، وعلى العديسى ، فاكتفى الجنرال دوجا بالحكم على اثنين من اهالى المنصورة بالاعدام ، لثبوت اشتراكهما فى القتل ، وانفذ الحكم فيهما وطافوا براسيهما فى شوارع المدينة عبرة وارهابا . واخذ الجنرال دوجا يتأهب لتعقب المعتدين فى بلاد البحر الصغير والقبض على الامير مصطفى وعلى العديسى . وتجريد حملة عسكرية لمعاقبة القرى التى اشتركت فى الاعتداء على الجنود .

وطلب نابليون الى الجنرال دوجا اخضاع بلاد مديرية المنصورة ، واخذ رهائن من كل قرية اشترك اهلها فى الاعتداء على الجنود ، ثم احراق القرى التى يرى انها كانت ابلغ فى الاعتداء ، ولمر نابليون بفرض غرامة ثلاثة آلاف ريال على اعيان المنصورة عقابا لهم على سوء صنيعهم وفرض الفى ريال خاصة على السيد على الشناوى احد اعيان المدينة ، ثم الفى ريال على القرى التى اعتدت على الجنود .

ولقى الفرنسيون عناء كبيرا فى اخضاع مديرية المنصورة فقد اشتدت فيها المقاومة وامتنع كثير من البلاد عن دفع الضرائب . وكان محصلو الاموال الاميرية اذا ذهبوا الى القرى لجباية الضرائب او مصادرة الاملاك يقابلون بالرصاص رميا ، او بالعصى ضربا ، وفى بعض الاحيان كانوا يصحبون بعض الخفراء لحراستهم ، فلا يعصمهم ذلك ان

يلقوا مثل هذه المقابلة ، وعطل الفيضان حركات نقل الجنود في البر ، فساعد هذا العامل على فيضان روح الثورة في القرى ، واضطر الجنرال دوجا الى تأخير ما عهد اليه من اخضاع ذلك الاقليم ومعاقبة القرى التى ثارت فى وجه الجيش او التى اشتركت فى قتل الحامية الفرنسية بالمنصورة .

واشتدت الاضطرابات فى منطقة ميت غمر ودنديط وميت الفرماوى .

فيضان الثورة

كان طائف الثورة يطوف فى مختلف البلاد ، بحيث كانت كلما أخمدت فى جهة انبعثت فى جهة اخرى ، قال ريبو أحد مؤرخى الحملة الفرنسية فى هذا الصدد . « كان الجنود يعملون على اخماد الثورة باطلاق الرصاص على الفلاحين وفرض الغرامات على البلاد ، لكن الثورة كانت كحية ذات مائة رأس ، كلما اخمدها السيف والنار فى ناحية ظهرت فى ناحية اخرى اقوى واشد مما كانت ، فكأنها كانت تعظم ويتسع مداها كلما ارتحلت من بلد الى آخر » .

وقال فى موضع آخر يصف حالة الشعب النفسية ومركز الفرنسيين : « ان مصر قد فوجئت بالحملة الفرنسية ، فأخذت تنتفض وتجاذب للتخلص من قبضة الفاتح الحديدية لقد كنا نرابط فى مصر ونحتلها احتلالا عسكريا وعلى الرغم

مما بذلناه من الجهود ليقبلنا الشعب كما يتقبل محرريه (كذا !) فقد بقيت سلطتنا قائمة على القوة لا على الاقناع ، وكان اختلاف الدين واللغة والطباع والعادات مما يجعل الامتزاج بين الغالب والمغلوب عسرا بعيد الاحتمال فكانت سياستنا قائمة على اكراه الشعب على الاذعان بالحزم مرة ، وبالقوة مرة ، وقمع كل ثورة ، ومكافأة من يخدم السلطة الفرنسية ، ولادراك هذه الغاية وزع بونابرت الجيش على مختلف انحاء القطر لاخضاعها وجعلها موضع مراقبة دقيقة ، وكان قواد الفرق فضلا عن اختصاصاتهم الحربية ، يتولون الاشراف على الاعمال الادارية والمالية في مديرياتهم ويراقبون جباية الاموال والغرامات في الاقاليم .

الحملة على البحر الصغير

اهتم نابليون باخضاع بلاد البحر الصغير ، الكائنة بين المنصورة وبحيرة المنزلة وارتياد الجهات الموصلة الى البحيرة وكان يرمى من جهة الى اخضاع تلك البلاد ، ومن جهة اخرى الى تأمين المواصلات بين دمياط والمنصورة والصالحية وبلبيس حتى يطمئن على حدود مصر الشرقية .

فجرد الجنرال دوجا حملة عسكرية لاخضاع البحر الصغير ومعاقبة القرى الثائرة فى هذا الاقليم ، وعهد الى هذه الحملة ضمن ما عهد به اليها معاقبة بلدتى « منية محلة دمنة » و « القباب الكبرى » الواقعتين على بحر اشمون

(البحر الصغير الان) اذ جاهر اهلها بالعصيان والامتناع عن دفع الضرائب والغرامات التى فرضت عليهم .

حسن طوبار

وكان لهذه المهمة شأن وخطر فى تلك الجهات ، لما امتلأ فى انحائها من اسباب الثورة والهياج ، ولظهور جماعة من زعماء الاهالى يحرضون الناس على مقاومة الفرنسيين ، وقد تكرر فى كثير من رسائل وتقارير القواد الفرنسيين فى مديريتى المنصورة ودمياط اسم « حسن طوبار » شيخ بلد المنزلة فى ذلك الحين كزعيم للمحرضين ، وخصم عنيد لا يستهان به ، ومدبر لحركات المقاومة فى هذه الجهات ، كما تردد اسم الامير مصطفى وعلى العديسى كمحرضين فى واقعة الاعتداء على حامية المنصورة .

كان حسن طوبار زعيما لاقليم المنزلة ، وكان هذا الاقليم جياشا بمتاعب كثيرة للفرنسيين .

معركة الجمالية

واصلت الحملة سيرها حتى بلغت (برنبال الجديدة) ثم غادرتها ووصلت بحرا تجاه (الجمالية) (على البحر الصغير) ، فوحلت السفن الفرنسية فى بحر اشمون (البحر الصغير) من قلة المياه ، وانتهزها الاهلون فهاجموا السفن الفرنسية وكانوا يتبعونها من بعيد ، واشترك فى

هذا الهجوم اهالى الجمالية ، فأطلقوا النار على السفن وامطروها وابلا من الحجارة من اعلى سور بلدتهم ، فأمر قائد الحملة بانزال الجنود الى البر لرد هجوم الاهلين ، وامكنه ان يفرق الجموع التى أحدقت بالقوة الفرنسية ولكنه بعد قتال اربع ساعات انسحب من الموقع الذى نزل به ورأى انه لا يستطيع الثبات به ولا متابعة السير فى بحر اشمون ، فأضرم النار فى الجمالية وعاد أدراجه الى المنصورة ومعه جرحاه وقتلاه .

كانت معركة الجمالية ذات شأن وخطر ، وصفها أحد ضباط الحملة فى تقريره عنها وكان ممن اشتركوا فيها ، قال :

« لما وصلنا بحرا تجاه الجمالية ، وهى قرية كبيرة قوية على الشاطىء الغربى من بحر أشمون ، فوجئت السفن التى كانت تنقل الجنود بعاصفة من الاحجار والرصاص انهالت من اسوار البلدة وبيوتها ، وفى الوقت نفسه رأينا جموعا كثيرة من العرب والمماليك والفلاحين مسلحين بالبنادق والسيوف والعصى (والشماريخ) تهرع من الجهات المجاورة مسرعة الى مهاجمتنا ، وكان بعضهم راكبين الخيل واكثرهم مشاة ، فدهشنا لهذه الهجمة العنيفة ، ولكنا لم نؤخذ على غرة ، ونزلت الجنود حاملة سلاحها الى البر الشرقى المقابل للقرية وتأهبوا للقتال منتظرين قدوم الاعداء (الاهالى) ، فرأينا اكثرهم شجاعة يغامرون بأنفسهم

ويهجمون الى ان يصبحوا فى وسط جنودنا ، لكن الجنود حاربوهم ببسالة ، وقد رأيت بنفسى جماعة من الفلاحين ليس بيدهم سلاح العصى يهاجموننا بحماسة فيستشهدون بين أسنة رماحنا ، وصدر لى الامر باطلاق النار على المهاجمين ، فأطلقنا النار عليهم ، وفرقنا هذه الجموع بعد أن تركت الميدان مغطى بجثث القتلى ، ولقد تمكن بعضهم من ان يعبروا الترعة ثانية ويمتنعوا فى الجمالية وهى قرية محوطة بالاسوار تحميها ترعة أشمون (البحر الصغير) من جهة والمستنقعات التى تغمرها المياه من جهة أخرى ، فأمرنى قائد الحملة أن آخذ القوة الكافية واستولى عنوة على القرية ، فعبرنا الترعة بجسر أقمناه على عجل ، ووزعت جنودى ، فعهدت الى جزء منهم رد الهجمات الآتية من خارج القرية ، وهجمت بقوتى على القرية ، واقتحمنا الباب الكبير رغم مقاومة أهلها الذين دافعوا عنها دفاعا قويا ، فاستولينا على جزء من القرية ، ولكن الاهالى ظلوا يدافعون عن الجزء الآخر ممتنعين فى البيوت والشوارع وهجم الثوار على القوة التى دخلت القرية ولكن صدتهم البنادق والحراب ، وحصر جزء منهم فى القرية ، وتمكن جماعة آخرون أن يتسللوا منها فتلقتهم القوة المرابطة حولها ونجا منهم من القوا بأنفسهم فى المستنقعات وذهبوا سباحة يحملون بنادقهم » .

وقد قدر هذا الضابط خسائر الفرنسيين فى هذه المعركة بخمسة قتلى وخمسة عشر جريحا ، وقدر خسائر الاهالى بخمسمائة .

انتهت معركة الجمالية باحراق البلدة وانسحاب الفرنسيين ، وعادت الحملة الى المنصورة يوم ٢١ سبتمبر بعد ان مرت وهى راجعة بالكردى ومنية محلة دمنة ، وكان الاهالى فى معظم القرى التى مر بها الجيش يخلون بلادهم خوفا من انتقام الفرنسيين بحيث كان الجيش يصلها فلا يجدها الا خالية .

فى دمياط

كانت دمياط (كما هى الآن) من اهم بلاد القطر المصرى من الوجهتين الاقتصادية والحربية ، وكانت مركزا تجاريا وصناعيا كبيرا ، تصدر منها متاجر البلاد وترد اليها واردانها القادمة من سوريا وقبرص والاناضول وتركيا واليونان .

امتدت شعلة الثورة الى دمياط وظهرت علائم الاضطراب والهياج حولها من اوائل سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، فأرسل الحاكم العسكرى الفرنسى بها الى الجنرال دوجا قومندان مديرية المنصورة ينذره بقرب هجوم الثوار على المدينة ، ويطلب منه المدد ، وينبىء بأن حسن طوبار يحشد اسطولا كبيرا فى بحيرة المنزلة لمهاجمة المدينة .

وقع الهجوم المنتظر ليلة ١٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨ ؟ واشترك فيه اهالى البلاد المجاورة لدمياط ، واشترك فيه ايضا اسطول حسن طوبار الذى تحرك فى بحيرة المنزلة قاصدا شطوط دمياط ، فوصل الى (غيط النصارى) شرقى المدينة ، والتقى الاهالى القادمون من القرى بالنازلين من السفن ، وكانوا مسلحين بالبنادق والرماح ، وساروا قاصدين دمياط لمهاجمة القوة الفرنسية ، فقتلوا الحراس الفرنسيين المرابطين فى المخافر الامامية للمدينة ، وظل القتال متواصلا ليلة ١٦ سبتمبر الى ان رتب الفرنسيون قواتهم فتحول موقفهم من الدفاع الى الهجوم ، وتمكنوا من التغلب على الثوار ، وردهم على اعقابهم بعدما كبدوهم خسائر جسيمة ، وانسحب معظمهم الى شاطىء البحيرة فركبوا السفن التى كانت تنتظرهم ، واتجهت فرقة منهم الى قرية (الشعراء) جنوبى دمياط ، فتحصنوا بها ؟ وهذه القرية من دمياط على مرمى المدفع ، فاتخذها الثوار معسكرا لهم ، وجاءهم المدد من بحيرة المنزلة ، وفى خلال ثورة دمياط قام اهالى عزبة البرج وثاروا بالحامية الفرنسية فقتلوا من ادركوهم من رجالها ، ولما علموا فى اليوم التالى ان ثورة دمياط اخمدت وان الفرنسيين لابد آتون للاقتصاص منهم أخلوا البلدة بعيالهم ونسائهم وانحدروا فى المراكب قاصدين الى سواحل سوريا ، وقد أنفذ الحاكم العسكرى بدمياط حملة على تلك البلدة فوجدتها خالية من السكان فنهبتها واحرقتها ، وعادت الى دمياط .

واقعة الشعراء

تشجع قائد القوة الفرنسية بدمياط بالمدد الذى جاءه من المنصورة ، فتقدم جنوده يوم ٢٠ سبتمبر سنة ١٧٩٨ للاستيلاء على الشعراء ، وكان يدافع عنها نحو ١٥٠٠ من الثوار تحميهم البحيرة من جانب ، والنيل من جانب آخر ، فاقتحم الجنود الفرنسيون القرية واستولوا عليها عنوة ، ونهبوها واضرموا فيها النار ، واستولوا على مدفعين للاهالى وعلى السفن التى كانت على مقربة من الشعراء ، وخسر الثوار فى هذه المعركة نحو خمسين شهيدا ، وخسر الفرنسيون اثنى عشر قتيلا وثلاثين جريحا ».

تفاقمت الثورة فى البلاد الواقعة بين المنصورة ودمياط وتعددت حوادث مهاجمة الثوار للسفن الفرنسية المقلة للجنود فى النيل ».

وقد أمر نابليون الجنرال دوجا بالانتقال الى دمياط لمواجهة الحالة الثورية فيها ، وكانت فظائع الحاكم العسكرى بها وجنوده قد اججت فى النفوس نار الكراهية واستفزت الاهالى للاخذ بالثأر ، والاستماتة فى مقاومة الفرنسيين »

وارسل نابليون الى دمياط بعض السفن المسلحة لتكون تحت أمر الجنرال دوجا فى بحيرة المنزلة ، ولتضمن بسط سيادة الفرنسيين فيها ، على ان مركز الفرنسيين فى جهات

دمياط والمنزلة ظل مزعزعا وسلطتهم مردودة فى معظم البلاد .

الحملة الثانية على البحر الصغير

رأى نابليون ان نفوذ حسن طوبار يخلق للفرنسيين كثيرا من المصاعب ويزعزع سلطتهم فى جهات البحر الصغير والمنزلة ويثير فى نفوس الاهالى روح الثورة فجرد عليه حملة ثانية لاخضاعه .

وقد انتهت هذه الحملة بالاستيلاء على المنزلة فى ٦ اكتوبر سنة ١٧٩٨ ، وكان اهلها ومعهم حسن طوبار قد اخلوها ولم يبق بها سوى الشيوخ الذين لا يقدرون على السير والعجائز من النساء ، فدخل الجنود المدينة .

وبعد أن تم للفرنسيين احتلال المنزلة سقطت المطرية فى ايديهم واحتلوها ، ثم وصلت اليها السفن الفرنسية من طريق بحيرة المنزلة بعد ان اخلاها اهلها وغادروها على ظهر مراكبهم .

قضى احتلال المنزلة والمطرية على قوة المقاومة التى كان يدبرها حسن طوبار ، فلم يجد امامه سوى الهجرة الى غزة وبذلك انتهت تلك الحركة الواسعة المدى التى اقلقت بال الفرنسيين زمنا ، وطويت صحيفة مقاومة ذلك المجاهد الذى

ازعج قواد الجيش الفرنسى ، وتردد اسـمه فى تقـاريرهم ورسائلهم ، ووردإسمه غير مرة فى رسائل نابليون كعنـوان للمقاومة الاهلية القوية .

هذا ولايزال حسن طوبار يذكره كبار السن الى الآن فى جهات البحر الصغير بالمنزلة ويسـمونه « حسـن طوبار الكبير الذي حارب الفرنسيين » .

الفصل الحادى عشر

المقاومة فى الوجه القبلى

فر مراد بك من معركة الأهرام منهزما أمام الجيش الفرنسى كما سلف القول ، وكان نابليون يحسب لقوته حسابا كبيرا فعهد بعد انتهاء المعركة وقبل أن يدخل القاهرة الى الجنرال ديزيه (Desaix) احتلال المنطقة الواقعة جنوبى الجيزة واقامة الاستحكامات والمواقع اتقاء لهجوم مراد بك ، ولكن مراد بك لم يفكر فى الهجوم ، بل اتجه بفلول جيشه الى الصعيد ليكون بعيدا عن هجمات نابليون ، وقصد الى الفيوم واستقر عند ناحية البهنسا ، ولحق به المماليك الذين لم يرضوا أن يتبعوا ابراهيم بك فى فراره الى سوريا .

لم يفكر مراد بك فى مقاومة الجيش الفرنسى مقاومة جدية بل ان معظم مالقى الفرنسيون فى الصعيد انما نالهم من الأهلين

الذين شدوا أزر المماليك فى مقاومة الجيش الفرنسى ، ولولا هذا التأييد وتلك المؤازرة لما سمع للمماليك صوت والاانبعثت لهم حركة بعد هزيمة امبابة .

اعتزم نابليون اخضـــاع الوجه القبلى ، اذ راى أن بقـــاء قوة معادية فى الصعيد يهدد سلطة الحكومة المركزية ويكـــون مركزا للمقاومة الأهلية ويعطل الملاحة فى النيل ويحبس الغلال عن الوجه البحرى فيستهدف سكان القاهرة والدلتا وجنـــود الحملة للمجاعة ، وقد تعطلت الملاحة فى النيل فعلا فىالشهور الأولى من احتلال القاهرة ، وحبس مراد بك فى الوجه القبلى السفن المحملة غلالا الى القاهرة ، فاعتزم نابليـــون احتـــلال الصعيد ، وقد اراد قبل تجريد جيشه أن يسعى الى الاتفاق مع مراد بك على أن يترك له حكم مديرية جرجا ومايليها الى الشلال ويكون تابعا للحكومة الفرنسية .

المقاومة الاهلية

والظاهر ان مراد بك كان معتـــزا بقـــوته ، معتقـــدا انه باعتصامه فى الوجه القبلى لا يستطيع الفرنسيون ان ينالوا منه منالا وبخاصة اذا وثق من معاضدة الاهلين وتأييدهم ، فرفض شروط الصلح ، او بعبارة اخرى رفض التســـليم ، فعزم نابليون على تجريد جيش للقضاء على قوته من جهـــة واخضاع سكان الوجه القبلى من جهة اخرى ، واذا تتبعت خطوات الجيش الفرنسى فى الحملة على الصعيد وجدت أنه

افلح فى القضاء على قوة مراد بك ، ولكنه أخفق فى الغرض الثانى وهو اخضاع المقاومة الاهلية .

قوة الحملة وطبيعة المقاومة فى الصعيد

جعل نابليون الجنرال ديزيه قائدا للحملة على الوجه القبلى ، وكانت الحملة مؤلفة من نحو خمسة آلاف من المشاة والفرسان والمدفعية والمهندسين ، مزودين بالأسلحة والذخائر والمدافع الحديثة والسفن الحربية ، وقد ظل الجنرال ديزيه مرابطا فى الجيزة يترقب الفرصة للبدء فى الزحف ، فلما بلغ الفيضان حدا مناسبا صدرت له الأوامر بالزحف ، وكانت مهمته عسرة شاقة ، فقد دلت وقائع الوجه القبلى على ان المقاومة التى لقيها الجيش الفرنسى فى انحائه كانت اشد ما أصاب الفرنسيين فى مصر ، لأن طبيعة البلاد فى الصعيد ، وبعد المسافات ، وصعوبة المواصلات ، واخلاق السكان ، جعلت الجيش الفرنسى يقابل حركات ثورية ذات صبغة حربية منظمة ، قال احد ضباط الحملة بهذا الصدد : « ان المقاومة التى لقيتها الجنود الفرنسية فى الوجه البحرى كانت فى الغالب ذات صبغة محلية ، ولكن فرقة الجنرال ديزيه هى التى اضطرت ان تواجه حركات حربية حقيقية »

احتلال بنى سويف

احتلت الحملة بنى سويف يوم ٣١ اغسطس سنة ١٧٩٨ ، وهناك علم الجنرال ديزيه أن مراد بك مرابط فى ناحية

البهنسا بين بحر يوسف والجبل وانه جمع اسطوله في هذا البحر يحمل زاده ومؤونته وذخيرته .

وكان لابد للوصول الى موقع مراد بك على بحر يوسف والاستيلاء على أسطوله أن تمضى الحملة فى النيل الى ديروط ، وهى ماخذ بحر يوسف ، ومن ثم تنحدر فيه الى ان تلتقى بقوة مراد بك ، فتحركت من بنى‌سويف يوم ٤ سبتمبر صباحا ووصلت فى مساء يوم ٥ تجاه (ابو جرج)، وكانت آهم مدينة فى المديرية بعد بنى‌سويف .

احتلال البهنسا

وسارت القوة الفرنسية حتى وصلت الى البهنسا الواقعة على بحر يوسف، وقبل أن تصل اليها شعر مراد بك باقترابها، فأمر بانسحاب أسطوله الى أسيوط حتى لا يقع فى أيدى الفرنسيين ، وأخلى البهنسا ، فاحتلها الجنرال ديزيه واستولى فيها على عدة مراكب للمماليك لم تستطع اللحاق بالأسطول ، واخذ ما بها من الذخيرة والغلال ، وعلم ان مراد بك انسحب الى اللاهون ورابط بها ، وان اسطول مراد بك سار الى اسيوط .

تعقب اسطول المماليك الى اسيوط

عزم ديزيه ان يستمر جنوبا حتى أسيوط ليستولى على اسطول مراد بك .

فترك قسما من قوته فى ديروط على مدخل بحر يوسف لاحتلال هذا الموقع ومراقبة الملاحة فى النيل وانتظارالكتيبة التى استولت على مراكب المماليك فى بحر يوسف ، ومضى الى الجنوب ومعه جزء من جيشه فى السفن قاصدا الى اسيوط .

فوصل اليها يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، ولم يجد اسطول المماليك ولم يوفق الى الاستيلاء عليه ، اذ تمكن قبل وصول ديزيه من الافلات قاصدا جرجا ، ولم ير ديزيه من الصواب ان يمضى فى زحفه ، مخافة ان يبتعد عن بقية جنوده الذين كانوا يرابطون على مدخل بحر يوسف .

رجوع ديزيه الى الفيوم

عزم ديزيه على أن يرجع الى ديروط ، فكانت رحلته الاسيوطية عقيمة ، لانه لم يظفر باسطول المماليك ولا واجه قوتهم ، واضاعت عليه هذه الرحلة ثمانية ايام اغتنمها مراد بك ليقوى صفوفه فى الفيوم . وانحاز اليه عدد كبير من الأهلين وحالفوه على الفرنسيين ، واتخذ هو وحلفاؤه معسكرهم فى اللاهون .

وزحفت الحملة الفرنسية على مواقع المقاومة فى الفيوم .

واقعة سدمنت

٧ أكتوبر سنة ١٧٩٨

واصلت الحملة سيرها برا يوم ٥ اكتوبر ، فشاهد الجنرال ديزيه عن بعد جيش مراد بك مرابطا فى المرتفعات المشرفة على بحر يوسف ، فاراد ان يهاجمه ، لكن مراد بك تقهقر شمالا ، وتعقبه ديزيه طول النهار ، فلم يستطع اللحاق به اذ كان جنوده قد انهكهم التعب من سيرهم فى رمال الصحراء .

وفى يوم ٦ أكتوبر بدأ الأهالى والمماليك يناوشون طلائع الجيش الفرنسى ، فاقبل الجيش يهجم عليهم ، ولكنهم انسحبوا ليرابطوا فى مواقع حصينة ، وفى صباح اليوم التالى (٧ أكتوبر) أخذت الحملة تتابع سيرها حتى اقتربت من « سدمنت » ، وهى بلدة صغيرة واقعة غربى بحر يوسف فى الجنوب الغربى للاهون ، وتسمى سدمنت الجبل ، وهناك التقى الجمعان على مقربة من هذا البلد ، ودارت معركة من أشد المعارك هولا ، كادت تسحق فيها قوات ديزيه لولا قوة المدفعية الفرنسية .

كان مراد بك قد جمع قوة كبيرة من أهالى الفيوم فرسانا ومشاة ، وتحصن فى آكام سدمنت ، وكان هو وحلفاؤه المصريون قد أعدوا معدات الهجوم ، وقوى أملهم فى سحق

الجيش الفرنسي لقلة عدد جنوده بالنسبة اليهم ولمغامرته في الصحراء وفي بلاد معادية بعيدا عن قواعده الحربية .

كان عدد المصريين والمماليك في هذه الموقعة يزيد على ضعف الجيش الفرنسي ، وكانوا يحتلون مرتفعات حصينة ، ولكن فرقة ديزيه امتازت بالنظام الحربي وكفاية القيادة وقوة المدفعية ، وكثرة الذخيرة ، فلما اقتربت الفرقة هجم عليها الأهالي والمماليك منحدرين من المرتفعات التي كانوا يعتصمون بها ، وكان عدد الفرسان من أربعة آلاف الى خمسة آلاف فارس ، هجموا على قرع الطبول بحماسة عظيمة ، واحاطوا بجيش الجنرال ديزيه من كل صوب ، وكانوا اكثر عددا وأشد حماسة من الأعداء ، لكن نار المدافع الفرنسية فتكت بهم فتكا ذريعا وكسرت هجمتهم ، فاعادوا الكرة ثانية وثالثة بمثل الحمية التي هجموا بها اول مرة ، ودامت الموقعة عدة ساعات لا تخمد حماسة المهاجمين ، ولا يضعف املهم في النصر ، وكان مراد بك قد نصب على أكمة تشرف على ميدان القتال ثمانية مدافع اخذت تطلق النار على الجنود الفرنسية ، فأوقعت بهم خسائر جسيمة ، وكادت تدور الدائرة على الجيش الفرنسي لولا ان أمر ديزيه بالهجوم العام على مصدر الخطر فهجم ، جنوده على موقع المدافع وانقضوا على رجالها وقتلوا بعضهم واجلوا البعض الآخر ، وهجمت جموع الاهالي والمماليك مرة اخرى على الجيش الفرنسي وانزلوا بالفرنسيين خسائر فادحة ، لكنهم اضطروا الى التقهقر بعد ما افنت نيران المدافع والبنادق

عددا كبيرا منهم ، وتركوا فى الميدان اربعة مدافع غنمها الفرنسيون ، وانتهت الواقعة بانتصار الجنرال ديزيه ، وبلغت خسائر الفرنسيين ٣٤٠ قتيلا و ١٥٠ جريحا ، وخسائر المصريين اربعمائة شهيد .

سميت هذه المعركة واقعة « سدمنت » ، وهى تعد فى تاريخ الحملة الفرنسية من المعارك المهمة التى كان لها أثر كبير فى سير القتال وتطور الاحوال ، وهى تلى واقعة الاهرام فى الاهمية ، لأنها قضت على آمال مراد بك فى أن ينتصر فى معركة منظمة ، وفتحت امام ديزيه اقليم الفيوم الغنى بمزروعاته .

تغير وجه القتال بعد هذه المعركة ، فصارت الحرب مقاومات محلية تتجدد تبعا للأحوال والمفاجآت ، وكان هذا النوع من المقاومة اشد خطرا على الجيش الفرنسى من المعارك المنظمة .

انسحب مراد بك وحلفاؤه غربا ، واوغلوا فى الصحراء حتى استقروا وراء بركة (الغرق) وهى بركة كبيرة واقعة جنوبى الفيوم بغرب ، واحتل ديزيه فى الفيوم نفسه قرية سدمنت ، وتكبد الفرنسيون متاعب شاقة فى هذه المعركة ، واضناهم السير فى الرمال ، وعلى التلال والآكام القائمة بتلك الجهات ، فلم يفكر ديزيه فى اللحاق بمراد بك ، وعزم على اراحة جنوده من الأهوال التى كابدوها ، وسار بهم الى

اللاهون ، واستقر هناك ينتظر الفرصة ليعاود كرة الهجوم على الأهالى والمماليك .

وعسكر هو وجنوده فى اللاهون من ١٩ الى ٢٠ اكتوبر سنة ١٧٩٨ ، واستراحوا فى خلالها ، وأرسل الجرحى منهم الى القاهرة ، ثم سار قاصدا مدينة الفيوم عاصمة المديرية ، فوصلها يوم رحيله ولم يبق بها الا بضعة ايام ، ثم اخلاها خوفا على مواصلات جيشه ان تنقطع اذا ابتعد كثيرا عن النيل ، ولأنه علم ان الأهلين والمماليك لما تحققوا وجوده فى مدينة الفيوم ، عزموا على الرجوع الى معقلهم الأول فى سدمنت على بحر يوسف ، وبذلك يهددون مواصلات الجيش الفرنسى ، فعاد ديزيه الى اللاهون يوم ١٦ اكتوبر ، واعتزم أن يعاود تعقب المماليك والأهالى ، لكنه وجد صعوبة كبرى فى تعقبهم لأن ماء الفيضان كان فى ذلك الحين يغمر البلاد فيحول دون تقدم الجيش واتصاله بالقرى ، وكانت المؤن والزاد قد نقصت ، وفتكت الأمراض بالجنود ولا سيما الرمد .

الموقف الحربى فى
بنى سويف والفيوم والمنيا

لم يكن انتصار الفرنسيين فى واقعة سدمنت ليوطد مركزهم فى الوجه القبلى ، وبالرغم من أن الجيش الفرنسى قد فتح فى طريقه ثلاث مديريات ، وهى بنى سويف والمنيا والفيوم ،

وهزم مراد بك هزيمة كبرى ، فان الحالة ظلت مضطربة فى تلك المديريات ، وسلطة الفرنسيين تكاد تكون مجهولة عند الأهالى ، ولم يستطع الفرنسيون لاضطراب الاحوال ان يحصنوا من تلك المديريات على ما يلزمهم من الغلال والجياد .

وبالرغم من احتلال الفرنسيين لمدينة الفيوم فان الثورات اقامت فى القرى المجاورة لها ، وقد هاجم الثوار مدينة الفيوم فردتهم القوة الفرنسية .

وطلب الجنرال ديزيه من نابليون أن يوافيه بالمدد ليستانف الحملة فى الوجه القبلى ، فلما جاءه المدد استأنفت الحملة زحفها من بنى سويف .

سير الحملة من بنى سويف الى جرجا

تحركت الحملة الفرنسية من بنى سويف برا على الشاطىء الأيسر للنيل ، واتخذت المراكب سبيلها فى النهر حذاء الحملة تحمل الأقوات والذخائر والمهمات .

وقد كان توغل الجنود فى الوجه القبلى محفوفا بالمتاعب والأخطار ، لأن الجيش كلما سار جنوبا ابتعد عن القاهرة التى كانت مركز القوة الفرنسية وتغلغل فى بلاد مجهولة منه وبين اقوام يكرهونه ويتربصون به ريب المنون .

قال احد قواد هذه الحملة فى مذكراته : « اننا نستهدف لأخطار كثيرة كلما اوغلنا فى بلاد يحمل جميع اهلها السلاح » .

سارت الحملة من بنى سويف يوم ١٦ ديسمبر سنة ١٧٩٨ ووصلت ليلا الى (البراتقة) على البر الغربى للنيل .

وفى الصباح استأنفت السير فبلغت (ببا) وسارت منها قاصدة (الفشن) ، وقبل ان تصل اليها استراحت لتنتظر قدوم المدفعية ، وكانت طلائع الفرقة ترابط على مقربة من قرية الفقاعى (من بلاد مركز ببا) .

فدائى من (الفقاعى)

وقد حدث بقرب (الفقاعى) حادث دهش له الجنرال « ديزيه » وكبار الضباط الفرنسيين ، ذلك أنه بينما كان الجنود ينتظرون وصول بقية الجيش تقدم فدائى من شبان القرية وتغفل بعض جنود الفرسان الفرنسيين ، فاستولى على بنادقهم وكان يقصد توزيع هذه البنادق على الفدائيين من زملائه القرويين ليقاوموا الغزاة المستعمرين ، فرآه جندى آخر وتعقبه وهو يعدو حاملا بندقية ، الى ان ادركه وضربه بالسيف على ذراعه ، وساقه جريحا الى الجنرال ديزيه للاقتصاص منه ، فعقد الجنرال « ديزيه » فى ظلال النخيل مجلسا عسكريا للتحقيق مع الفدائى الشاب ومحاكمته ؟ وساله الجنرال عما دعاه الى ارتكاب هذا العمل ، فاجاب رابط الجأش ناظرا الى السماء : ان الله القادر على كل شىء قد امره بذلك ، فساله الجنرال عمن حرضه على فعلته ؟ فقال لم يحرضنى احد وانما الهمنى الله ان افعل ما فعلت ؟ ثم رفع راسه ونظر اليه وقال له فى هدوء وثبات « دونك

رأسي فاقطعوه ، فدهش الجنرال لشجاعته ، واكتفى بأن يجلد بالسوط ثلاثين جلدة ، فجلد الغلام لا يتأوه ولا يتململ حتى استوفى الثلاثين سوطا ، ولم تكن سنه تتجاوز الثانية عشرة . وقد قص الجنرال «بليار» احد قواد الحملة حكايته في يومياته قائلا ان هذا الغلام اذا عني بتربيتـــه كان ذا شخصية نادرة المثال . وروى المسيو « فيفان دينون » احـــد أعضاء بعثة العلوم والفنون التي صحبت نابليون في مصر حكاية هذا الفدائي في رحلته ، وهي تتفق في جوهرها مع رواية الجنرال بليار وان اختلفت في بعض التفاصـــيل ، غير انه قال ان الجنرال ديزيه عفا عن الغلام ولم يأمر بعقابه، ورواية الجنــرال بليار في يومياته ادعى الى الثقـــة لانهـــا قاصرة على سرد الواقعة وخالية من عبارات التصور والتخيل التي وردت في رواية المســـيو دينون ، وقد رســـم هـــذه الحادثة في كتابه عن الحملة .

استمرار زحف الحملة

وصل الجيش الفرنسي الى (الفشن) يوم ١٧ ديســـمبر ثم ابتعد عن النيل وقصد شاطيء بحـــر يوسف يتعقب المماليك وحلفاءهم الأهلين ، لكن مراد بك اســـتطاع أن يتراجع قبل ان يدركه الجيش الفرنسي ، وظل الجيش يتعقبه ثلاثة ايام يتنقل من قرية الى قرية دون أن يفوز منه بطائل ، فعاد الى شاطيء النيل ووصل الى المنيا يوم ٢٠ ديسمبر ، وكان المماليك قد غادروها قبل قدومهم ببضع ساعات تاركين

بها سفنهم وكانت واحدة منها مسلحة بثلاثة من المدافع ، والمراكب الاخرى بها بعض المدافع القديمة وبعض الاقوات والذخائر ، فغنمها الفرنسيون .

ثم سار الجيش من المنيا مبتعدا قليلا عن النيل فمر ببنى أحمد ، فريدة ، فكوم الزهير ، ثم عرج على النيل ووصل الى (ساقية موسى) ثم الى (ملوى) وكانت كما هى الآن من اهم مدن الوجه القبلى . وقد وصفها الجنرال بليار فى يومياته بأنها مدينة كبيرة وانها اجمل ما رآه من المدن فى رحلته ، ذات شوارع واسعة مستقيمة وبيوت منتظمة وقد وجد الفرنسيون فيها ثمانية مدافع كان الآهالى يقذفون منها الجلل على المراكب الفرنسية حيث شرعوا فى تحصين المدينة واقامة سور لحمايتها ، فاستولى الفرنسيون على تلك المدافع ، واستمر الجيش فى زحفه فمر بطوخ ، فقتانوف ، فديروط ، فالقوصية .

احتلال اسيوط

وفى صباح يوم ٢٤ ديسمبر قام الجيش الفرنسى من القوصية قاصدا اسيوط فاحتلها يوم ٢٥ ديسمبر سنة ١٧٩٨ .

انسحب مراد بك من اسيوط بعد ان اغرق المجاهدون سفينة مسلحة من اسطولهم وتركوا ست سفن أعجلهم عنها ما كانوا فيه فلم يأخذوها ولم يغرقوها ، فاستولى الفرنسيون

عليها وعلى ما فيها من الاقوات والذخائر ، ثم سار الجيش من اسيوط يوم ٢٦ ديسمبر وانقسم الى فرقتين : فرقة اخذت طريق سفح الجبل ، والفرقة الآخرى المؤلفة من الفرسان اوغلت فى السهل ثم التقتا فى (الغنايم) فاحتلتها ونهبها الجنود .

احتلال جرجا

غادر الجيش (الغنايم) ووصل فى زحفه الى (فزارة) وعسكر فى غابة على مقربة منها ، وفى يوم ٢٨ ديسمبر وصل الى (بلصفورة) وفى يوم ٢٩ غادرها وحاذى النيل عند (المنشاة) ثم مر بالخارقة ، فالنويرات ، فطوخ العسيرات ، فأولاد حمزة ، الى ان وصل الى جرجا فى اليوم نفسه ، فعسكر حول المدينة ، وكان اسطول مراد بك قد غادرها قبل ان يصل الفرنسيون .

وهكذا قطع جيش الجنرال ديزيه المسافة من بنى سويف الى جرجا فى ثلاثة عشر يوما (من ١٦ الى ٢٩ ديسمبر سنة ١٧٩٨) كان فى خلالها يطارد جيش مراد بك من بلد الى بلد دون أن ينال منه منالا .

حط الجيش الفرنسى اثقاله بجرجا ليستريح الجنود من عناء تلك الرحلة التى انهكت قواهم ، ولينتظر وصول المراكب التى بها ذخائره ومهماته ومؤونته ، وقد تعطل سيرها وتأخرت عن متابعة الجيش لهبوط المياه ، واختلاف

الريح ، ومرض كثير من الجنود ، وامر الجنرال ديزيه بترحيل من لا يرجى شفاؤهم الى القاهرة لكيلا يكونوا عالة على الجيش ».

ورأى ديزيه ان لا يغامر بجيشه فيما وراء جرجا ، لانه اصبح بعيدا عن القاهرة ووجد فى جرجا مدينة كبيرة فى وسط مديرية خصبة تصلح لتموين الجيش ، فرأى من الحكمة ان يستقر بها حتى يصل اسطوله ويتأهب لاستئنافه الإيغال فى الصعيد ».

الثورة فيما بين اسيوط وجرجا

كان الجنرال ديزيه يتوقع قدوم اسطوله الى جرجا بعد ايام معدودات ، ولكنه تاخر فى الوصول ، فاضطر ان يبقى بها ثلاثة اسابيع دون ان يزحف أو يعمل عملا ، وكان تأخره مدعاة لتنظيم قوة المقاومة فى البلاد التى لم يفتحها ، وسريان روح الثورة فى المدن التى فتحها ، فصارت البلاد فيما بين اسيوط وجرجا شعلة من الهياج والثورة ».

شبت الثورة فى نحو اربعين بلدا ، وانضوى الى علمها نحو سبعة آلاف من الأهلين ، فانتهز مراد بك هذه الفرصة ليلم شعثه ويضم اليه الاعوان والانصار من أهل البلاد .

واجه الفرنسيون فى الصعيد فيما بين جرجا واسيوط ثورة واسعة النطاق ، بعيدة المدى ، ولكنهم عاجلوها قبل

ان تجتمع قواها وتتحد عناصرها ، وغلبوا قواتها المبعثرة ، معتمدين على نظامهم الحربى ومدافعهم القوية وبنادقهم الحديثة ، فكانت المعارك التى نشبت بينهم وبين الأهالى اشبه بمذابح فتكت فيها نيران المدافع والبنادق بحشود من الأهلين محرومين من النظام الحربى غير مزودين الا بأسلحة قديمة .

معركة سوهاج
٣ يناير سنة ١٧٩٩

كلف ديزيه فرقة الفرسان قمع هذه الثورة ، فقامت الفرقة من جرجا ووصلت الى سوهاج يوم ٣ يناير سنة ١٧٩٩ حيث كانت تحتشد قوة من الثائرين قدرهم قائد الفرقة باربعة الآف من الأهلين مسلحين بالبنادق والحراب ، يشد أزرهم سبعمائة من الفرسان ، ونشب القتال بين الفريقين ، ولكن الأهالى على كثرة عددهم لم يكونوا معتادين لخوض المعارك الحديثة ، فاصلتهم فرقة الفرسان نارا حامية فراجعوا أمامها تاركين ثمانمائة من القتلى كما يقدرهم الجنرال ديزيه .

كانت هذه الواقعة كارثة أصابت الأهلين ، وكان متوقعا ان تفضى الى ارهاب البلاد الاخرى واخماد الثورة فيها ، لكنها على العكس لم تكسر شوكة الثائرين ، ولم تثنهم عن عزمهم ، واحتشدت جموعهم المسلحة على مقربة من أسيوط قادمين رجالا وركبانا من مديريات المنيا وبنى‌سويف والفيوم ،

فكلف ديزيه فرقة الفرسان التوجه لمهاجمة هذه الجمــوع وليطمئن على الأسطول الفرنسي الذي انقطعت اخباره وتأخر وصوله الى جرجا ، وكان مركز هذا الاسطول محفوفــا بالمخاطر لانه كان يتسحب في النيل بين بلاد ثائرة وجمــوع هائجة .

معركة طهطا

٨ يناير سنة ١٧٩٩

سارت فرقة الفرسان ووصلت تجاه طهطا يوم ٨ ينايــر سنة ١٧٩٩ ، وكان بها عدد من الأهلين يبلغون نحو ثمانمائة فارس يقصدون مهاجمة الفرنسيين ، فاقتــرب الجيش الفرنسي يتحداهم للقتال ، فتقهقروا ، فترجــل الجنــود الفرنسيون تجاه طهطا واستراحوا ساعتين ثم استأنفـوا سيرهم ، فتبعهم فرسان الأهالي عن بعد ، وأخذت جمــوع الثوار تخرج من القرى مشاة وركبانا وتنضم اليهم فازداد عددهم حتى بلغ عدد الفرسان منهم ألفي فارس ، وهجم الثوار على مؤخرة الجيش الفرنسي ، فأمر قائـد الجيش باطلاق النار عليهم ، ففتكت بهم فتكا ذريعا ، وخسر الأهالي عددا كبيرا من القتلى قدرهم احد ضباط الفرقة ١٥٠ قتيلا من الفرسـان وثمانمائة من المشاة ، وانسحبوا من ميــدان القتال ، وانتقم الفرنسيون انتقاما فظيعــا من القرى التي اطلقت عليهم النار فقتلوا من اهلها خمسمائة رجل واحرقوها

معركة سمهود

٢٢ يناير سنة ١٧٩٩

زادت قوة مراد بك بأنضمام الأهالى الثائرين اليه وقدوم عرب جدة وينبع الذين أتوا من سواحل البحر الاحمر لنجدته .

كان مع مراد بك من المقاتلة ١٥٠٠ من المماليك والباقون من الاهالى الذين انضموا اليه من جميع البلاد ، ويقدر نابليون عددهم فى مذكراته بسبعة آلاف من الفرسان المصريين وثلاثة آلاف من المشاة ، والفين من عرب ينبع وجدة ، فجيش مراد بك كان اذا مؤلفا من نحو ١٢،٠٠٠ مقاتل ، وهى قوة لا يستهان بها لو كان لها قيادة صالحة مدبرة .

علم ديزيه ان هذه القوة مرابطة فى سمهود (بلدة بمركز فرشوط) الواقعة على ترعة بهجورة ، فانتقل اليها بجيشه وكان عدده نحو خمسة آلاف مزودين بالمدافع والبنادق الحديثة ، وهناك التقى بجيش مراد بك فى صبيحة يوم ٢٢ يناير سنة ١٧٩٩ ، ونشبت معركة حامية الوطيس بين الفريقين استعد لها الجنرال ديزيه استعدادا عظيما ليضمن لجيشه الفوز فيها ، فرتب جيشه فى مربعات تحميها المدافع من زواياها .

بهذا الترتيب قابل الجيش الفرنسى قوات مراد بك التى كانت أكثر عددا ، ولكن ينقصها النظام والمدفعية ومقدرة

القيادة ، فلا غرو أن انتهت الواقعة بهزيمة مراد بك وانسحابه بفلول جيشه جنوبا قاصدا فرشوط ».

وصول الحملة الفرنسية الى اسوان

اول فبراير سنة ١٩٧٩

لا تقل واقعة سمهود شأنا عن معركة سدمنت ومعركة الاهرام فى كونها اكسبت الجيش الفرنسى النصر فى ميدان القتال وفتحت أمامه الطريق لاحتلال البلاد ، فاستطاع بعد هذه المعركة أن يستأنف زحفه جنوبا ، واخذ يطارد جيش المقاومة حتى وصل الى فرشوط ، وهنـــاك اضطر الى الوقوف قليلا حتى يستريح الجنود الذين اجهدهم السير ، ثم غادر (فرشوط) متابعا سيره حتى وصل الى (هو) ثم (الوقف) ، وبلغ (دندره) فى ٢٤ يناير ، ومر قريبـا من اطلالها .

وشاهد ضباط الحملة آثار دندره القديمـــة ، فبهرتهم عظمتها ، ووقفوا مبهوتين أمام جمالها وجلالها .

واصلت الفرقة سيرها مارة بالقرى الواقعة على البـر الغربى للنيل ، فلم تلق بها مقاومة ، وعسكرت من ٢٥ الى ٢٦ يناير فى (دنفيق) ، ثم وصلت الى (طيبة) ذات الآثار الخالدة ، التى اشاد بذكرها هومير وهيرودوت ، وحدث عن جلالها سترابون Straton وديودور الصقلى ، وتغنى بعظمتها الشعراء والمؤرخون ، على تعاقب الاجيال والعصور

فشاهد ديزيه وأركان حربه آثار الفراعنة ومقابر الملوك الماثلة فيها دلائل عزهم وعظمتهم ، والنيل ينساب وسط تلك الآثار الناطقة بما كان لبلادنا فى الزمن السالف من مدنية عظيمة ، ومجد اثيل .

غادر الجيش طيبة ، وأسرع يتعقب المماليك ، فوصل الى (ارمنت) يوم ٢٦ يناير ، وغادرها فى اليوم التالى محاذيا النيل ووصل يوم ٢٧ يناير الى اسنا ، وكان مراد بك قد غادرها قبل وصول الجيش الفرنسى فترك فيها ديزيه كتيبة من الجنود لاخضاع البلاد وسار جنوبا حتى وصل الى (ادفو) يوم ٢٩ يناير ثم وصل يوم أول فبراير تجاه اسوان ، فاجتاز الفرنسيون النيل ووصلوا الى البر الشرقى حيث توجد أسوان فاحتلوها ، واستولوا فيها على مراكب المماليك ، وبذلك تم للجيش الفرنسى احتلال الصعيد بأكمله .

لكن فلول جيش المقاومة افلتت من تطويق الجيش وانسحبت الى ما وراء الشلال ، وعسكرت طلائعه على مسيرة اربعة فراسخ من اسوان ، فكان وجودهم من بواعث قلق الفرنسيين على سلطانهم فى الوجه القبلى ، فاعتزم الفرنسيون مطاردتهم فى بلاد النوبة واقامة الحصون فى اسوان .

لم يطل ديزيه مكثه فى اسوان أكثر من يومين ، ثم غادرها تاركا بها الجنرال بليار ووصل الى اسنا يوم ٩ فبراير ، وعزم

على اتخاذها مؤقتا معسكرا لجيشه ليرقب حالة الوجه القبلى »

على أن طلائع المماليك اخذت تناوش المخافر الفرنسية على مقربة من أسوان ، فذهب بليار لمطاردتهم مع كتيبة من جنوده ، وتعقبهم حتى انسحبوا جنوب (دهميت) واوغلوا ثانية فى بلاد النوبة ، ورأى الجنرال بليار أن يحول دون رجوعهم بتخريب تلك المنطقة لكيلا يستطيع المماليك ان يقيموا بها ويتخذوها مركزا لمناوشة الفرنسيين ، فاقتلع مزروعاتها ونهب ما فيها من الماشية ، واعتزم ايضا احتلال جزيرة (انس الوجود) والجزر الواقعة فى شلال اسوان ليأمن على سلامة الجيش الفرنسى »

المقاومة فى جزيرة فيلة

فى ٦ فبراير سنة ١٧٩٩ قصد بليار الى جزيرة فيلة (أنس الوجود) فى كتيبة من مائتى جندى ، فرست عند الشلال وسارت على الشاطىء الأيمن للنيل ، ولما صارت تجاه جزيرة « فيله » اراد الفرنسيون ان يعبروا النيل اليها على مراكب الأهالى ، فلم يقبل احد منهم أن يسلم فى مركبه ، وعاد بليار أدراجه الى اسوان ، وبعد بضعة ايام استأنف تحقيق عزمه ، فلقى مقاومة شديدة من النوبيين فى جزيرة

قيله (انس الوجود) وجزيرة (الحصناه) ، قال الجنرال بليار فى يومياته يصف هذه المقاومة :

« حمل الأهالى اسلحتهم وصاحوا صيحات القتال ، ورأينا النساء ينشدون اناشيد الحرب والهيجاء ويحثون التراب فى وجوهنا ، اما الرجال فاطلقوا الرصاص على رجالنـــا الذين ركبوا البحر ، وكنت قد احضرت معى مدفعا لاخضاعهم ، فدعوتهم الى الصلح والسلام ، فكان جوابهم انهم لا يقبلون منا كلاما وانهم لا يفرون من امامنا كما يفر المماليك ، واستأنفوا اطلاق الرصاص ، فجرح ثلاثة من رجالنا ، ولم يكن لدينـا مراكب نصل بها الى الجزيرة ، وحاولنا أن نتخذ من جـــذوع النخل طوفا ينقل الجنود ولكن المياه غمرته ، فاضطررنا ان نرجىء احتلال الجزيرة وبقيت الجنود ترابط يوم ١٩ فبراير على شاطىء النيل تجاه الجزيرة ، واستجابت من اسوان بعض الواح الخشب للعبور عليها .

وفى اليوم التالى وصلنا الى الجزيرة ، فاطلق علينـــا الفلاحون الرصاص ولكن لم يصب احد من الجنـــود ثم فروا تاركين مواشيهم ومؤونتهم واحتللنا الجزيرة .

وفى يوم ٢١ فبراير احتللنا الجزر الاخرى المجاورة لجزيرة فيلة والتى اشترك اهلها فى الثورة ، ثم عاد الجنود وبقيت فصيلة منهم لتستولى على مؤونة الأهالى من التمر ، وكانت

نتيجة هذين اليومين ان قتل من الاهالى ثلاثون رجلا واستولينا على ٢٠٠ بندقية و ٢٠٠ طبنجة وسيف ، وشيء كثير من التمر واللحم والمؤونة » .

تم للفرنسيين احتلال الجزر الواقعة فى اسوان واطمأنوا على حدود مصر ، وأخذ الجنرال بليار يحصن اسوان وعزم على اقامة قلعة فيها .

معـــركة الرديسية
١١ فبراير سنة ١٧٩٩

عبر الجنرال دافو النيل وسار بالبر الشرقى قاصدا مهاجمة جموع الاهــالى والمماليك ، فالتقى بهم يــوم ١١ فبرايــر بالرديسية (بلدة واقعة بالبر الشرقى للنيــل جنوبى ادفو على البر الغربى) ، واصطدم الفريقان وكلاهما من الفرسان فى معركة شديدة دامت ثلاث ساعات اشتبك فيها المقاتلون وجها لوجه ، فكانت هذه المعركة قريبة الشبه بمعركة الصالحية ، استعمل فيها السلاح الأبيض ، فخسر الفرنسيون خســارة جسيمة وبلغ عدد قتلاهم ٣٧ قتيلا وبلغ عدد جرحاهم ٤٤ ، وكانت خسائر المماليك والاهالى لاتقل عن خسارة الفرنسيين ، وانتهت المعركة بانسحاب الأهلين والمماليك الى الصحراء فى طريق القصير ، واستطاعوا أن ينقذوا مؤونتهم من الــوقوع فى قبضة الفرنسيين ، فلم يكن الفوز لاحــد الفريقين على الآخر ، وبقيت قوة الأهلين والمماليك سليمة تترقب الفرصة لمعاودة الكرة .

معركة قنا

١٢ فبراير سنة ١٧٩٩

اما فى جهة قنا فقد سارت اليها كتيبة من الجنود قاصدة الامتناع بها ، لان موقعها على جانب عظيم من الاهميـــة ، واليها يفضى الوادى المعروف بوادى القصير ، وهى ممر القوافل الذاهبة من القطر المصرى الى الحجاز او التى ترد منه عن طريق القصير ، وقد سبقتها اليها طلائع الجنـود وعددهم نحو خمسمائة مقاتل ، ولم يكد يعلم الثوار باحتلال الفرنسيين لها حتى هجموا عليها قبيل منتصـف ليلة ١٣ فبراير ، ولكن الفرنسيين ردوا هجومهم على المدينة واوقعوا بهم خسارة جسيمة .

وصلت الكتيبة الفرنسية بعد انتهاء المعركة ، فـاقامت المخافر حول المدينة وعلى مداخل الطرق الموصلة الى النيل لمنع الثوار من استئناف هجومهم .

معركة (ابو مناع)

١٧ فبراير سنة ١٧٩٩

ولم تثنهم هزيمة ١٢-١٣ فبراير عن عزمهم على مواصلة القتال ، فسار اليهم الفرنسيون فادركوهم فى قرية (ابو مناع ، شمال دشنا) وهناك دارت معركة اخرى تغلبت فيها المدفعية على البنادق والاسلحة القديمة التى كان يستعملها

الثوار ، فقتل عدد كبير منهم ، واستولى الفرنسيون على (ابو مناع) واضرموا النار فيها وفى القرى المجاورة ونهبوها .

معـــركة اسنا

٢٥ فبراير سنة ١٧٩٩

وفى غضون ذلك اخذ مراد بك يتأهب للحملة على مواقع الفرنسيين على النيل ، ففى ٢٥ فبراير سنة ١٧٩٩ أقبل ومعه قوة من سبعمائة من الفرسان وعدد حاشد من النوبيين قاصدين مهاجمة الحامية الفرنسية فى اسـنا ، فاشتبك الفريقان في معركة دامت ساعة من الزمن وانتهت بتقهقر مراد

الفصل الثانى عشر

استمرار المقاومة فى الوجه القبلى

لم يتم للفرنسيين اخضاع الوجه القبلى على الرغم من انتصاراتهم العسكرية واحتلالهم معظم بلدانه. بل ظل مركزهم مضطربا ونفوذهم مزعزعا ، وتحرج موقفهم من الوجهة الحربية ، لانهم بعد أن احتلوا مدن الصعيد اصبح جيشهم مبعثرا على طول النيل ولم يكن سلطانهم يتعدى المدن التى لهم بها حاميات ، ولم يكن من السهل على الجيش الفرنسى اخضاع بلاد متباعدة تفصلها المسافات المترامية كبلاد الوجه القبلى .

كانت روح المقاومة تسود سكان القرى والمدن ، فلم يكن الاهلون يدعون فرصة تمر دون ان يثوروا فى وجه السلطة الفرنسية . وكانوا من هذه الوجهة متصلين بالبقية الباقية

من جيش المماليك تعاونهم طوائف العرب القادمين من القصير فاجتمعت هذه القوى الثلاث واتحدت على مهاجمة الحاميات الفرنسية والمدن وقطع مواصلات الجيش الفرنسي في النيل بمهاجمة السفن التي تحمل الجنود والذخائر والاقوات ، ولذلك تحرج مركز الجيش الفرنسي وتعددت المناوشات والمعارك والمفاجآت ، وبكل ذلك لم يستقر له قرار في تلك الجهات .

كان الجنرال ديزيه مقيما في اسنا التي اتخذها معسكره العام وظل بها يرقب الحال ويتتبع حركات الاضطرابات في الصعيد ، ثم غادرها قاصدا الى (قوص) ، وقد شعر بحرج الموقف وافضى الى نابليون بالمصاعب التي تكتنفه وطلب منه المدد ليتمكن من اخضاع الوجه القبلي ، ولكن نابليون كان مشغولا بالحملة على سوريا فأخذ معه ما استطاع اخذه من القوات والذخائر ولم يرسل لديزيه الا النزر اليسير منها ، فاضطر ديزيه ان يكتفي بقواته لاستمرار الحملة على الوجه القبلي ومواجهة الاضطرابات فيها ، ولم يجد ما يسد به النقص الذي وقع في صفوفه من المعارك والامراض .

موقف المماليك

بقي الجنرال ديزيه عدة ايام في قوص يرسم الخطط التي تقتضيها ضرورات الموقف العسكري ، وترك لقواده حرية العمل كل في جهته لمواجهة الهجمات التي استهدفت لها بجبهة القتال الطويلة ، ثم اعتزم ان يواصل سيره شمالا

قاصدا الى جهات جرجا واسيوط ليقمع الثورات التى ظهرت فيها، وكان يعتقد انه سيواجه قوات كبيرة من مماليك مراد بك ومحمد بك الالفى ، على أن المماليك كعادتهم لم يستهدفوا لمواجهة الجيش الفرنسى ، وتركوا عبء القتال على عاتق الاهلين ، فقد بقى مراد بك فى الواحة بعيدا عن ضربات ديزيه وجنوده ، وانسحب محمد بك الالفى الى اخميم ولحق به عثمان بك حسن ، واخذ المماليك من اتباعهم يبحثون عن ملجأ لهم فى القرى والمدن، وباع كثير منهم سلاحهم للاهالى ، وعرض بعضهم نفسه على الفرنسيين ليضموهم اليهم ، وقد ذكرت المراجع الفرنسية حوادث معينة لهذا التحول ، منها أن احد مماليك عثمان بك حسن طلب من ضباط الجيش الفرنسى أن يأخذوه اليهم ، وحجته أنه قبل أن يكون مملوكا كان مجريا (من سكان المجر) ومن فرسان الجيش النمسوى فأسره الاتراك فى بعض حروبهم مع النمسا وصار بعد ذلك مملوكا ، فقبل الفرنسيون خدمته وانضم الى صفوفهم ، ودخل آخرون فى الجيش الفرنسى زاعمين أنهم كانوا جنودا فى الجيش النمسوى واسرهم الاتراك وارسلوا الى الاستانة ثم نقلوا الى مصر وصاروا فى عداد المماليك ، وقد قبلهم الفرنسيون فى صفوفهم وصاروا من رجالهم الامناء !! ويدخل فى هذا السياق ان نابليون جند فى صفوف الجيش الفرنسى جميع المماليك الفتيان الذين تتراوح اعمارهم بين الثامنة والسادسة عشرة ، والحقهم بالجيش ليتدربوا على القتال فى صفوفه ...

فمقاومة المماليك قد تلاشت اذن امام الجيش الفرنسى ، وتنفس الفرنسيون الصعداء للقضاء على خصم كان يخلق لهم المتاعب ، على أن مقاومة الاهلين كانت اشد وانكى واعظم اثرا فى اضعاف مركز الفرنسيين فى الوجه القبلى .

تحرك ديزيه من قوص يوم ٢ مارس سنة ١٧٩٩ وانتقل الى الشاطىء الايسر للنيل قاصدا اسيوط ، وضم الى جيشه فى الطريق الوحدات التى كانت موزعة على طول النهر وترك وراءه اسطول السفن الفرنسية تتبعه عن بعد ، وتسير مبطئة لاختلاف الريح .

وناط الجنرال ديزيه قبل سيره من قوص بالجنرال بليار مهمة اخضاع مصر العليا من قنا الى اسوان ، وطلب منه ابقاء خمسمائة جندى فى اسنا واتخاذها مركزا عسكريا حصينا لمراقبة البلاد شمالا وجنوبا ، وتوزيع الوحدات المتحركة على البلاد الواقعة على النيل ، وكلفه التقدم الى قنا وجعلها مركزا حصينا لمراقبة طريق القصير وطريق النيل .

معركة الصوامعة

٥ مارس سنة ١٧٩٩

علم ديزيه فى طريقه الى اسيوط أن الاهالى ثاروا بقيادة مشايخ البلاد بالقرب من طهطا ، فعهد الى احد قواده مهاجمة الثائرين ، فالتقى بهم فى الصوامعة (جنوبى طهطا) يوم ٥ مارس ، والفى نار الثورة مشتعلة بها ووجد نحو ثلاثة آلاف

من الفلاحين يحتلونها ، فهجم على المدينة بجنوده واحتلها ، ودفع الثوار الى النيل فقتل منهم عدد كبير قدرهم الجنرال ديزيه بألف قتيل وغريق .

وصل ديزيه الى اسيوط يوم ٨ مارس بعد ان وزع قواته على طول النيل فى أسنا وقنا وفرشوط ، وجرجا وطهطا واسيوط فاتخذ من هذه المدن مراكز للحاميات الفرنسية ، ورتب وحدات متحركة تجوب البلاد الواقعة بينها لاخضاعها وقمع حركات الثورة التى تبدو فيها .

كارثة السفن الفرنسية فى النيل
٣ مارس سنة ١٧٩٩

سبق الجنرال ديزيه عند سفره من قوص اسطوله الذى كان يسير ببطء فى النيل ليلحق بالجيش فى أسيوط ، وبعدت الشقة بينهما ، فانتهز الاهالى هذه الفرصة لمهاجمة الاسطول وكان عدده نحو ١٢ سفينة حربية تقل ذخائر الجيش ومؤونته تتقدمها السفينة الحربية « ايتاليا » .

هاجم الاهالى هذه السفن يوم ٣ مارس سنة ١٧٩٩ على مقربة من قرية « البارود » بالقرب من قوص وتسمى (نجع البارود) واطلقوا عليها الرصاص فأجابته السفينة الحربية

« ايتاليا » على هجمات الاهالى باطلاق المدافع فقتلت منهم عددا كبيرا ، لكن الاهالى ومعهم العرب القادمون من القصير تجمعوا وازداد عددهم ونزلوا النيل سباحة وهجموا على السفن فاستولوا عليها عنوة وافرغوا شحنتها من الذخائر على شاطىء النيل ، ثم ركبوها وقصدوا الى السفينة الحربية « ايتاليا » للاستيلاء عليها .

وكان يقودها القومندان موراندى (Morandi) ، فضاعف اطلاق الرصاص على المهاجمين ، ولكنه رأى رجال مدفعيته قد اثخنتهم الجراح على ظهر السفينة ، ورأى من جهة اخرى جموع الاهالى من الشاطىء الايسر يتحفزون للهجوم عليه ، ففكر فى الانسحاب ، ولكن الريح عاكسته فجنحت سفينته ، واذ ذاك هرع اليها الاهالى من كل صوب وحدب وصعدوا على ظهرها ، فتحقق موراندى الخطر المحدق به ، ولكنه ابى التسليم ، فاشعل النار فى مستودع البارود والقى هو ورجاله بانفسهم فى اليم قاصدين النجاة ، وانفجر مستودع البارود فنسف السفينة نسفا وتفجرت شظايا القنابل على الشاطىء فقتلت عددا كبيرا من الاهالى ولكن الباقين منهم قاتلوا موراندى ورجاله فى اليم ، فمات مثخنا بجراحه ، وقتل جميع الفرنسيين الذين كانوا على ظهر السفينة «ايتاليا» وعلى ظهر السفن الاخرى ، وكانت خسارة الفرنسيين جسيمة فبلغ عدد قتلاهم من البحارة والجنود خمسمائة قتيل ، وهى اكبر خسارة منى بها الجيش الفرنسى فى الحملة على الوجه القبلى »

معركة قفط
٨ مارس سنة ١٧٩٩

قصد الجنرال بليار موقع الاهالى والعرب على مقربة من قفط ، وهناك التقى بجموعهم الذين كانوا يرابطون فى السهل وعددهم نحو ثلاثة آلاف من الاهالى وعرب الحجاز و ٣٥٠ الى ٤٠٠ من المماليك ، والتقى الجمعان فى سهل قفط يوم ٨ مارس سنة ١٧٩٩ ، فكانت معركة حامية الوطيس اشتبك فيها المقاتلون وجها لوجه وانتهت بهزيمة الاهالى والعرب وانسحابهم الى ابنود .

معركة ابنود
٨–٩–١٠ مارس سنة ١٧٩٩

واصل الاهالى والعرب انسحابهم وهم يدافعون دفاعا شديدا عن كل قرية وكل مكان ارتدوا اليه ، فلما وصلوا الى ابنود تحصنوا فيها ونصبوا بها المدافع الفرنسية التى غنموها فى واقعة بارود النيلية ، واخذوا يطلقون النار منها ففتكت بالفرنسيين فتكا شديدا ، وكانت هذه اول مرة واجه فيها الفرنسيون مدفعية حديثة فى صفوف المصريين ، وقد أدرك الجنرال بليار لفوره أن موقفه أصبح محفوفا بالخطر وأن منشأ الخطر وجود المدافع الفرنسية فى يد المصريين ،

فوجه قوة جيشه كلها للاستيلاء على هذه المدافع ، ونجح فى خطته فاسترجع الفرنسيون مدافعهم وجردوا المصريين من اقوى سلاح كان فى يدهم .

واشتد القتال بين الفريقين وانسحب الاهالى والعرب الى منازل القرية ، فتجدد القتال فى طرقاتها وبيوتها ، ولم يتمكن الفرنسيون من التغلب عليهم الا بعد أن اضرموا النار فى منازل القرية كلها ، فأصبحت البلدة شعلة من الجحيم ، وتصاعد اللهب الى عنان السماء ، واستحالت القرية الى أكوام من الخرائب ، وبالرغم مما حل بها من الحريق والدمار فقد امتنع الاهالى فى قصر حصين كان فيما مضى مقرا لكشاف المماليك ، وفى مسجد يجاوره ، جمعوا فيه الذخيرة التى غنموها من الفرنسيين ، فأشتد القتال حول هذا المنزل والمسجد المجاور له ، وتبادل الفريقان اطلاق النار الى أن جن الليل ، وتكبد الفرنسيون خسائر جسيمة فكفوا عن الضرب بعد أن أحرقوا المسجد واخذوا يحاصرون المنزل طول الليل ويستعدون لاستئناف القتال فى اليوم التالى ، ونصبوا المدافع بحيث تشرف عليه . أما المماليك فقد لبثوا يشاهدون هذه المجزرة بعيدا لم يأتوا شيئا ولم يعملوا عملا ما ، وعسكروا فى الصحراء وذلك كان شأنهم فى كل المعارك التى اشتد فيها القتال تكاثرا يضنون بارواحهم ويعرضون الاهالى فداء وضحية .

استؤنف القتال فى اليوم التالى (يوم ٩ مارس) ، فأعاد الفرنسيون ضرب القصر بالمدافع ، وهنا اقبل مدد من الاهالى

والمماليك لرفع الحصار عن هذا القصر ، فردهم الفرنسيون على اعقابهم وشددوا الحصار والضرب الى ان تمكنوا من دخول احدى ساحاته فاضرموا النار فى بنائه ليكرهوا من فيه على التسليم ، فاشتعلت النار فى غرف القصر واوشك لهيبها ودخانها ان يخنق المحصورين ، فنزلوا الى ساحته واستمروا يقاتلون الفرنسيين بشجاعة اعترف بها بليار فى رسالته الى الجنرال ديزيه الى ان جن الليل ، وكان قد قتل كثير منهم ، وتمكن بعضهم أن يتسللوا تحت الظلام فأفلتوا من الحصار ونجوا بأنفسهم من النار المشتعلة .

وفى صباح اليوم الثالث للمعركة (يوم ١٠ مارس) اقتحم الفرنسيون القصر فوجدوا الباقين به نحو ثلاثين قد اقعدهم الاعياء ونالتهم الجراح ، ومع ما كانوا فيه من الهلاك فانهم استمروا على المقاومة الى ان قتل الفرنسيون معظمهم .

وبعد انتهاء المعركة تظاهر مماليك عثمان بك حسن بالرغبة فى القتال كذبا ودعوى ، وكانوا أثناء القتال جامدين ، فسار اليهم الجنرال بليار قاصدا مهاجمتهم ، وما أسرع ما فروا فى الصحراء ، فتركهم وعاد الى أبنود .

وجد الفرنسيون فى القصر جانبا من الذخائر التى فقدوها فى معركة بارود النيلية ، وكان الاهالى والعرب قد استنفدا جزءا منها ، وكذلك استرد الفرنسيون المدافع التى كان الاهالى قد انتزعوها من السفن الفرنسية واستولوا على ست رايات منها اثنتان للحجازيين .

وقدر بليار خسائر الاهالى وحلفائهم الحجازيين بخمسمائة او ستمائة قتيل وثمانية الى عشرة من المماليك وكثير من الجرحى ، وقدر خسائر الفرنسيين بنحو ٣٥ قتيلا و ١٤٢ جريحا ، وكانت هذه المعركة من أشد معارك الحملة الفرنسية هولا واطولها مدة ، فلقد كانت سلسلة معارك دموية دامت ٧٢ ساعة ، وكان حريق ابنود وما أصابها من الدمار أفظع مأساة وقعت فى معارك الحملة الفرنسية

وبالرغم من انتصار الفرنسيين فى معركة ابنود فقد انهكهم القتال ونالتهم الخسائر الجسيمة ونفدت ذخائرهم، واصبح من المتعذر على الجنرال بليار متابعة القتال لفداحة الخسائر ، ومما زاد موقفه حرجا الروح العدائية التى سادت الاهالى فى تلك الجهات بحيث كان الفرنسيون يشعرون انهم محوطون بالاعداء من كل جانب وان لا سبيل الى استبقاء سلطتهم الا بقوة السيف والنار ، وقد شعر قواد الجيش بتلك الحالة النفسية وافضوا بها الى القيادة العليا فى رسائلهم وتقاريرهم ودونوها فى مذكراتهم .

قال الجنرال بليار فى يومياته : « ان كل القرى التى نجتازها نجدها خالية من السكان لانهم يخلون قراهم قبل أن نصل اليها » .

وقال فى رسالة له الى الجنرال ديزيه عن معركة ابنود : « اننا نعيش هنا عيشة ضنكا فان جميع القرى تقفر من السكان كلما اقتربنا منها ولا نجد فيها شيئا من القوت ولا

نرى فلاحا واحدا يدلنا او يأتينا بالاخبار او يحمل رسائلنا ، ولا ادرى السبب فى هذه الحالة » .

ورجع بليار بعد معركة ابنود قاصدا الى قنا فوصلها يوم ١٢ مارس سنة ١٧٩٩ واخذ فى تحصينها ، واختار منزلا كبيرا لأحد المماليك فاتخذه حصنا يشرف على المدينة وعلى النيل وجعله معسكرا للجنود واخذ يبعث بالرسائل الى الجنرال ديزيه لينبئه بموقفه ، ولكن رسله جميعا قتلهم الاهالى فى الطريق ولم ينج منهم الا واحدا بلغ اسيوط برسالته .

رجوع ديزيه الى قنا

أما الجنرال ديزيه فكان فى أسيوط يرقب الحالة وينتظر رسائل بليار التى ابطأت عليه كثيرا ، الى ان وصلته يوم ١٧ مارس سنة ١٧٩٩ رسالة منه ينبئه فيها بكارثة السفن الفرنسية فى بارود ثم انتصار الفرنسيين فى معركة ابنود ، ولم يخفف هذا الانتصار شيئا من عظم الكارثة النيلية ، فانها فضلا عما لحق الفرنسيين فيها من خسارة الانفس والارواح لقد أفقدتهم أعظم مستودع للذخيرة التى كانت تحملها السفن ، فأرسل ديزيه يستعجل المدد والذخيرة من القاهرة ، واعتزم ان يسير جنوبا الى قنا ليشد ازر الجنرال بليار ويقمع حركات الثورة التى ظهرت فى البلاد وبخاصة الواقعة على الجانب الايمن للنيل .

ترك ديزيه حامية في اسيوط وغادرها يوم ١٨ مارس بجنوده وجعل طريقه على البر الشرقي ، وحمل مؤونته وذخيرته في النيل وسار الجنود على الشاطىء فوصل قبالة طهطا يوم ٢٠ مارس ، ثم الى اخميم يوم ٢١ ، ثم قبالة جرجا يوم ٢٣ مارس ، وبقي عدة ايام في بلاد احد المشايخ الذين اشتهروا بمقاومة الفرنسيين وهو الشيخ (عبد المنعم) للتنكيل به ، فأمر بقطع نخيله واضرام النار في القرى التابعة له .

ووصل يوم ٢٧ مارس الى قنا فالتقى بالجنرال بليار ، وأخذا يعدان العدة لاستئناف القتال واخضاع البلاد

معركة (بئر عنبر)

٢ ابريل سنة ١٧٩٩

وصل ديزيه الى قنا ، فشد وصوله عزائم الجنود واخذ يتأهب لمواجهة المقاومة التي كانت تقلق الفرنسيين .

لم تكسر انتصارات الفرنسيين شوكة البلاد ولم تضع حدا للمقاومة الاهلية ، فان الاهالي وحلفاءهم من العرب والمماليك كانوا يجمعون فلولهم بعد المعارك التي هزمهم فيها الجيش الفرنسي ، ثم يعودون لاثارة المقاومة واستئناف الهجوم ، وكل معركة تترك لهم ثأرا على الفرنسيين ، وبذلك لا تنقضي معركة الا ولدت معركة جديدة .

شرع ديزيه يوجه قواته لسحق رجال المقاومة الذين انسحبوا بعد معركة ابنود الى جهة (الجطة) فى طريق القصير ، فجمع فى هذه الحملة كتيبة من ١٥٠٠ من خيرة جنوده واتجه جنوبا محاذيا البر الشرقى للنيل ضاربا فى الصحراء ، فوصلت الفرقة الى (كفر اسما) وهى قرية صغيرة فى سفح الجبل ، ثم وصلت الى « القربية » (جنوبى قفط) وعسكرت تجاهها ، وكان ديزيه يرمى الى قطع الطريق على الثوار حتى لا يصلوا الى النيل بأحد الطريقين الموصلين اليه من (الجطة) ، وهما طريق بئر عنبر وطريق (حجازة) الواقعة جنوبى قوص بقرب الجبل الشرقى ، فاحتل بئر عنبر وعهد الى بليار باحتلال حجازة فاحتلها ، وبذلك تم للفرنسيين احتلال رأس الطريقين الموصلين الى النيل . واخذ الجنرال بليار وهو فى حجازة يستطلع حركات المماليك وحلفائهم الذين كانوا فى (الجطة) يتحفزون للتقدم يريدون النيل ، فلما علم ديزيه بمقصدهم سار بجنوده فى صباح يوم ٢ ابريل لمنازلتهم .

فلما كان على مسير ساعة من (بئر عنبر) التقت طلائع جيشه من الفرسان بقوة المماليك والاهالى وكان عددهم نحو خمسمائة من المماليك والف من الاهالى .

فدارت معركة شديدة بين الفريقين بالقرب من (بئر عنبر) تلقت فيها كتيبة الفرسان الفرنسيين صدمة الهجوم وتأخر المشاة عن المعركة لوعورة الطريق وصعوبة السير فى الرمال ، وكان يتولى قيادة الجيش الفرنسى الجنرال

ديزيه ، وبلغت خسائر الفرنسيين ٤٤ قتيلا و ٢٠ جريحا وهى خسارة كبيرة تدل على اشتداد القتال فى تلك المعركة .

وكاد يقضى على ديزيه لولا أن افتداه احد ضباطه بحياته ، وانتهت المعركة بانسحاب المماليك وحلفائهم الى (البجطة) فى طريق القصير .

تجدد الثورة بين جرجا وقنا

وتجددت الثورات بين قنا وجرجا وجرت وقائع عدة بين الثوار والفرنسيين فى برديس وجرجا وجهينه (ابريل سنة ١٧٩٩) .

الثورة فى بنى عدى

وصل الجنرال دافو الذى انقذه ديزيه الى جرجا ثم الى طهطا ، وعلم بنبأ معركتى جرجا وجهينة ، فتابع سيره الى أسيوط ووصلها يوم ١٦ ابريل ، وهناك رأى أن الثورة امتدت الى أسيوط وسرت اليها من فلول الاهالى والعرب الذين انهزموا فى جرجا وجهينة وانسحبوا شمالا يحميهم اهالى القرى التى فى طريقهم حتى وصلوا قريبا من اسيوط ، فاخذوا يحرضون الناس على الثورة ويستحثونهم لقتال الفرنسيين ، وكانت خطتهم محكمة التدبير واسعة المدى ، واتخذ الثوار (بنى عدى) معسكرا للثورة ، وهى بلدة كبيرة واقعة على طرف الصحراء غربى منفلوط وعلى طريق الواحة

التى كان مراد بك لاجئا اليها ، وكان لهذه البلدة اهمية كبيرة بالنسبة لموقعها وعدد سكانها وثروتها ، واشتهر اهلها من قديم الزمن بالقوة وشدة الباس ، فكانوا فى عهد المماليك يقاومون مظالمهم ، فاتخذها الثوار مركزا لهم واجتمع بها ثلاثة آلاف من الاهالى المسلحين وانضم اليهم ٤٥٠ من العرب المصريين وثلثمائة من المماليك .

كانت هذه القوة لا يستهان بها ، فسار الجنرال دافو بجنوده قاصدا بنى عدى للاستيلاء عليها وقمع الثورة فيها ، فلما وصل اليها (يوم ١٨ ابريل سنة ١٧٩٩) الفى اهلها جميعا يحملون السلاح ويتحفزون للوثبة والقتال ، وكان المماليك لم يزالوا فى الصحراء بعيدا عن بنى عدى ، فعهد دافو الى قوة من جنوده باحتلال غابة تحصنت بها طلائع الاهالى ، فتمكنوا من اجلائهم عنها وارتدوا الى المدينة ، فتعقبهم الفرنسيون ، ولما اقتربوا من المدينة اطلق الاهالى الرصاص عليهم ، واستمر الجنود يقاتلون الاهالى ، وهنا حضر المماليك لنجدتهم ، ولكن لم يكد الفرنسيون يتحولون اليهم ليمنعوا اتصالهم بالاهالى حتى ارتدوا لاول صدمة وانسحبوا راجعين الى الواحة التى قدموا منها ، وتركوا الاهالى وحدهم يتلقون هجمات الجيش الفرنسى ، فاشتبك الفريقان فى معركة حامية دارت رحاها فى طرقات بنى عدى وفى بيوتها التى حصنها الاهالى وجعلوا منها شبه قلاع كان الرصاص ينهال منها على الجنود ، فلقى الجيش الفرنسى ببنى عدى من المقاومة ما لم يلق مثله فى كثير من البلاد .

استمر القتال الى الليل وانتهت المعركة بغلبة المدافع والنيران الفرنسية على مقاومة الاهالى ، ذلك ان الفرنسيين لما عجزوا عن الاستيلاء على بنى عدى لجئوا الى وسيلة الحريق التى اتبعوها فى أبنود وغيرها ، فاضرموا النار فيها ، فامتدت الى بيوتها كافة ، واصبحت البلدة كأتون من نار ، وبهذه الوسيلة غلب الجيش الفرنسى على مقاومة بنى عدى واحتلها الجنود وامعنوا فى اهلها قتلا ونهبا .

واستمرت الثورات لا تنقطع فى المنيا وبنى سويف .

واحتل الفرنسيون ميناء القصير فى ٢٩ مايو سنة ١٧٩٩، واطمأنوا قليلا على سلطتهم فى الصعيد .

الحالة النفسية للشعب

على أن هذه السلطة كانت على الدوام مهددة ، وكان الاهالى متحفزين للانقضاض على الحاميات الفرنسية كلما سنحت لهم الفرصة ، بحيث لم ترسخ دعائم السلطة الفرنسية فى تلك الاصقاع بالرغم من انتصارات ديزيه وجنوده وبالرغم من وسائل القسوة والارهاب التى اتبعوها فى اخضاع البلاد ، واعترف نابليون فى تقريره الى حكومته بأن القوة المسلحة هى الاداة التى يعتمد عليها فى توطيد السلطة الفرنسية فى تلك الاصقاع ، وهذا ينطبق تماما على رأى الجنرال ديزيه فى رسائله الى نابليون ، فقد كتب اليه يقول : « اننا دائما محوطون بالاعداء ، وان صعوبة المواصلات المهددة غالبا

بالانقطاع ، وبعد المسافات ، تمنعني من أن أكتب لك عن اخبارنا بمقدار ما ارغب ، اننا فى حاجة الى الجنود لان فرقتي قد انهكها التعب واجتاحتها الامراض وبخاصة الرمد الذي انتشر بين الجنود انتشارا فظيعا ، وان من الخطر أن نترك جهة واحدة من مصر العليا دون أن نحتلها بجنودنا ، واننا لم نستطع أن نشتت اعداءنا الا بمتاعب وحملات شاقة لا هوادة فيها ، والبلادمع ذلك مستعدةللثورة اذا بدر منا ضعف أو تراجع ، وانى مضطر الى ارهاق الجنود وجعلهم دائما على سفر ، لانهم الوسيلة التى نستطيع بها تحصيل الضرائب » .

وقال فى هذا الصدد : « ان الحالة لم تتغير ، والبلاد من اسنا الى أسيوط هى فى الوقت الحاضر هادئة ، ولكنى لم ابلغ هذا الهدوء الا بوسائل القسوة ومتابعة الحملات المستمرة المنهكة للقوى ، وسأجوب البلاد من اسيوط الى المنيا واجمع ما تأخر من الضرائب ، وانتزع الرهائن من جميع القرى كما فعلت فى مديريتى أسيوط وجرجا ، ولا يداخلنى الشك فى أن هذه الطريقة والقوة المسلحة هما الدعامتان اللتان قامتا بالهدوء الحالى » .

فالقوة المسلحة ، والقسوة ، والارهاب ، والفظائع ، هى الوسائل التى تذرع بها الفرنسيون لمكافحة قوات المقاومة فى الصعيد ، وهكذا ظل جيش الجنرال ديزيه يطارد قوات التى لا عداد لها ، ولا يكاد يتغلب عليها حتى تتجمع وتعود

ثانية للقتال ، وصار ديزيه يحارب حربا لا نهاية لها ، في ميدان واسع مترامى الاطراف ، يمتد من الجيزة شمالا الى أسوان جنوبا ، ومن القصير شرقا الى واحات الصحراء الكبرى غربا ، دون أن يصل الى اخضاع البلاد إخضاعا تاما او اقرار السلطة الفرنسية فيها .

الفصل الثالث عشر

تجدد المقاومة فى مصر

اثناء الحملة الفرنسية على سورية

على الرغم مما تذرع به الفرنسيون من مختلف وسائل القسوة والوحشية للقضاء على المقاومة الشعبية ، فقد فشلت هذه الوسائل فى اخضاع المصريين ، او حملهم على الهدوء ، والتسليم بالامر الواقع ، وكان اعتزام نابليون غزو سورية حافزا لهم على التصميم على مواصلة الجهاد وتجديد حركات المقاومة حتى يتم لهم اجلاء الغاصب عن البلاد .

احتياطات نابليون وسياسته أزاء الشعب

وكان نابليون يعلم ان نفوس الاهالى فى القاهرة متحفزة للهياج تتربص للانقضاض على السلطة الفرنسية ، وادرك

ان قيام ثورة فى العاصمة أثناء الحملة على سورية يشعل نار الهياج فى سائر انحاء مصر ويؤدى الى قطع خط الرجعة على الجيش الفرنسى ، لذلك اتخذ الاحتياطات الحربية لمنع وقوع اية ثورة ، كما اجتمع بأعضاء الديوان وافهمهم أن الغرض من الحملة على سورية هو محاربة المماليك وفتح طريق التجارة بين البلدين ، وطلب اليهم المحافظة على الهدوء أثناء الحملة ، فتعهدوا له بذلك ، كما أصدروا منشورا نصحوا فيه الاهالى بالاخلاد الى الهدوء والسكينة حتى يعود بونابرت .

وبعد أن تم له ذلك قاد حملة على سورية فى فبراير سنة ١٧٩٩ وتذرع اليها بما وقع من احتلال جنود احمد باشا الجزار والى عكا قلعة « العريش » ، فكان هذا الاحتلال نذيرا بزحف الجيش العثمانى على مصر . لذلك رأى نابليون أن يعجل بحملة على سورية ليفسد هذا الزحف قبل أن تبغته تركيا .

فغرض نابليون من الحملة السورية كان اذن ، تثبيت قدم الاحتلال الفرنسى فى مصر ، وابعاد خطر الحملة العثمانية عليها . واكراه تركيا على الاتفاق معه ، ومنع السفن الانجليزية فى البحر المتوسط من ان تتزود من الثغور السورية ، واتخاذ سورية موقعا حصينا للدفاع عن مركزه فى مصر .

وكانت مطامع نابليون ترمى ، اذا ما نجحت الحملة ، الى مواصلة زحفه على الهند ليضرب فيها بريطانيا عدوة فرنسا اللدود فى ذلك العصر .

سير الحملة ـ فظائع الفرنسيين فى يافا

احتل الجيش الفرنسى « العريش » فى ٢٠ فبراير سنة ١٧٩٩ بعد أن هزم الجيش العثمانى بها ، ثم تابع زحفه حتى وصل الى يافا فحاصرها واستولى عليها فى ٧ مارس بعد معركة شديدة .

وفى مدينة يافا ارتكب الجيش الفرنسى باعتراف المؤرخين الفرنسيين انفسهم أبشع مأساة ستظل أبد الدهر وصمة عار فى جبين فرنسا . فبالاضافة الى أعمال النهب والقتل التى استمرت يومين كاملين ، فان الفرنسيين أعدموا رمياً بالرصاص ثلاثة الاف أسير عثمانى على الرغم مما نصت عليه شروط التسليم من ضمان أرواحهم .

المصريون فى يافا

أما المصريون الذين كانوا فى المدينة فقد أعادهم نابليون الى مصر بعد أن فشل فى حملهم على الانضمام الى الجيش الفرنسى وكان من بينهم السيد عمر مكرم الذى كان قد هاجر اليها بعد معركة الاهرام .

حصار عكا والارتداد عنها

استأنف الفرنسيون زحفهم شمالا فاحتلوا (حيفا) دون مقاومة . ثم وصلوا تجاه « عكا » وهى مدينة محصنة عزم الجنود العثمانيون بقيادة حاكم المدينة احمد باشا الجزار على الدفاع عنها بكل ما لديهم من قوة ، فجعلها نابليون هدفا لهجومه ، اذ كان الاستيلاء عليها يفتح امامه طريق سورية ، ويقضى على نفوذ الجزار فى تلك الجهات . فبدأ يضرب عليها الحصار يوم ١٩ مارس عام ١٧٩٩ لكنه فشل فى التغلب عليها، فارتد عنها ، وكان هذا الارتداد أول هزيمة منى بها جيشه، فأثر فى نفسه تأثيرا كبيرا وخشى عواقبه فى مصر ، فعاد يشدد الحصار ، وظل يهاجم المدينة ويرتد عنها دون جدوى ، فعقد مجلسا حربيا من قواده تقرر فيه رفع الحصار الذى استمر ٦٢ يوما ، والذى انتهى بالفشل والهزيمة وانسحب نابليون بجيشه عائدا الى مصر ، وهكذا عادت الحملة الى حيث بدأت دون أن يجنى منها الفرنسيون سوى الهزيمة والخسران

نتائج الحملة على سورية

محت هزيمة نابليون فى هذه الحملة ما تركته انتصاراته من هيبة فى النفوس ، وتبين للناس أن الجيش الفرنسى الذى تعود الانتصار فى المعارك ، قد تلاشت قوته امام مدينة صغيرة يتولى الدفاع عنها قائد شرقى .

تضعضعت هيبة فرنسا فى نظر المصريين والشرقيين عامة وانبعث فى نفوسهم روح الامل فى القوة الكامنة فى اوطانهم .

وكان لهذا العامل أثره فى تجدد حركات المقاومة الشعبية فى مصر .

تكبد الجيش الفرنسى خسائر فادحة حيث فقد نخبة من جنوده وقواده وضباطه الذين سقطوا بين قتيل وجريح بالاضافة الى عدد كبير منهم ذهب ضحية الامراض الفتاكة .

الحالة فى مصر

من الحملة على سورية الى رحيل نابليون

كان معظم جنود نابليون موزعين فى وقت واحد فى ميدانين كبيرين تكتنفهما المشاق والمتاعب ، فكان نصف الجيش بقيادة نابليون منهمكا فى الحملة على سورية ، حين كان جيش الجنرال ديزيه منصرفا الى اخضاع الوجه القبلى ، وكلاهما كان يواجه المصاعب فى طريقه ، فجيش الحملة على سورية يقاتل جيوشا عديدة ويطاحن قلاعا حصينة ، وجيش ديزيه يواجه ثورات ومعارك متتابعة .

حالة الشعب النفسية

ولا جدال فى ان تغيب نصف الجيش الفرنسى عن مصر كان له اثر كبير فى حالتها الداخلية ، نعم أن اقدام نابليون على غزو الشام هو فى ذاته عمل يدل على القوة والبأس ، ومن شأنه أن يلقى فى نفوس المصريين حذرا وهيبة ، لأن القائد الذى يغامر بجيشه فى مثل هذه الحملة الشاقة ويقطع

تلك المراحل الطويلة ويجتاز الصحارى والقفار لابد ان يكون معتدا بقوته مستصغرا شأن عدوه ، فهذه الظاهرة كان لها اثرها فى الحالة النفسية للشعب ، اضف الى ذلك ان اخماد ثورة القاهرة الأولى وما شهد المصريون من فتك مدافع الفرنسيين ، وما اعقب الثورة من انشاء القلاع المحيطة بالعاصمة لاخماد كل ثورة تقوم فيها ، كل ذلك قد جنح بالشعب وقتا ما الى الهدوء والسكينة ، هذا فضلا عن ان قلاع الاسكندرية ورشيد والرحمانية ودمياط والصالحية وبلبيس كانت معدة لقمع الثورات فى مختلف البلاد .

وكان الاهلون يتوقعون لنابليون الانكسار فى حملته على سورية ، فلاذوا بالسكينة وتربصوا حتى تتحقق تلك الامانى ، ولكن انتصارات نابليون الأولى ملأت القلوب يأسا ، وكان نابليون يفهم نفسية الامة ويعرف انها لا تصفو للفرنسيين ، فاراد ان يؤثر فيها بالمظاهرات والاعلان عن انتصاراته ليشغلها بالامر الواقع ، فلما تم له احتلال قلعة العريش ارسل كتيبة من الجنود الى القاهرة تحمل الاعلام التى غنمها فى تلك القلعة ، وكلف الجنرال دوجا الذى استخلفه فى ادارة الشئون الحربية أن يرفعها على منارات الجامع الازهر كاعلان لانتصار الفرنسيين فى العريش .

ولما تم لنابليون احتلال يافا امر بان ترفع الرايات العثمانية التى غنمها فى يافا على باب الجامع الازهر ليراها الناس

ويتيقنوا صحة الخبر ، وسادت السكينة وقتا فى انحاء مصر .

بوادر الثورة

على ان هذا السكون الذى شمل البلاد كان وقتيا ، فما لبث أن تزعزعت أركانه فى الاقاليم وأخذت بوادر التمرد والانقضاض تظهر من حين الى اخر ، وتنتقل من ناحية الى اخرى ، فالنفوس كانت متحفزة للثورة ، وكانت القوة الحربية هى الركن الركين لتوطيد دعائم السكينة فى البلاد ، فابتعاد أكثر من نصف الجيش الفرنسى عن مصر ، وتغيب نابليون الذى كان له من الهيبة مالم يكن لغيره من قواد الجيش الفرنسى ، كل ذلك من شأنه ان يحدث مع الزمن تغييرا فى حالة الشعب النفسية ويغرى النفوس بالجنوح للثورة وخاصة اذا وقعت حوادث تشعل نار الهياج والاضطراب .

الثورة فى الشرقية

مارس سنة ١٧٩٩

بدا هاتف الثورة يطيف بالنفوس فى اواخر فبراير سنة ١٧٩٩ ، فظهرت بوادرها فى الشرقيــة ، وكانت مظــالم الفرنسيين سببا فى اشتعال جذوتها ، ذلك انهم أخــذوا يفرضون الاتاوات على البلاد ، واخذ جنودهم يخوضون القرى .. لمصادرة الجمال والحمير والماشية ، فثارت نفوس

الاهالى ووقعت حوادث ومصادمات فى جهات عدة وخاصة فى بردين والعصلوجى والفار والزنكلون (بمركز الزقازيق) كادت تفضى الى ثورة عامة .

ثورة أمير الحج

استمرت الاضطرابات بالشرقية الى أن ظهرت بها ثورة امير الحج ، وبيان ذلك أن نابليون كما سلف القول عين فى أوائل عهد الحملة الفرنسية مصطفى بك نائب الوالى التركى القديم اميرا للحج وقربه اليه ، وبالغ فى الحفاوة به ليكسب نفوذه الادبى وينتفع بتأثيره فى الجماهير ، وقد طلب منه قبل ارتحاله عن القاهرة أن يصحبه فى الحملة على سورية كما طلب ذلك من القاضى التركى واربعة من أعضاء الديوان وهم الفيومى ، والصاوى ، والعريشى ، والدواخلى ، فأذعنوا له ، وسار مصطفى بك بصحبة القاضى وأعضاء الديوان ليلحقوا بالجيش فبلغوا بلبيس ، وهناك تخلفوا عن السير ، لان الفرنسيين احتاجوا الى جمالهم واخذوها ، فأقام المشايخ ومصطفى بك بالقرين (بمركز فاقوس) عدة أيام بحجة الزاد والمؤونة فأرسل نابليون الى مصطفى بك من (قطية) من يستحثه على اللحاق به ، فبعث اليه يعتذر بأن جماله فقدت وأن الطريق مخوفة لا أمن فيها ، ولم يلبث أن اعلن تمرده وانتقاضه على السلطة الفرنسية ، وكاشف زملاءه أعضاء الديوان والقاضى التركى بعزمه على شق العصا واعلان الخروج على الفرنسيين ، وطلب منهم أن يؤيدوه فى دعوته ،

لكنهم خافوا العاقبة وحسبوا حسابا لانتقام الفرنسيين منهم كما انتقموا من زعماء ثورة القاهرة ، فلم يوافقوه على دعوته ، وشذ منهم الشيخ سليمان الفيومى فانه اقر امير الحج على رايه ، وكذلك القاضى التركى ، ولما راى امير الحج ان ثلاثة من أعضاء الديوان انكروا عليه دعوته تظاهر بالتسليم وفى الوقت نفسه اخذ يعد العدة لنشر الدعوة الى الثورة فى انحاء البلاد ، فبدلا من ان يتابع سيره الى (قطيـة) حيث كان ينتظره نابليون عاد الى داخلية البلاد فسار من القرين الى كفور نجم (بمركز كفر صقر) يصحبه القاضى التركى والشيخ الفيومى ، واما اعضاء الديوان الثلاثة الدواخلى والصاوى والعريشى ، فقد انفصلوا عنه وذهبوا الى القـرين (بمركز الزقازيق) ورجع الشيخ محمد الدواخلى الى القاهرة مريضا ».

بدات فكرة الثورة فى الشرقية ، وانتقلت الى الدقهلية من بلد الى بلد ، وانضمت الجموع من الاهالى الى امير الحج فسار من كفور نجم ومعه الالاف الحاشدة من الناس ، ومضى قاصدا الى فاقوس وميت غمر ، وكان عدد رجاله يـزداد بمن ينضم اليهم فى الطريق من المتطوعين ، فوصل يوم ٢٥ مارس سنة ١٧٩٩ تجاه ميت غمر ، وكانت فكرة الثـورة قد اختمرت فى الأذهان ، ولم يكن الا ان تسنح لها الفرصة فتظهر بشكل فعلى ،وقد سنحت الفرصة بمرور بعض المراكب الفرنسية فى النيل تحرسها سفينة حربية ، كانت هـذه المراكب قادمة من القاهرة تحمل الذخائر والاقوات والمدافع لامداد الجيش الفرنسى فى سوريا بطريق دميـاط ، فهجم

اهالى ميت غمر والبلاد المجاورة على المراكب واستولوا عليها وقتلوا من فيها من الفرنسيين ، واخذوا ما بها من الذخائر والمدافع ، وارتدت السفينة الحربية التى كانت تحرسها الى القاهرة بعد أن عجزت عن رد الثائرين ، وجرح قبطانها وعدة من رجالها جروحا بليغة .

فعاجل الفرنسيون هذه الثورة بالقمع وعزلوا امير الحج من منصبه ، وجردوا عليه حملة اخذت تتعقبه فى مختلف البلاد ، فلما آنس ان لا قبل له بمقاومتهم زاغ من طريقهم واخذ يفر من بلد الى آخر حتى افضى الى الجهات الصحراوية بالشرقية ، فلم يستطيع الفرنسيون القبض عليه ،لكن لم يلبث انصاره ان تشتتوا واخمدت السلطة الفرنسية ثورتهم .

على أن الثورة قد تجددت فى أواخر شهر مايو سنة ١٧٩٩ فى القليوبية ومنطقة ميت غمر والبلاد المجاورة لها ، فاحتشد بها عدد كبير من الثوار وانضم اليهم جماعة من المماليك وهجموا يوم ٣٠ مايو على سفينة حربية فرنسية قادمة بالنيل من سمنود ، فاستولوا عليها وغنموا أربعة مدافع كانت بها وقتلوا نوتيتها وخمسة من جنودها وجرحوا منهم اثنين .

معركة كفور نجم

٥ يونية سنة ١٧٩٩

تعطلت الملاحة فى النيل تجاه ميت غمر ، فسارت كتيبة من الجند من منوف الى ميت غمر لاخماد الثورة ، فانسحب

الثوار منها قاصدين الى كفور نجم ، فتعقبتهم الكتيبة ودارت معركة شديدة يوم ٥ يونية سنة ١٧٩٩ بين الفريقين بالقرب من كفور نجم على شاطىء بحر مويس انتهت بهزيمة الثوار وخسروا عددا من القتلى قدرهم قائد الكتيبة بمائة وثلاثين قتيلا .

ولما عاد نابليون من الحملة على سورية امر باقامة قلعة فى ميت غمر واخرى فى المنصورة لحماية الملاحة فى النيل وقمع الثورات فى جهات البلدين ، واقيمت التحصينات فعلا فى المدينتين لحماية الملاحة وقمع الثورات .

اخذ قائد الكتيبة يتنقل لاخماد الثورة ، ولما وصل الى ميت غمر اراد ان يقتص منها انتقاما لما حل بالفرنسيين والسفن الحربية تجاهها ، فأمر باحراقها وتدميرها « حتى لم يبق فيها حجر على حجر » كما يقول ريبو ، ثم سار فى البلاد لقمع الهياج وارهاب الاهالى ، على انه لم يلبث ان علم بأن الثورة انتقلت الى غرب الدلتا فى مديرية البحيرة فاضطر ان يسوق جنوده اليها تاركا بالشرقية جزءا منها .

الثورة فى غرب الدلتا

كانت الأقاليم الواقعة غرب الدلتا (الاسكندرية ورشيد والبحيرة) مسرحا للقلاقل والثورات ، فاستهدفت سلطة الفرنسيين فيها للهجمات الخارجية والاضطرابات الداخلية .

واشتد الهياج في منطقة رشيد وما حولها من شهر مارس سنة ١٧٩٨ ، ذلك أن قومندان الاسكندرية (الجنرال مارمون) فرض سلفة اجبارية على مديرية رشيد موزعة على بلادها وقراها وكفورها ، فدفعت مدينة رشيد قسطها في السلفة ، ودفعت (فوة) ثلثي المفروض عليها ، وامتنعت باقي البلاد عن الدفع ، فجرد الفرنسيون عليها حملة عسكرية مسلحة بالمدافع لاجبارها على دفع ما خصها في الاتاوة ، وعمت الثورة جهات (برنبال) و (مطوبس) وكفر (شباس عمير) و (القنى) و (السعدة) (كانت تابعة لمديرية رشيد في ذلك الوقت) وغيرها ، فسارت الحملة من رشيد واخذت تجوب بلاد هذه المديرية لاخماد الاضطرابات وتحصيل الأتاوات ، وكانت (شباس عمير) معقلا للثورة وملجأ للثوار من القرى المجاورة ، وموقعها على جانب من المناعة وخاصة بعد ان رمم اهلها السور المحيط بها واصلحوا الأبراج التي تتخلله ، فلم تستطع الحملة ان تستولى عليها وطلبت المدد من رشيد ، فأنجدها الكولونل جوليان بفصيلة من الجنود وعادت القوة الى قتالها وضربتها بالمدافع ، فهدمت البلدة من آخرها وجلا اهلها عنها ، وانتقلت القوات الفرنسية الى بلدة (السعدة) فضربتها بالمدافع وتخرب جزء منها واخلاها اهلها ونجوا بمتاعهم ومواشيهم ، وكذلك أخلى اهل برنبال بلدتهم واقفرت من السكان .

الثورة فى البحيرة

فى اواخر شهر ابريل سنة ١٧٩٩ شبت فى البحيرة ثورة اوسع مدى واعظم خطورة من ثورة الشرقية ، ذلك انه ظهر فيها رجل ادعى المهدية ودعا الناس الى قتال الفرنسيين ، فاقبلوا عليه افواجا وضم اليه رجال القبائل من أولاد على والهنادى وغيرهم ، وانحاز اليه سكان القرى التى مر بها ، فسار بهذه الجموع المسلحة حتى وصل الى دمنهور ليلة ٢٤ـ ٢٥ ابريل وكان بها حامية من الجنود الفرنسيين ، فامر المهدى رجاله بالهجوم على هذه الحامية فهجموا عليها وقتلوا رجالها جميعا .

وكان لانتصار المهدى تأثير كبير فى مديرية البحيرة ، فهرع اليه الناس من كل صوب وزاد عدد اتباعه ، وقوى اعتقاد الناس فى قوته وخوارقه ، وسار برجاله قاصدا الى النيل ليعبره الى مديرية الغربية .

وكان بالبحيرة فى ذلك الحين كتيبة طوافة من الجنود تطوف بالبلاد لجباية الأموال ، فوصلت الى دمنهور بعد قتل الحامية الفرنسية ورحيل المهدى ، ورأت من المخاطرة أن تتعقبه ، فأسرعت الى الرحمانية واحتمت بالحصن الذى أقامه الفرنسيون فى نقطة تفرع ترعة الاسكندرية (المحمودية الآن) من النيل ، وانتظرت وصول المدد لتهاجم المهدى ، ولما علم الجنرال (مارمون) قومندان الاسكندرية بنبأ الكارثة التى حلت بالحامية الفرنسية بدمنهور أنفذ قوة من الجنود

مزودة بالمدافع لتتعقب جيش المهدى وتتصل بكتيبة الجنود الفرنسية بالرحمانية .

سارت القوة من الاسكندرية يوم ٢٧ ابريل ، والتقت برجال المهدى غير بعيد عن دمنهور قبل ان تصل الى الرحمانية، ودار قتال شديد بين الفريقين دام خمس ساعات انتهى بانسحاب الفرنسيين الى الاسكندرية .

معركة سنهور

(٣ مايو سنة ١٧٩٩)

ولما وصل المدد الى الرحمانية وانضم الى الجنود الذين بها ، سارت القوات الفرنسية مجتمعة فالتقت برجال المهدى يوم ٣ مايو بسنهور البحيرة على مقربة من دمنهور ، ودارت معركة من أشد المعارك هولا ، قال ريبو احد مؤرخى الحملة الفرنسية فى وصفها ان عدد رجال المهدى كانوا خمسة عشر الف مقاتل من المشاة واربعة آلاف من الفرسان ، وان القتال استمر سبع ساعات كان فيها اشبه بمجزرة فظيعة ، وهذه الواقعة من أشد الوقائع التى واجهها الفرنسيون فى القطر المصرى ، اظهر فيها اتباع المهدى من الفلاحين والعرب شجاعة كبيرة واستخفافا بالموت لا نظير له ، وبذل قائد الكتيبة الفرنسية اقصى ما انتجه العلم والفن فى القتال ، فجعل جيشه على شكل مربع على الطريقة التى ابتكرها نابليون ، وهجم على الجموع المقاتلة عشرين مرة ، فكان يحصد

صفوفهم حصدا بنيران البنادق والمدافع ، وكان اتباع المهدى قد غنموا فى دمنهور مدفعا فرنسيا فاستخدموه فى المعركة وركبوه على مركبة تجرها الثيران واخذوا يطلقون منه النار على الفرنسيين ، واستمر القتال حتى جن الليل ، وكان الجنود الفرنسيون قد خارت قواهم من القتال ، ففكر قائد الكتيبة فى الانسحاب من الميدان والاتجاه الى الرحمانية ، ولكن جموع المهدى لكثرة عددها كانت تسد الطريق أمامه ، فامر رجاله أن يضموا صفوفهم ويخترقوا الجموع التى طوقتهم ، وركب المدافع على رؤوس المربع لاقتحام هذه الجموع ، وانسحبوا من ميدان القتال بعد أن فدحتهم الخسائر ، ويقول « ريبو » ان الفرنسيين خسروا فى هذه المعركة ستين قتيلا بينما يقدر خسائر المصريين بألفى قتيل ، وبالرغم من هذه الخسارة فان المعركة انتهت بفوز المهدى وارتداد الفرنسيين الى الرحمانية .

وقد أغراه هذا الفوز الجديد بمواصلة القتال وضم اليه انصارا واتباعا آخرين سدوا الفراغ الذى احدثته معركة دمنهور ، فسار بجموعه قاصدا الرحمانية ، لكنه اضطر للارتداد عنها أمام مناعة موقع الفرنسيين فيها وعاد الى دمنهور التى اتخذها معسكره العام .

احتلال الفرنسيين دمنهور

وتكاثرت القوات الفرنسية وسارت مجتمعة صوب دمنهور فهزمت رجال المهدى ودخلت دمنهور غازية ، فأعملت فيها

السيف والنار ، ودمرها الجنود تدميرا وحشيا وابادوا من وجدوه فيها من السكان الآمنين .

قال ريبو يصف هذه الفظائع : « بعد أن احتل الجنود دمنهور قتلوا من صادفوه من رجال المهدى جميعا ، ولما كان أهل دمنهور هم أول من اتبع المهدى من سكان البحيرة فقد أراد الفرنسيون ان يطبعوا هذه المدينة بطابع الغضب والانتقام ، فاحرقوا مساكنهم بالنار ، وقتلوا كل من وجدوه من الشيوخ والنساء والاطفال بحد السيف ، وفى اليوم التالى كانت دمنهور ركاما من الاحجار السوداء اختلطت بها اشلاء الجثث ودماء القتلى » .

الموقف السياسي وتجدد القتال

شمل السكون الظاهر انحاء القطر المصرى فى منتصف شهر يونية عام ١٧٩٩ ، وكانت الظواهر تدل على هدوء الحالة واستقرارها ، فقد اخمدت الثورات فى الوجه البحرى ، وانتهت المعارك العنيفة فى الوجه القبلى ، وتوطدت السكينة فى القاهرة ، لكن هذه الظواهر كانت تشبه السكون الذى يسبق العواصف ، فقد كانت الأفكار فى غليان ، ونفسية الشعب متحفزة للهياج ، واللغط يزداد ويكثر ، والاشاعات عن اكفهرار الجو يتناقلها الناس فى اندية القاهرة وشوارعها وقهواتها ، ومن هناك تستطير الى القرى والأرياف مكبرة مجسمة ، وكان نابليون يرقب هذه الحالة وهو عالم بأن هذا السكون الظاهر الذى شمل البلاد لم يكن الا غشاء لا تلبث

الحوادث أن تمزقه ، فهو يعلم أن انجلترا وتركيا تعـدان المعدات لتجريد حملة كبيرة لاخراج الفرنسيين من مصر ، ويعلم أن سكون الشعب وتربصه لم يكن الا اذعانا لحكم القوة المسلحة ، فاذا وهنت هذه القوة انفجرت الثورات وتجددت الاضطرابات كدابها واشد ، وكانت الأنباء ترد من كل مصدر بحشد الجنود التركية فى رودس والثغور العثمانية لتبحر الى سواحل مصر ، وفى الوقت نفسه كانت قوات تركيـة اخرى تتهيأ للزحف على مصر من طريق برزخ السويس بقيادة الصدر الأعظم (رئيس وزراء تركيا) يوسف ضـيا ، وكان نابليون يلحظ تحفزا من الاهلين للانقضاض ، وعلم ان دعاة الثورة يخوضون القرى والبلاد يستنفرون الناس للهياج ،

فاخذ يستعد لملاقاة الحملة العثمانية المنتظرة .

نزول الجنود العثمانية فى (ابو قير)

لم تكن استعدادات نابليون لملاقاة الحملة العثمانية على غير جدوى ، فقد اقبلت العمارة التركية تجاه الاسكندرية يوم ١١ يوليـة سنة ١٧٩٩ متجهة شمالا بشرق قاصـدة شواطىء (ابو قير) لانزال الجيش العثمانى الذى انفذته تركيا بقيـادة مصطفى باشـا سر عسكر الروملى لمحـاربة الفرنسيين ، ثم وصلت الى خليج (ابو قير) فى اليوم التالى .

نزل الجنود العثمانية الى شاطىء (ابو قير) يـوم ١٤ يولية ، وكان عددهم فى أول يوم عشرة آلاف مقاتل ، فحاصروا قلعة ابو قير وكانت الحامية الفرنسية ممتنعة فيها .

وكان موقع القلعة فى ذاته منيعا لأنها قائمة على صخرة صعبة المنال فى رأس شبه جزيرة (ابو قير) تحميها من الداخل استحكامات فى مدخل شبه الجزيرة .

احتلال الاتراك قلعة (ابو قير)

بدأ حصار (ابو قير) يوم ١٥ يوليـة ، وكان هجـوم العثمانيين شديدا فاحتلوا الاستحكامات وقتلوا الفرنسيين الذين دافعوا عنها ، ثم احتلوا القرية ، ولم يبق امامهم سوى القلعة ، فآثر قائدها الفرنسى التسليم هو وجنوده ، فأسرهم العثمانيون واحتل الأتراك القلعة يوم ١٧ يولية سنة ١٧٩٩ م

معركة ابو قير البرية وهزيمة الجيش التركى

٢٥ يولية سنة ١٧٩٩

علم نابليون بهذه الحوادث ، فادرك خطورة الموقف ، ولكنه كعادته لم تبد عليه علائم الاضطراب ، وبادر الى وضع خطة سريعة محكمة التدبير لمواجهة الحملة العثمانية .

وكان من مواهب نابليون التى اكسبته النصر فى ميادين القتال السرعة فى وضع خططه الحربية ومفاجاة خصومه قبل ان يدع لهم الوقت الكافى لمباغتته ، بهذه الميزة ، قابل الحملة التركية عند نزولها بأبو قير ، لقد هاله احتلال الاتراك القلعة لأنه كان يقدر انها تستطيع المقاومة مدة طويلة لمناعة موقعها وما بها من المدافع ومعدات الدفاع، وحسب انها تعطل الجيش العثمانى وتمتنع عليه طويلا ، ولم يخطر له قط ان تسقط

في يد الاتراك بهذه السرعة ، على انه مع ذلك لم يضطرب ولم يضيع الوقت ولم يتردد في وضع خطته الحاسمة ، ففي ليلة واحدة رسم خطته وأصدر تعليماته وأرسل رسائله الى قواده ليلتقوا به قبيل المعركة .

تقى نابليون يوم ٢٤ يولية بالاسكندرية ، وفي مساء هذا اليوم انتقل منها هو وأركان حربه وقوة الفرسان ، واتخذ معسكره على مسافة سبعة كيلومترات غرب (أبو قير) وقضى الليل يرتب مواقع جنوده استعدادا لخوض المعركة في صباح اليوم التالى .

نشبت المعركة صبيحة يوم ٢٥ يولية ، فهجم الفرسان من القلب ، واندفعت بقية الفرق من الميسرة ومن الميمنة ، وكان هجوم الفرسان شديدا في بدء المعركة ، فاحدث ثغرة في صفوف الجيش العثمانى ، واشتد القتال واستبسل الفريقان ، وهجم الجيش الفرنسى غير مرة على مواقع الجيش العثمانى ، فأصلاهم العثمانيون نارا حامية من مدافعهم المركبة في مواقعهم المنيعة ، ولكن الفرنسيين تفوقوا بتدبير قيادتهم وحسن نظامهم واحكام هجومهم وكثرة عددهم ولاسيما الفرسان ، فتمكنوا من سحق خطى الدفاع اللذين أقامهما الجيش العثمانى ، وفتكوا بالجنود الذين كانوا يرابطون عليهما ، وبذلك بدأت هزيمة الأتراك ، فالتجأ مصطفى باشا الى قوية (أبو قير) ليستند الى القلعة ، ولكن الفرسان حالوا بين القرية والقلعة ، فحصر مصطفى باشا وجنوده في

البرية أبو قير » واقتحم الفرنسيون معسكر مصطفى باشا فاخلوه فى خيمته ووقع هو ورجالـــه فى اسر الجيش الفرنسى ».

كانت هزيمة العثمانيين فى هذه الموقعة اشبه بكارثة ، فقد فقدوا من القتلى والغرقى والجرحى نحو ثمانية آلاف وبلغ عدد الأسرى نحو ثلاثة آلاف وغنم الفرنسيون مـــدافع الجيش العثمانى وذخائره ، وفقد الفرنسيون ٢٥٠ قتيلا وجرح منهم سبعمائة وخمسون ».

حصار القلعة واستسلامها

انتهت معركة ابو قير بهزيمة الجيش العثمانى ، على أن القلعة ظلت تقاوم هجمات الفرنسيين ، وامتنع بهــا نحــو ثلاثة آلاف من الجنود العثمانية بقيادة ابن مصطفى باشــا الذى ابى أن يسلم كما فعل أبوه ، فعهد نابليون الى الجنرال لان Lamma فى حصار القلعة ثم جرح « لان » فى معـــارك الحصار فعين مكانه الجنرال منو وعاونه الجنرال دافو ، واستمر الحصار قائما والحرب مستعرة الى ان نفدت ذخائر العثمانيين فاحتل الفرنسيون القلعة يوم ٢ اغسطس ١٧٩٩ ».

وتعد واقعة ابو قير البرية فوزا كبيرا لنابليون ، لأنهـا بمثابة غزو جديد لمصر ، كما كانت واقعة الأهرام من قبل ، وقد ابتهج لها الفرنسيون ابتهاجا عظيما وطربوا لاخبارهـا واقاموا الحفلات والزينات فى القاهرة ثلاثة ايام متواليات .

وكانت الظواهر تدلّ على أن سلطة الفرنسيين قد رسخت.

اضطرابالاحوال فى فرنسا ، ورحيل نابليون

لكن الظواهر ما لبثت أن تبددت ، وبدأ الجو يكفهر ، والسماء تتلبد بالغيوم ، والأنباء ترد من كل صوب باضطراب الاحوال وتجدد الأحداث .

أن نابليون قد فاز بسحق الجيش العثمانى فى معركة أبو قير ، لكن تركيا كما سلف القول كانت تحشد جيشا آخر فى سورية بقيادة الصدر الأعظم يوسف ضيا ، وجاءت الانباء بأن هذا الجيش قد تم استعداده وان الصدر الاعظم قادم بعدد عظيم من المقاتلة لغزو مصر من طريق برزخ السويس ، فلم يكن انتصار الفرنسيين فى معركة ابو قير سوى هدنة وقتية سنحت للجيش الفرنسى ليستريح من عناء القتال وأهواله ، فأخذ نابليون يستعد لصد حملة العثمانيين القادمة .

وثم شواغل اخرى اقلقت باله واقضت مضجعه ، ذلك ان الجيش الفرنسى كان ينتظر من يوم لآخر أن تضع الحرب اوزارها أو يصله المدد من فرنسا ، وكانت هذه الفكرة تبعث الصبر والأمل فى نفوس الجنود ، وما فتىء نابليون يحيى هذا الأمل فى نفوسهم حتى لا يدع للكلال واليأس سبيلا الى قلوبهم .

ولكن هذا الأمل مالبث ان تبدد اذ علم نابليون ان فرنسا اقد تحرج مركزها وتضعضعت هيبتها في البلاد التي فتحتها من قبل ، فشبت الثورة في البيمونت ، وفقدت املاكها في المانيا وايطاليا ، واشتد السخط في فرنسا على حكومة الدير كتوار (الحكومة الفرنسية) والقى الشعب على عاتقها تبعة هذه الهزائم المتوالية ، واخذت انجلترا تشن الغارة في البحار على أملاك فرنسا وتمد حلفاءها بالعون والمساعدة ، فكانت فرنسا مهددة من الخارج والداخل ، كان الحلفاء يتوعدونها من الخارج ، والاضطراب الداخلي يهدد كيانها من الداخل ، تلك هي الحالة التي وقف نابليون على حقيقتها عقب انتصاره في معركة ابو قير ، فاستقر عزمه على وجوب الرحيل الى فرنسا لانقاذها من الأخطار التي تهددها .

على أنه كتم عزمه حتى عن اقرب الناس اليه ، واخذ يعد معدات رحيله سرا ويصدر تعليماته ويرتب النظام الذي يتبع في غيابه دون أن يعلم به أحد ممن صدرت اليهم أوامره بعزمه الذي اسره في نفسه ، واستخلف الجنرال كليبر في قيادة الجيش الفرنسي .

اقلاع السفن

كانت السفن المعدة لسفر نابليون ورفاقه على اهبة الاقلاع من الاسكندرية ففي ٢٢ اغسطس سنة ١٧٩٩ في منتصف

الساعة العاشرة ليلا ركب نابليون السفينة وكانت راسية بالقرب من برج السلسلة بطرف الميناء الشرقية ، وابحرت صحبة سفن ثلاث اخرى قاصدة شواطىء فرنسا »

وظلت السفن تمخر عباب البحر الابيض المتوسط والمخاوف تكتنفها مدة ثمانية واربعين يوما ، الى ان رست فى خليج فريجوس (Frsjus) جنوب فرنسا يوم ٩ اكتوبر سنة ١٧٩٩ ، فنزل الى البر القائد الذى كانت تنتظره فرنسا لتسلم اليه مقاليدها .

الفصل الرابع عشر

قيـــادة الجنرال كليبر

اقترنت ايام كليبر الأولى باستتباب الهدوء فى القاهـــرة والأقاليم ، ولعل اهم سبب لذلك ان انتصار الفرنسيين على الجيش العثمانى فى معركة ابو قير كان لا يزال ماثلا امـــام الأذهان كبرهان على مبلغ قوة الجيش الفرنسى ، وتواردت الأنباء من قواد الجنود الفرنسية فى الأقاليم بأن الحالـــة مستقرة .

على أن هذه المقدمات وهاتيك الظـواهر لم تكن لتصرف الجنرال كليبر عن تبين حقيقة الموقف الحربى فى مصر ، ذلك الموقف الذى يجعل بقاء الاحتلال الفرنسى فى وادى النيل امرا مستحيلا ، فالحملة الفرنسية كانت محصـورة من طريق البحر ولا منفذ لها الى فرنسا او اى بلد تســـتند اليه فى

وتأييد سلطتها ، هذا فضلا عن ان القوات الفرنسية مرابطة وسط امة معادية لها ، فكانت من هذه الوجهة مقضيا عليها بالفشل عاجلا او آجلا ، لان الجنود الفرنسية كانت موزعة في مثلث كبير يمتد طرفا قاعدته بين الاسكندرية والعريش ويقع راسه في اسوان ، فهذا المثلث الفسيح المتباعد الأطراف كان مطلوبا من الجيش الفرنسي أن يوطد فيه سلطة فرنسا في وجه شعب لم يدع فرصة تمر الا قاوم فيها الاحتلال الفرنسي بكل الوسائل ، ووجد اخيرا المعاونة من دولتين متحالفتين ضد فرنسا ، وهما تركيا وانجلترا ».

ولا يغيبن عنك أن الجيش الفرنسي لم يكن يومئذ في قوته الأولى ، لأن المعارك والأمراض والحملات المتعاقبة قد أنهكت قواه ونقصت عدد رجاله وأفرغت من صفوفه .

قدر احد قواد الحملة الفرنسية عدد جنودها في شهر سبتمبر سنة ١٧٩٨ بثلاثة وثلاثين الف مقاتل ، وقدر عددهم في اول عهد قيادة كليبر بـ ٢٢٠٠٠ مقاتل ، فيؤخذ من هذه المقابلة ان عدد الجنود نقص بمقدار الثلث ، وفقد الجيش الفرنسي في المعارك والثورات نخبة من خيرة قواده ، ومعظم ضباط فرقة المهندسين ، واصطحب نابليون معه نخبة أخرى من القواد ، وسرى الملل والياس الى نفوس الجنود والقواد الباقين في مصر ، لاستحالة ورود المدد والذخائر من فرنسا ، فأثرت هذه الحالة في نفوسهم تاثيرا كبيرا

وتضعضعوا لها ، فضعفت حالتهم المعنوية ، ثم زادت الحالة تفاقما لافتقار الجيش الى كثير من حاجياته وضروراته .

وساءت الحالة المالية والاقتصـــادية عما كانت عليه قبل الحملة الفرنسية .

ولا جدال أن اشتداد الضيق بالشعب وشعور الناس بأن حالتهم الاقتصادية قد ازدادت سوءا في عهد الفرنسيين كانت من البواعث التي أججت نار السخط على الاحتلال .

قال الجنرال كليبر يصف هذه الحالة في عهد قيادته :

« ان مصر بالرغم من السكون الظاهرى الذى شملها لاتعتبر الا مذعنة لحكم القوة ، والشعب المصرى موزع الفكر ، قلق على مصيره ، ولا يرى فينا مهما فعلنا الا أعداء ملكه وماله ، وقلبه متجه دائما الى الأمل في حدوث الانقـــلاب الذى يتوقعه » .

مساعى كليبر فى عقد الصلح

بعد أن درس الجنرال كليبر حالة مصر ونفسية الشـــعب وأمعن النظر في موقف الجيش الفرنسى فيها وعرف اجمالا الحالة العامة في أوروبا وفي فرنسا اقتنع بأن لا فائدة ترجى من الاحتلال الفرنسي في مصر ، وأن هذا الاحتلال مهما بقى فمصيره الى الفشل ، لذلك أخذ يعمل الفكرة في انهاء هذا الاحتلال بطريقة تنقذ شرفه العسكرى ، لذلك فكر في فتح

طلب المفاوضات مع تركيا لعقد صلح على قاعدة الجلاء عن مصر .

وكانت حجته فى الدخول فى مفاوضات الصلح أن نابليون فاتح الصدر الأعظم فى هذا الصدد برسالة بعث بها اليه قبل رحيله الى فرنسا ، وفوض الى كليبر اتمام هذه المفاوضة ، وخوله عقد الصلح مع تركيا ولو كانت قاعدته الجلاء عن مصر

فبعث كليبر الى الصدر الأعظم برسالة يعرض فيها عقد الصلح بين الدولتين ويطلب منه ايفاد مندوب للمفاوضة فى قواعد الصلح .

والظاهر أن هذه الرسالة والرسالة التى تقدمتها من نابليون القتا فى روع تركيا أن مركز فرنسا أصبح من الحرج والضعف بحيث اضطرت الى طلب الصلح ، فتلكأت فى الرد واستمرت فى تعبئة جيوشها للزحف على مصر .

تجدد القتال وهزيمة الاتراك فى عزبة البرج
اول نوفمبر سنة ١٧٩٩

استمرت تركيا تعبىء جيوشها للحملة على مصر برا وبحرا وأعدت حملتها البحرية قبل أن تتم حشد جيشها فى سورية ، وبدأت تهاجم مصر من شواطئها الشمالية قبل أن يزحف جيشها من طريق برزخ السويس ، وهكذا وقعت فى الخطأ الذى وقعت فيه من قبل بانزال جيشها الى شواطىء

« ابو قير » قبل ان يزحف جيشها الآخر من طريق البر ؟ وكانت نتيجة ذلك الخطا هزيمة الجيش العثماني في معركة ابو قير .

اقبلت العمارة العثمانية تجاه شواطىء دمياط في اواخر شهر اكتوبر سنة ١٧٩٩ وكانت مؤلفة من ثلاث وخمسين سفينة تقل سبعة الآف من خيرة الجنود الانكشارية تصحبها بارجة انجليزية وعليها الكومودور السير سدني سميث قائد الاسطول البريطاني .

نزل الجنود العثمانيون الى شاطىء البحر بالقرب من بوغاز دمياط ، فاحتلوا برج البوغاز الذى كان يحمى مصب النيل بالبر الشرقي ، وكانت الجنود الفرنسية معسكرة بين (عزبة البرج) وشاطىء البحر ، فساروا يوم اول نوفمبر سنة ١٧٩٩ لملاقاة الجنود العثمانية الذين رابطوا على شاطىء البحر بين بوغاز دمياط وبحيرة المنزلة ، ونشبت بين الفريقين معركة انتصر فيها الفرنسيون انتصارا كبيرا — ويقول الفرنسيون انه قتل في هذه المعركة زهاء ثلاثة الآف من الاتراك واسر منهم ثمانمائة ، وعلم كليبر وهو في القاهرة بنبأ نزول العثمانيين الى الشاطىء والهزيمة التى حلت بهم فشدد هذا الانتصار عزائم الفرنسيين واعاد اليهم الاطمئنان على مصيرهم .

معاهدة العريش

٢٤ يناير سنة ١٨٠٠

بالرغم من انتصار الفرنسيين على الجنود التركية فى عزبة البرج فان كليبر كان مقتنعا بضرورة الصلح وبانهاء حالة الحرب التى كانت تركيا تعد المعدات لاستئنافها ، فعاد يطلب المفاوضة معها لعقد الصلح .

وانتهت المفاوضة بعقد معاهدة الصلح التى عرفت فى التاريخ باسم (معاهدة العريش) يوم ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠

وهى تقضى بجلاء الجنود الفرنسية عن مصر باسلحتهم وامتعتهم واثقالهم ، واقلاعهم بحرا من ثغور الاسكندرية ورشيد وابو قير على السفن الفرنسية والسفن التى تعدها الحكومة العثمانية ، ولهذا الغرض ترسل الحكومة العثمانية الى الاسكندرية بعد شهرين من التصديق على المعاهدة قوميستيرا ومعه خمسون شخصا لاعداد السفن التى تقل الجنود ، ويتم الجلاء فى مدى ثلاثة اشهر تكون بمثابة هدنة لتنفيذ شروط المعاهدة ، وفى حالة عدم ورود السفن التركية لنقل الجنود فى خلال هذه المدة تمد الهدنة الى ان يتم رحيلهم ،وتعهد الطرفان بالمحافظة على سلامة الجنود والاهالى اثناء الجلاء ، ويتم نقل الجنود فى السفن بحسب النظام الذى يوضع بمعرفة مندوبين تعينهما تركيا والجنرال كليبر ، واذا وقع خلاف بين المندوبين فى حالة نقل الجنود يعين

السير سدنى سميث قائد الأسطول البريطانى مندوبا من قبله لحسم الخلاف طبقا للوائح البحرية البريطانية .

نظرة فى معاهدة العريش

ان معاهدة العريش تتحصل فى كلمة وجيزة ، وهى جلاء الفرنسيين عن مصر بلا قيد ولا شرط ، وهى اول وثيقة من الوثائق الدولية الحديثة اعترفت فيها الدولة المحتلة لمصر فى أواخر القرن الثامن عشر بفشل احتلالها وتعهدت بجلائها عن البلاد ، فهى بهذا الاعتبار خطوة فى سبيل تكوين مصر المستقلة ، لأن تركيا وان كانت قد تولت عقد هذه المعاهدة على انها صاحبة الولاية على مصر وقتئذ ، الا انها فى الواقع لم تستطع أن تسترجع حكمها القديم على ضفاف وادى النيل أو تضع يدها على البلاد ، وبذلك خلصت البلاد لأهلها، فمعاهدة العريش هى الوثيقة الرسمية التى تعهدت فيها فرنسا بالجلاء عن مصر ، فهى اذن من اهم الوثائق الرسمية فى تاريخ مصر الحديث .

نقض المعاهدة ومعركة عين شمس

٢٠ مارس سنة ١٨٠٠

انهمك الفرنسيون فى اعداد معدات الجلاء ، ولكن الحكومة الانجليزية تسببت فى نقض معاهدة العريش وعودة الحرب والقتال ، ذلك انها لم تقبل أن يبحر الجنود الفرنسيون بأسلحتهم الى بلادهم ، واصرت على ان يسلموا اسلحتهم

ويسلموا انفسهم كأسرى حرب ، والا يسمح لهم بالذهاب الى فرنسا ، وارسل قائد الأسطول البريطانى انذارا بهذا المعنى الى الجنرال كليبر .

كان هذا الانذار نقضا صارخا لمعاهدة العريش ، فهو بمثابة اعلان لحرب جديدة عقيمة ، لأن جلاء الجنود الفرنسية عن مصر كان أمرا مقضيا ، وكان الفرنسيون جادين فى تنفيذ المعاهدة ، ومصر لم يكن يهمها الا الجلاء ، لكن الحكومة الانجليزية كانت تريد اذلال فرنسا بسبب العداء الذى كان قائما بين الدولتين ، ولم تقبل أن يعود الجيش الفرنسى الى بلاده كى لا يشترك فى الحروب الاوروبية بين فرنسا من جانب وانجلترا وحلفائها من جانب آخر ، وهكذا نفخت نار القتال فى مصر بغير جدوى بعد أن خمدت جذوتها واستعد الفرنسيون للجلاء ، ولقى الشعب المصرى فى ميدان الحرب الجديدة من الويلات والكوارث ما كان عنه بمنجاة ، ففى خلال هذه الحرب ثارت مدينة القاهرة ثورتها الثانية ، فسفكت فيها الدماء واحرقت المدينة وتهدمت الدور وضاعت الارواح وتفاقمت الخطوب ، كل ذلك لأن السياسة الانجليزية ابت أن تنفذ معاهدة اشتركت فى وضعها ولو انها لم توقعها .

دارت معركة شديدة بين الجيش الفرنسى والجيش التركى يوم ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ عرفت بمعركة عين شمس وانتهت بفوز الفرنسيين واستيلائهم على معسكر الأتراك بالمطرية ، وكان لمدافع الفرنسيين الأثر الأكبر فى سير المعركة ونهايتها .

الفصل الخامس عشر

ثورة القاهرة الثانية

٢٠ مارس – ٢١ ابريل سنة ١٨٠٠

لم يكد الجنرال كليبر يخرج ظافرا من معركة عين شمس حتى واجه فى القاهرة ثورة جديدة اشد واعظم من ثورتها الأولى ، وتجددت حركات الهياج فى الوجه البحرى .

شبت نار الثورة فى القاهرة يوم ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ ومعركة عين شمس قائمة ، وكان من زعماء هذه الثورة السيد عمر مكرم والسيد محمد السادات والسيد احمد المحروقى كبير التجار والشيخ الجوهرى ابن الشيخ محمد الجوهرى، والسيد مصطفى البشتيلى .

لم يكد يسمع سكان العاصمة قصف المدافع فى ميدان المعركة حتى بدأت الثورة في حى بولاق بزعامة السيد مصطفى البشتيلى ».

والسيد (مصطفى البشتيلى) هو من اعيان بولاق ، سمى البشتيلى نسبة الى (بشتيل) من أعمال الجيزة ، وقد سبق للفرنسيين ان اعتقلوه قبل هذه الثورة بعدة أشهر (فى ٤ اغسطس سنة ١٧٩٩) لما بلغهم من بعض الوشاة ان بوكالته قدورا مملوءة بارودا ، ففتشوا الوكالة ووجدوا البارود فى القدور ، فضبطوها واعتقلوه ، ثم أطلقوا سراحه بعد ابرام معاهدة العريش لما عزموا على الجلاء ، فلما نقضت المعاهدة وتجددت الحرب كان البشتيلى من دعاة الثورة فى بولاق ».

ثار اهل بولاق وحملوا ما وصلت اليه أيديهم من السيوف والبنادق والرماح والعصى ، واتجهوا بجموعهم صوب قلعة قنطرة الليمون لاقتحامها . ولكن حامية القلعة ردت هجومهم بنيران المدافع ، فأعاد الثوار صفوفهم واستأنفوا الهجمة ، حتى وصل الفرنسيين المدد فشتتوا جموع الثائرين بنيران المدافع والبنادق ، وقتل فى هذا الهجوم ثلثمائة من الثوار ».

هجوم الثوار على معسكر الفرنسيين

عمت الثورة أنحاء المدينة ، واتجه الثوار بجموعهم الى معسكر القيادة العامة للجيش الفرنسى بميدان الأزبكية ،

وعددهم نحو عشرة آلاف ثائر ، فتلقى الجند هجوم الثائرين بثبات شديد من البنادق والمدافع ، فردوهم على أعقابهم وتقهقر الثوار واحتلوا بعض المنازل المجاورة للميدان لاطلاق النار على المعسكر ، فأقامت الجنود الفرنسية متاريس من جذوع النخيل للدفاع عن معسكرهم .

امتدت الثورة الى كثير من النواحي ، وازداد عدد الجموع المنضمة الى لوائها ، وانبث دعاة الثورة في كل مكان يحرضون الناس على القتال ، وامتلأت بهم الشوارع والميادين والأسطح حتى بلغ عددهم خمسين ألف ثائر حاملين البنادق والأسلحة والعصى ، وانضم اليهم النساء والأطفال ، فكان لهم نداءات وصيحات تصم الآذان ، وهبت عاصفة الثورة على أحياء العاصمة كلها .

هجم الثوار على معسكر الفرنسيين ثانية في ميدان الأزبكية ، واستعملوا في الهجوم ثلاثة مدافع من مدافع العثمانيين التي كانت لهم في المطرية ، ولعدم وجود القنابل استعاضوا عنها بكرات الموازين الحديد التي جلبوها من الوكائل والدكاكين ، لكن الحامية الفرنسية كانت متحصنة في المعسكر فثبتت لهم واستمر القتال الى اليوم التالى ، وأخذت القلاع منذ ابتداء الثورة تضرب المدينة بالمدافع وتسلط قنابلها على الأحياء الثائرة .

وفي اليوم التالى (٢١ مارس سنة ١٨٠٠) اتسع نطاق الثورة ، واسهمت فيها طبقات الشعب كافة .

وفى هذا اليوم حضرت قوة من الجيش الفرنسى أرسلها كليبر لنجدة حامية القاهرة ، جاءت فى نحو الساعة الثانية بعد الظهر وكانت ممتلئة حماسة بسبب انتصـــار الجيش الفرنسى فى معركة عين شمس ، فاكتسحت الشوارع الموصلة الى معسكر الجنود فى الأزبكية ورفعت الحصار عنه وانضمت الى الحامية وزادت فى تحصين المعسكر بحيث تعذر على الثوار اقتحامه .

اشتداد الثورة

ثم جاءت قوه اخرى وأرادت اعادة النظام فى المدينـــة ، ولكنها لم تستطع اقتحام الشوارع لكثرة ما كان بهـــا من المتاريس والمنازل المحصنة ، فقد أقام الثوار المتاريس على أبواب المدينة وفى معظم أحيائها ، وكانت المتاريس على جانب كبير من المناعة فقد بناها الثوار فى الشوارع وبلغ علو بعضها اثنى عشر قدما ، وتحصن الناس حولها وتحمسوا للقتال ، وعبثا حاول بعض العقلاء أن يقنعوهم بانتصار الجيش الفرنسى فى معركة عين شمس ، فلم يقبلوا اى نبأ يكسر شوكـــة الثورة ، وقتلوا الرسل الذين جاءوا بالأخبار الصحيحة عن المعركة ، وبذل الأهالى ما فى طوقهم لتأييد الثورة ، وأتـــوا فى هذا السبيل من الأعمال ماأدهش الفرنسيين ، فقد انشأوا فى أربع وعشرين ساعة معملا للبارود فى بيت قائـــد اغـــا بالخرنفش ، وانشأوا معملا لاصلاح الأسلحة والمدافع ، ومعملا آخر لصنع القنابل وصب المدافع جمعوا له الحديـــد من المساجد والحوانيت ، وتطوع الصناع للعمل فيه وقدمـــوا

مالديهم من الحديد والآلات والموازين ، واخذوا يجمعـــون القنـــابل التى تتساقط من المدافع الفرسية فى الشـــوارع ويستعملونها قذائف جديدة للضرب .

قال المسيو مارتان أحد مهندسى الحملة الفرنسية وكان شاهد عيان لتلك الثورة : « لقد قام سكان القاهرة بما لم يستطع احد ان يقوم به من قبل ، فقد صنعوا البـــارود ، وصنعوا القنابل من حديد المساجد وادوات الصناع ، وفعلوا ما يصعب تصديقه ـ وما راء كمن سمع ـ ذلك أنهم صنعوا المدافع » .

وصـول الجنرال كليبر

وصل الجنرال كليبر يوم ٢٧ مارس بعد أن ترك حاميـات من الجنود فى الصالحية والقرين وبلبيس ، عاد الى القاهرة فألفى نار الثورة تضطرم فى احيائها من اقصاها الى اقصاها ، ورأى الضواحى والبلاد المجاورة لها قد اشتركت فى الثورة وامدت ثوار القاهرة بالرجال والعتاد ، وشاهد فى بولاق ومصر القديمة حصونا أقامها الثوار للدفاع ، ووجد جميع الوكائل والمخازن التى على النيل قد تحولت الى شبه قـلاع احتلها الثوار وصارت الملاحة فى النيل تحت رحمتهم ، فرأى ان اخذ الثائرين بالقوة المسلحة قد لا يؤدى الى اخماد الثورة لان المتاريس كانت منتشرة فى أحياء القاهرة ، والثـــوار مستبسلون فى المقاومة ، وان مهاجمتهم فى معاقلهم قـــد يفقده جنودا كان يومئذ فى حاجة اليهم ، وان الحكمة تقتضى

من ناحيته أن يأخذهم بالمطاولة ويستخدم الزمن فى فل حدهم وتخضيد شوكتهم وبذر الشقاق بين صفوفهم ، فقد كانت الثورة تضم تحت لوائها ثلاثة عناصر ، وهم المصريون سكان القاهرة . والأتراك . والمماليك فهذه العناصر الثلاثة قد اجتمعت واتحدت وقتا ما لمحاربة العدو المشترك ، لكن اختلاف المصالح وتباين الأغراض كان عقبة فى سبيل دوام هذا الاتحاد ، وهذه العقبة وان ذلك تحت لواء الثورة الا أنها لا تلبث أن تبدو للعيان عند أول فرصة ، ولقد أوجد كليبر هذه الفرصة بمفاوضة زعماء الأتراك والمماليك فى وقف القتال ، واستمرت المفاوضة معزعماء الأتراك ورؤساء المماليك فى وضع شروط الصلح ، اما اهالى القاهرة الذين على اكتافهم قامت الثورة فلم يحسب لهم حساب فى هذه المفاوضات ولم يمثلهم فيها احد للدفاع عن مصالحهم ، والواقع أنهم العنصر الذى ثار غير مدفوع بأغراض شخصية او أهواء ذاتية ، لكن زعماء الأتراك والمماليك ما كانوا يقصدون من التحريض على الثورة والاشتراك فيها الا استعادة سلطانهم المفقود فى البلاد ، ولقد ادرك الاهلون أن الأتراك والمماليك بدأوا يعبثون بهم ، ولذلك لم يكد يتم الاتفاق بين هؤلاء والفرنسيين على القاء السلاح حتى ادركوا انهم فقدوا نفوذهم بين الجماهير فلم تعد تستمع لنصائحهم ، واخذ دعاة الثورة من الأهالى يحرضون الناس على الاستمرار فى القتال وضموا اليهم الجماهير ، فتنادوا بمواصلة القتال وخيانة المماليك والأتراك .

الصلح بين كليبر ومراد بك

٥ ابريل سنة ١٨٠٠

ظل مراد بك أثناء ثورة القاهرة مقيما فى (طره) بعيدا عن حركات القتال ، وتمت مفاوضات الصلح بينه وبين كليبر، وامضيت معاهدة الصلح بينهما فى ٥ ابريل سنة ١٨٠٠ بينما كانت مدافع الفرنسيين تصب قنابلها على سكان العاصمة .

وخلاصة أحكام هذه الاتفاقية قبول مراد بك أن يحكم الصعيد تحت حماية فرنسا !

وسعى مراد بك سعيا حثيثا بعد توقيع معاهدة الصلح فى أن يضم المماليك الذين فى القاهرة الى صفوف الفرنسيين ، ولما اعيته الحيل أشار على كليبر باضرام النار فى القاهرة اخمادا للثورة ، وتلك كانت نية الفرنسيين من قبل .

ومن هذا يتضح ان مراد بك قد اشترك فى مأساة احراق القاهرة ، وهكذا سعى ذلك الامير الغادر فى تدمير المدينة العظيمة التى مكنت له وقتا ما فى البلاد واغدقت عليه زمنا ما نعمة الحكم والجاه .

اخماد ثورة القاهرة

تم للفرنسيين اخضاع الوجه البحرى فى اوائل ابريل سنة ١٨٠٠ ، وكان ذلك بمثابة تطويق لمدينة القاهرة وتأهب لاخماد الثورة التى كانت تستعر نارها منذ ٢٠ مارس ، وكانت مدافع

الفرنسيين فى خلال هذه المدة تصلى المدينة نارا حامية وتطلق قذائفها على المنازل التى كانت ملجأ للثوار ، فلما جاءت فرقة الجنرال (رينييه) من الحدود الشرقية عسكرت امام القاهرة واحتلت الاكام المشرفة على المدينة من قلعة (قنطرة الليمون) الى (جامع الظاهر) ومنه الى قلعة المقطم ، فأحاطت بالمدينة شمالا وشرقا ، وابتدأ الهجوم على مواقع الثوار ليلة ٤ ابريل ، فأمر الجنرال كليبر بتقديم الكتائب الفرنسية من ناحية باب الحديد وكوم ابى الريش (بالفجالة) وقنطرة الحاجب وبركة الرطلى والحسينية وباب النصر ، وعهد الى الجنرال رينييه ان يبذل كل ما فى طوقه للاستيلاء على جهة باب النصر وان يصوب نيرانه الى الجامع الازهر .

قام جنود الجنرال (رينييه) بهذه المهمة ، فبدأوا هجومهم من باب الحديد واصطدموا فى اول القتال بمتراس من متاريس الثورة ، فقتل الضابط الذى يقود الكتيبة الاولى وتراجع الجنود الى الوراء ، ثم تقدمت الكتيبة ثانية ، وطاردت الثوار واقتلعت المتاريس التى كانوا يتحصنون فيها ، واقتحمت المنازل التى كانوا ممتنعين بها واضرمت النار فى المبانى التى كانت تعوق تقدم الجنود ، واستطاعت ان تسند مسيرتها الى سور القاهرة القديم وميمنتها الى مواقع الفرنسيين فى ميدان الازبكية ، واشتد القتال حول المواقع التى احتلها الفرنسيون ، واستردها الثوار المرة بعد المرة ، ولكن

الفرنسيين تمكنوا فى المرة الثالثة من تثبيت اقدامهم فيها ، وظلت المناوشات بين الفرنسيين والثوار من يوم ٥ ابريل الى ١٠ منه .

وفى يوم ١٢ ابريل اعتزم الجنرال كليبر توطيد مركز جنوده باحتلال كوم ابى الريش (بالفجالة) الذى كان الثوار متحصنين به ، وكان هذا الكوم نقطة ارتكاز قوية للثوار لانه قائم على اكمة تقطع المواصلات بين جامع الظاهر والمعسكر العام للجنود الفرنسية فى الازبكية ، فعهد كليبر الى جنود الجنرال رينييه باحتلاله ، فهجم الجنود واجلوا عنه الثوار ، وفى الوقت نفسه هجمت قوة اخرى على المنازل المحيطة ببركة الرطلى واقتحمتها واضرمت فيها النار واستبقت منها بعض المنازل التى تصلح للتحصن فيها ،وتحصن الجنود فى كوم ابى الريش واقاموا به الاستحكامات ، فكر عليهم الثوار ، ولكن الجنود ردوهم على اعقابهم ، واستمر القتال حوله الى صبيحة ١٣ ابريل حيث رسخت قدم الفرنسيين فيه .

هذا ما وقع فى الميسرة اما الميمنة ، فى جهة الازبكية ، فقد كان الثوار يحتلون بيت فرقة الهندسة الكائن بميدان الازبكية ، فضربه الجنود بالمدافع واحدثوا به ثغرات هجم منها الفرنسيون واحتلوا المنزل بعد أن أجلوا عنه الثوار ، ولكن الثوار امتنعوا فى بيت آخر بالقرب من بيت فرقة الهندسة يعرف ببيت احمد اغا شويكار وركبوا مدفعا فى حديقة منزل السيد البكرى فاخذوا يطلقون النار من الجهتين

على الجنود الفرنسية ، لكن الفرنسيين اصابوا المدفع المركب في حديقة البكرى بقنابلهم واتلفوه ، فانحصر الثوار في بيت احمد اغا شويكار .

استمر القتال سجالا والثوار لايذعنون ولا يسلمون، وبدات ذخائر القلاع تنقص بسبب كثرة الضرب ، فاخذت القذائف في النقصان وخفت وطأة الرمى ، فظن الاهالى ان هذا علامة على ضعف القوات الفرنسية ، فاشتدت حماستهم واستعدوا لمضاعفة الجهد والقتال ، لكن الفرنسيين تلقوا مددا جديدا ، وذلك أن الجنرال (بليار) عاد من دمياط بعدما اخضعها وترك بها فصيلة من الجنود ورجع بمعظم قواته الى القاهرة يوم١٣ ابريل ، فعسكر أمام بولاق التى كانت معقل الثورة ، فلما وصل هذا المدد اعتزم الجنرال كليبر ان يستولى عنوة على بولاق ويخمد فيه الثورة بكل ما لديه من قوة .

مأساة بولاق

فى اليوم الرابع عشر من شهر ابريل سنة ١٨٠٠ انذر الجنرال كليبر العاصمة بالتسليم ، ولكن الثوار لم يعبئوا بالانذار ، ففى اليوم التالى (١٥ ابريل) بدات الجنودبالهجوم على حى بولاق قبل شروق الشمس واخذوا يضربونه بالمدافع وكانت مداخل الحى محصنة والثوار ممتنعون خلف المتاريس وفى البيوت ، فاجابوا على ضرب المدافع باطلاق النار من المتاريس والبيوت المحصنة ، ولكن نار المدفعية الفرنسية

حطمت المتاريس القائمة على مدخل الحى ، فثغرت فيها ثغرة كبيرة اندفق منها الجنود الى شوارع بولاق ، واضرموا النار فى البيوت القائمة بها ، فاشتعلت فيها واتسع مداها ،وامتدت الى مبانى الحى من مخازن ووكائل ومحال تجارة فالتهمتها وما كان فيها من المتاجر العظيمة ودمرت هذا الحى الكبير الذى يعد ميناء للقاهرة ومستودعا لمتاجرها ، وهدمت الدور على سكانها فباد كثير من العائلات تحت الانقاض او فى لهب النار .

ولما بلغت المأساه مداها طلب الاهالى التسليم ، فاجيبوا الى طلبهم ، ولم يكتف الفرنسيون بما حل ببولاق من الخراب والتدمير ، بل فرضوا على أهلها غرامة جسيمة قيمتها ٢٠٠ الف ريال ، واخرى على متاجرها قيمتها ٣٠٠ الف ريال تجبى عروضا من السكر والبن والزيت والحبال والتيل والقطران والنحاس والحديد والرصاص ، وفرضوا على الاهالى ان يسلموا ما عندهم من المدافع والذخائر الموجودة فى ترسانة بولاق ومالديهم من الاخشاب والغلال والشعير والارز والعدس والفول ، وأن يسلموا اربعمائة بندقية ومائتى طبنجة وقتل السيد مصطفى البشتيلى رئيس الثوار .

الهجوم على مواقع الثوار

أثرت النكبة التى حلت ببولاق فى سائر انحاء القاهرة ، وانتهز الجنرال كليبر فرصة الفزع الذى استولى على النفوس فأمر جنوده بالهجوم التام على مواقع الثوار ، وابتدا هـذا

الهجوم يوم ١٨ ابريل سنة ١٨٠٠ ، وكان نذيره بينهم اشعال النار فى لغم وضعه الفرنسيون تحت جدار بيت احمد اغا شويكار الذى كان الثوار ما يزالون يحتلونه ، فلما انفجر اللغم نسف المنزل بمن فيه واحترقوا عن اخرهم ، وهاجم الفرنسيون المدينة هجوما عاما من جهات متعددة .

وانقضت الايام التالية والقتال مستمر ولكنه اقل شدة مما كان فى اليوم الاول ، وكان الفرنسيون فى خلال هذه الايام يوطدون مركزهم فى المواقع التى غنموها ويضيقون على الثوار ، واشتد الضيق بالاهالى وسرى اليهم الملل مع استمرار حالة الحرب وما حاق بهم من الفظائع والاهوال ، فجنحوا للتسليم لوضع حد لمأساة القتال وخاصة بعد ان اسرف الفرنسيون فى ارتكاب الفظائع لاخماد الثورة ولجئوا الى الطريقة الوحشية التى اتبعوها فى كثير من المواطن وهى اضرام النار فى الاحياء الآهلة بالسكان وارسالها على المدينة واهلها موتا احمر ، فاحدثت الحرائق تخريبا فظيعا فى القاهرة ، واحترقت احياء برمتها وتهدمت بيوت عامرة ودفنت تحت انقاضها عائلات باكملها ، ومن الاحياء التى التهمتها النار خط الازبكية ، وخط الساكت ، والفوالة والرويعى ، وبولاق ، وبركة الرطلى وما جاورها ، وباب البحر ، والخروبى ، والعدوى الى باب الشعرية .

وانتهت المفاوضة فى الصلح بعقد اتفاق فى ٢١ ابريل سنة ١٨٠٠ بوقف القتال .

وتعهد الجنرال كليبر فى هذا الاتفاق بأن يعفو عفوا عاما عن جميع اهالى القاهرة وعن المصريين الذين اشتركوا فى الثورة ، ولكنه اشترط الا يغادر المدينة احد من المصريين بقصد اللحاق بالجيش العثمانى .

وأخذ الاتراك والمماليك بعد التوقيع على معاهدة التسليم يعدون معدات الرحيل ، ثم ارتحلوا طريق بلبيس وسار معهم زعماء الثورة من المصريين أمثال السيد عمر مكرم والسيد احمد المحروقى كبير التجار ، وهاجر من العاصمة عدة آلاف من السكان ممن توقعوا انتقام الفرنسيين فتفرقوا فى البلاد ، وقد كانوا محقين فى مخاوفهم ، لان كليبر نقض عهده فى هذا الصدد .

وبابرام شروط التسليم انتهت ثورة القاهرة بعد قتال دام ثلاثة وثلاثين يوما ، وعادت السلطة وقتا ما الى الفرنسيين .

وسادت السكينة انحاء الوجه البحرى والوجه القبلى ، واصبح الجنرال كليبر حاكما بأمره فى البلاد وهو الذى كان قبل شهرين يعد معدات الرحيل عنها ، ولكن السياسة الانجليزية هى التى غيرت سير الامور وتسببت فى نقض معاهدة العريش ومنعت الجنود الفرنسية من السفر الى فرنسا فاشعلت نار الحرب ثانية بين الاتراك والفرنسيين وانتهت هذه الحرب بانتصار الفرنسيين فى معركة عين شمس واخماد ثورة القاهرة بقوة السيف والنار .

اعتقال واضطهاد

بعد اخماد الثورة

كان اول عمل للجنرال كليبر بعد عودة السلطة اليه أن نقض عهده فى العفو العام عن كل من لهم يد فى الثورة ، فقد امر بالاقتصاص من سكان القاهرة جميعهم بفرض غرامة جسيمة تنوء بها اكبر العواصم وبخاصة بعدما حل بها من الخراب والدمار .

فرض على سكان القاهرة غرامة قدرها اثنا عشر مليون فرنك يوفى نصفها نقدا ونصفها عروضا ، والزم سكان المدينة بتسليم عشرين الف بندقية وعشرة آلاف سيف وعشرين الف طبنجة وخص بعض كبار الاعيان والعلماء بنصيب فادح من هذه الغرامة

فصودرت املاك السيد احمد المحروقى كبير التجار ، وفرضت على السيد محمد السادات غرامة قدرها ١٥٠،٠٠٠ ريال (٨٠٠ ألف فرنك تقريبا) والشيخ مصطفى الصاوى ٥٠،٠٠٠ ريال (٢٦٠ ألف فرنك) والشيخ محمد الجوهرى وأخيه الشيخ فتوح ٥٠،٠٠٠ ريال .

وامر كليبر بتوزيع الباقى على سكان المدينة على اختلاف طوائفهم وطبقاتهم ، واعتقل خمسة عشر رجلا من كبرائهم رهينة لوفاء هذه الغرامة .

ومن الصعب أن نتعرف كيف وفق كليبر بين هذه الغرامات والعهد الذى قطعه على نفسه بأن يعفو عمن اشتركوا فى ثورة القاهرة ، لكنها القوة الغشوم والروح الاستعمارية لا عهد لها ولا ميثاق .

وقد أسرف الفرنسيون فى ارهاق سكان القاهرة واذلالهم ، واعتقلوا الكثيرين منهم لاكراههم على دفع نصيبهم فى الغرامة ، وفتشوا جميع المنازل بحجة البحث عن السلاح ، وتفننوا فى ضروب القهر والنكال ، واشتد الضيق بالناس مما لاقوه من المصائب والاهوال ، فخربت بيوت عامرة وخرج كثير من الناس عن اموالهم وباعوا متاعهم ، ومات كثير منهم فى السجون ، وهاجر من استطاع الهجرة فرارا من الظلم والاستبداد ، وقلما توجد فى تاريخ الثورات فجائع تشبه ما عانته القاهرة بعد اخماد ثورتها الثانية .

اضطهاد الفرنسيين للسيد السادات

كان السيد محمد السادات هدفا لاقسى ضروب الانتقام والاضطهاد ، فقد خصه الجنرال كليبر باكبر غرامة ، وعامله الفرنسيون بقسوة لا نظير لها ، فاعتقلوه غير مرة واهانوه وصادروا أمواله واضطروه الى بيع املاكه توفية للغرامة التى فرضوها عليه ، وافرطوا عليه فى القسوة ولم يراعوا مقامه بين الناس ولا منزلته فى البلاد ، وقد احتمل من صنوف الارهاب ما لم يصب غيره من انداده ولا من قومه .

وقد اشار نابليون فى مذكراته الى ما أصاب السيد السادات من الاضطهاد والتعذيب وقال ان الجنرال كليبر أمر بتعذيبه وضربه ، وكان هذا من أهم الاسباب التى ادت الى مقتل كليبر .

وقال فى موضع آخر : « ان السادات قد خص بغرامة فادحة ، وكان معروفا عنه كرهه للفرنسيين ، على أنهم اسرفوا فى اهانته لدرجة أنهم نسوا مقامه المستمد من نسبه ومولده ، فقد رفض أن يدفع الغرامة فاعتقل وسجن بالقلعة ولم يعبأ بالتهديد والوعيد ، فأمر كليبر بضربه بالعصى ، وهكذا ضرب السادات واهينت السلالة النبوية ، فعم السخط رجال الشرع والعلماء والشعب ، وكانت هذه المعاملة على النقيض من معاملة نابليون للسادات عقب ثورة سنة ١٧٩٨ فقد قابله بالعفو والتسامح مع قيام البيانات عليه بأنه زعيم الثورة » .

ويقول نابليون أيضا فى مذكراته ان لاضطهاد السادات دخلا فى مقتل الجنرال كليبر لأنه لا يمكن ان يجهل علماء الازهر ما كان ينويه سليمان الحلبى من اغتيال كليبر فقد اقضى بالازهر نحو ثلاثين يوما مصمما على القتل ، لكنهم تجاهلوا نية القاتل وتجاهلوا كل ما له علاقة به لانهم كانوا يودون الانتقام من الجنرال كليبر .

بقى السيد السادات معتقلا فى القلعة ولم يفرجوا عنه الا فى ١٩ يولية سنة ١٨٠٠ فى عهد قيادة الجنرال (منـو) بعد أن سدد الغرامة المفروضة عليه ، واشترطوا عليه عدم الاجتماع بالناس والا يركب بدون أذن منهم ويقتصد فى اموره ومعاشه وتقليل اتباعه ، اى انه بقى فى داره رهن المراقبـة وحددوا اقامته ، ثم اعتقلوه للمرة الرابعة فى اوائل مـارس سنة ١٨٠١ بعد وصول الحملة الانجليزية العثمـانية الى (أبو قير) .

الفصل السادس عشر

مقتل الجنرال كليبر وجلاء الفرنسيين

كان موقف كليبر فى اوائل شهر يونية سنة ١٨٠٠ غاية فى المنعة ، وقد قويت آماله فى ان يخلد مركزه فى وادى النيل ويحقق مشروعاته الاستعمارية ، لكن هذه الآمال تحطمت فى لحظة واحدة ، وهى اللحظة الرهيبة التى امتدت اليه فيها يد (سليمان الحلبى) بطعنة خنجر اردته صريعا .

كان ذلك يوم السبت ١٤ يونية سنة ١٨٠٠ (٢١ محرم سنة ١٢١٥) ، ففى صباح هذا اليوم ذهب كليبر الى جزيرة الروضة ليعرض كتيبة الاروام الذين انخرطوا فى سلك الجيش الفرنسى بمصر وعاد بعد العرض الى الازبكية ليتفقد اعمال الترميم التى كانت تعمل فى دار القيادة العامة ومسكن

القائد العام (سراى الالفى بك) لازالة آثار الاتلاف الذى أصابها من قنابل الثوار ، وكان يصحبه المسيو بروتان المهندس المعمارى ، فتفقدا الاعمال معا ، ثم ذهبا الى دار الجنرال داماس رئيس أركان الحرب حيث أعد وليمة غداء للقائد العام دعا اليها طائفة من القواد واعضاء المجمع العلمى ورؤساء الادارة ، فتغذى كليبر مع المدعوين ، وكان منشرح الصدر على المائدة يتحدث مطمئنا عن الحالة فى مصر ، واستمرت الوليمة الى الساعة الثانية بعد الظهر ، ثم انصرف كليبر يصحبه المهندس بروتان عائدين الى دار القيادة العامة ليستأنفا تفقد أعمال الترميم والاصلاح فيها ، وكانت حديقة السراى تتصل بدار رئيس اركان الحرب برواق طويل تظلله تكعيبة من العنب .

فسار كليبر وبجانبه بروتان فى هذا الرواق يتحدثان فى اصلاح السراى ، وبينما هما سائران اذ خرج عليهما رجل يكمن وراء بئر عليها ساقية ، فاقترب من الجنرال كليبر كمن يريد أن يستجديه أو يتوسل اليه ، فلم يرتب كليبر فى نية ذلك السائل ، لكنه لم يكد يلتفت اليه حتى عاجله بطعنة خنجر مميتة اصابته فى صدره ، فصاح كليبر « الى أيها الحراس » ثم سقط على الارض مضرجا فى دمه ، وهنالك اسرع المسيو بروتان فى تعقب القاتل ، فلما ادركه تماسك الاثنان ، فطعنه القاتل ست طعنات سقط منها على الارض بجوار كليبر ، وعاد القاتل مرة ثانية الى كليبر فطعنه ثلاث طعنات ليجهز عليه ، بيد ان الطعنة الاولى كانت القاضية

لانها نفذت الى القلب ، ولاذ القاتل بالفرار وتوارى عن الانظار مختفيا فى حديقة السراى ، ولم يبق فى مكان الحادث مما يدل عليه سوى جزء من عمامته التى تمزقت اثناء صراعه مع بروتان واقبل الحارس الذى سمع الصيحة يعدو ، فلما رأى هـذا المنظر الرهيب ولى مسرعا الى دار الجنرال داماس فأخبر القوم بما رآه ، فأقبل من كانوا موجودين الى مكان الحادثة ، فرأوا الجنرال كليبر مضرجا فى دمائه وبجانبه بروتان مغمى عليه من شدة الطعنات التى اصابته ، فهالهم ما أبصروه ، ونقلوا الجنرال كليبر الى دار رئيس اركان الحـرب ، وجاء كبير أطباء الجيش لاسعاف الجنرال كليبر فألفاه قد أسلم الروح دون أن ينطق بكلمة »

انتشر الخبر فى القاهرة بسرعة البرق ، فتلقـاه الاهـالى بالدهشة والجزع الشديد لتوقعهم الانتقام والنكال ، وتلقاه الجنود الفرنسيون بالغضب والسخط والتحفز للوثبـة على الاهالى الابرياء ، وضرب النفير العام فى أحياء القاهرة جمعا لشتات الجنود الفرنسيين فأقبلوا من كل صوب وحدب الى ميدان الازبكية يتنادون بالانتقام والاخذ بالثأر ويتهـددون باحراق المدينة ، فاستولى الفـزع على النـاس ، واقفلت الدكاكين ، وخلت الطرق من المارة ، واخذت دوريات الجنود تطوف الشوارع والاحياء وخاصة المجاورة لميدان الازبكية للبحث عن القاتل الذى كان بعد مختفيـا عن الانظـار ، ثم

عثروا عليه مختفيا وراء حائط مهدوم فقبضوا عليه وتبين انه طالب علم بالازهر اسمه (سليمان الحلبى) وعمره اربع وعشرون سنة ، واعترف بالقتل .

وحوكم سليمان الحلبى أمام محكمة عسكرية فرنسية هو ومن اتهموا بالاشتراك معه ، فحكم عليه وعلى اربعة من طلبة العلم بالازهر وهم محمد الغزى،واحمد الوالى .وعبد الله الغزى ، وعبد القادر الغزى (وكان هذا الاخير غائبا) بادا بهم وحكم على سليمان الحلبى باحراق يده اليمنى ثم اعدامه على الخازوق وترك جثته تأكلها الطير ، واعدام شركائه الاربعه بقطع رءوسهم واحراق جثثهم بعد الاعدام ، ونفذ فيهم الحكم علنا عدا المتهم الغائب عبد القادر الغزى .

اقفال الازهر

زاد ارتياب الفرنسيين فى الازهر بعد مقتل الجنرال كليبر اذ كان يأوى اليه سليمان الحلبى وشركاؤه ، وبه قضى القاتل نحو ثلاثين يوما مصمما على القتل ، ولم يقتنع الفرنسيون بأن علماء الازهر كانوا يجهلون نية القاتل قبل ارتكاب الجريمة، وقد استدعوا الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الازهر والشيخ احمد العريشى قاضى مصر وحجزوهما الى منتصف الليل ، والزموهما البحث عن الازهريين الاربعة الذين ذكرهم سليمان الحلبى فى اعترافه واحضارهم ، ولما انقضت محاكمة سليمان الحلبى وشركائه ذهب الجنرال (منو) الى الازهر بصحبه قومندان المدينة (الجنرال بليار) والمحافظ وطافوا

به وشرعوا فى حفر ما به من الاماكن بحجة التفتيش على السلاح فأخذ طلبة العلم فى نقل امتعتهم منه ونقل كتبهم واخلاء الاروقة ، وكتب الفرنسيون اسماء الطلبة فى كشوف وامروهم أن لا يؤوا بالجامع غريبا ، وأخرجوا منه المجاورين العثمانيين فلما رأى العلماء أن الازهر أصبح عرضة للريبة والتفتيش عرضوا على الفرنسيين اقفاله مؤقتا ، وكان هؤلاء يميلون الى اقفاله اذ يرون فيه معقلا للثورة ضدهم ، فأقفلوه يوم ٢١ يونية سنة ١٨٠٠ ، وظل الازهر مقفلا الى أن شرع الفرنسيون فى الجلاء عن مصر فأعيد فتحه فى يونية سنة ١٨٠١

وساد الذعر المدينة بعد مقتل الجنرال كليبر ومحاكمة القاتل وشركائه ، فهاجر كثير من العلماء والاعيان الى الاقاليم وتبعتهم الجماهير من الناس حتى اضطرت السلطة الفرنسية لوقف تيار الهجرة الى اصدار أمرها بمنع انتقال الناس ورجوع المهاجرين منهم ، وانذرت من لم يرجع بعد خمسة عشر يوما بنهب داره ، فعاد أكثر المهاجرين خوفا على بيوتهم أن تنهب وأموالهم أن تصادر .

قيـــادة الجنرال منو

تولى الجنرال منو MENOU قيادة الجيش الفرنسى بعد مقتل كليبر ، ولم يكن توليه القيادة راجعا الى كفاية عسكرية أو مواهب سياسية أو ادارية ، بل لانه اقدم قواد

الفرق فى الخدمة ، فالصدفة هى التى قضت بأن يخلف كليبر ونابليون ، أما منو فى ذاته فلم يكن على صفات تؤهله لتولى ذلك المنصب الخطير ، فقد كان فى حياته الحربية بعيدا عن خوض غمار المعارك . وكأنما كان يجتهد على الدوام فى أن يكون بعيدا عنهـا .

وكان من الوجهة السياسية مجردا من الكفاية والحـزم وحسن التدبير . على انه كان على جانب كبير من الغـرور والاعتداد بنفسه . ولعل السبب فى ذلك راجع الى انه كان زمنا ما عضوا فى الجمعية الوطنية الفرنسية ، وشهد المعارك السياسية وخالط اقطاب الثورة الفرنسية الكبرى ، فظن أن عضويته فى الجمعية الوطنية قد وضعته فى مصاف رجـال السياسة والدولة ، على انه فى الواقع كان خلوا من الكفاية السياسية ، ولكنه وصل الى التقرب من نابليون بالتملـق والرياء والتظاهر بالاخلاص له ، فكسب عطفه ورعايته ، وكان معروفا عنه الحقد على كليبر لمنزلته بين القواد والجند .

ولم يكد يتولى القيادة بعد مقتل كليبر حتى عمـل على توطيد مركزه فيها ، ولما كان يعتقد انه لا يستطيع ان يصل الى كسب احترام القواد والضباط فقد أخذ يوطـد مركزه بالدسائس والسعايات ، واخذ يعمل على اقصاء اصـدقاء كليبر وخلق حزب من المتملقين الذين يأسرهم بترقيتهم واغداق النعم عليهم ليكونوا عونا له فى قضاء اغراضه ، فنقم عليـه قواد الجيش وضباطه الاكفاء وسخروا منه لما كان يأتيه من

الاعمال البعيدة عن الحكمة ، وغنى عن البيان ان الجيش الذى يتولاه قائد غير حائز لثقة رجاله لايمكن أن يستبقى قوته ووحدته ، ولابد أن يدب فى صفوفه التفكك والانقسام ، وقد كان هذا حال الجيش الفرنسى فى مصر بعدما تولى (منو) قيادته العامة ، وشعر قواد الجيش وكبار ضباطه انه يعبث بهم ويعرض مصير الجيش للخطر . واكثر هو من تنقلات الجنود بلا جدوى ونقل بعض القواد من مراكزهم .

ولم يكتم (منو) كراهيته لكليبر ، ولا كان يبدو منه احترام لذكراه . وبلغت به كراهيته انه رزق ولدا من زوجته المصرية فأسماه (سليمان) ، وهذا الاسم كان يثير فى نفوس الجنود والقوات الفرنسية لوعة الحزن على فقيدهم لانه اسم سليمان الحلبى قاتل الجنرال كليبر . فكان لاختيار منو لهذا الاسم أثر استياء كبير فى نفوس الجيش الفرنسى .

مسألة اسلام منو وزواجه

فكر الجنرال منو وهو حاكم لرشيد فى التقرب الى الشعب لدرجة الاندماج فيه ، فاعتزم التزوج من سيدة مصرية شريفة المحتد ، والجنرال منو من سلالة اشراف فرنسا ، فاراد أن يجمع بين شرف اسرته وشرف مصاهرته عائلة مصرية عريقة فى النسب ، وقد استتبع هذا المشروع اعتناقه الاسلام ليتسنى له التزوج من سيدة مسلمة ، فأسلم قبل الزواج .

ولم يكن منو يقصد اختيار سيدة بالذات ، بل كان ما كان يرمى اليه ان يصاهر عائلة تتصل بالسلالة النبوية ، فرغب بداءة ذى بدء فى مصاهرة الشيخ الجارم عميد أسرة الجارم العريقة فى الشرف والعلم ، ولكن يظهر ان الشيخ تورع عن هذه المصاهرة واراد ان يسد الطريق امام الجنرال منو ، فلم يكد يسمع بهذه الرغبة حتى بادر بتزويج كريمتيه الاثنتين الى اثنين من الاهلين ليتخلص من مصاهرة الجنرال ، وقد حققت الحوادث صدق نظره ، فان الجنرال منو أساء معاملة زوجته المصرية بعد جلاء الفرنسيين ، واذ رفض الشيخ الجارم مصاهرته فقد طلب منو التزوج من سيدة اخرى تدعى زبيدة كريمة السيد محمد البواب احد اعيان رشيد ، وكانت مطلقة سليم اغا نعمة الله ، فقبل ابوها وقبلت هى الزواج بالجنرال ، وتم عقد زواجهما فى وثيقة شرعية تضمنت اعتناقه للاسلام وزواجه بالسيدة المذكورة ، وتسمى منو فى وثيقة الزواج باسم « عبد الله باشا منو » . وهذه الوثيقة مؤرخة فى ٢٥ رمضان سنة ١٢١٣ (يوافق ٢ مارس سنة ١٧٩٩) ومسجلة فى دفترخانة محكمة رشيد الشرعية وموجودة بها الى الآن .

وقد تظاهر الجنرال منو بتمسكه بالشعائر الاسلامية حتى كان يؤدى صلاة التراويح فى شهر رمضان المعظم بمساجد رشيد ، وكتب الى نابليون ينبئه بذلك ويقول فى رسالة اليه ان هذه الطريقة قد حببته الى نفوس الاهالى .

وكانت حادثة زواج منو فريدة في بابها ، لانه لم يسبقه اليها احد من قواد الجيش الفرنسى .

وقد رزق من زوجته ولدا اسماه (سليمان مراد جاك منو) وكانت ولادته فى شهر شعبان سنة ١٢١٥ (يناير سنة ١٨٠١) وأقامت السيدة زبيدة مع زوجها برشيد وبقيت بها بعد أن تولى القيادة العامة للجيش الفرنسى وظلت بها الى أن احتلها الاتراك والانجليز فخرجت صحبة اخيها لامها السيد على الحمامى وانتقل بها الى الرحمانية ، ولما احتلها الحلفاء قدم بها الى مصر فدخلاها فى أوائل محرم سنة ١٢١٦ ونزلا بدار القائد العام بالازبكية ثم انتقلا الى القلعة ليكونا بمأمن من الاضطرابات . وكان (منو) وقتئذ بالاسكندرية

وبقيت السيدة زبيدة وابنها وحاشيتها بالقاهرة الى أن ابرم الجنرال بليار شروط التسليم وتم جلاء الفرنسيين عنها فأذن لها قائد الجيش الانجليزى بالسفر الى الاسكندرية لتلحق بزوجها ، على ان منو طلب الاذن لها بالسفر الى فرنسا فرحلت اليها على احدى السفن التى اقلت جيش الجنرال بليار ، ولما جلا الجيش الفرنسى عن الاسكندرية ووصل منو الى فرنسا التقى بزوجته هناك وظلت فى عصمته ، على انه يؤخذ من الوثائق والمراجع الصحيحة أن منو قد اساء معاملة زوجته المصرية وتنكر لها وهجرها فى تورينو (بايطاليا) وابدل بها بعض الراقصات واتخذهن خليلات له وتركها تعانى غصص العيش وغضاضة الهجر الى ان توفيت بها .

سياسة منو ازاء المصريين

كان (منو) من دعاة اتخاذ مصر مستعمرة فرنسية ، فهو في سياسته نحو المصريين من حزب الاستعمار ، وهذا وحده كاف للدلالة على ما فى نفسه من نزعة للظلم والعدوان ، وهذه النزعة تفسر لك كثيرا من تصرفاته ، فانه لم يكن فى علاقتــه بالشعب خيرا من سلفه .

ضرائب واتاوات فادحة

اخــذ يجبى الباقى من الغــرامة التى فرضها كليبر على المدينة ، وفرض عليها هو ضريبة جديدة قدرها اربعـــة ملايين فرنك فرضها على ملاك الدور ومستأجريها والملتزمين والتجار وارباب الحرف ، فهال الناس امر هذه الضريبة لقرب عهدهم بالغرامة الفادحة التى فرضها كليبر عليهــم وما قاسوه بسبب جبايتها من الاهوال .

وعهد الفرنسيون أمر تحصيل الضريبة الجديدة الى مشايخ الحارات والمماليك الساكنين بالمدينة ، وكانوا اذا أصابوا دارا مغلقة قد غاب صاحبها يأخذون الضريبـــة التى عليهـا من الجيران !!

وفرضوا كذلك ضريبة اخرى قدرها مليون فرنك على التجار وارباب الصنائع والحرف .

قال الجنرال رينييه Reynier احد قواد الحملة الفرنسية فى هذا الصدد : « ان التجارة التى ارهقتها المكوس

والاتاوات المختلفة قد ازداد كسادها وحلّ بها البوار بعد الامر الذى اصدره (منو) بفرض اتاوات جديدة على نقابات الحرف والتجار ، فان تجار القاهرة وبولاق الذين نهبت دكاكينهم او صودرت متاجرهم بعد الثورة واخمادها ودفعوا نحو نصف الاثنى عشر مليون فرنك التى فرضت على المدينة كغرامة حربية لم يكادوا يتنفسون ويعودون الى العمل حتى باغتتهم الاتاوات الجديدة ، وكذلك حدث لتجار دمياط والمحلة الكبرى وطنطا وغيرها ، ففرضت عليهم ضرائب اوقعتهم فى الضيق فاضطر معظمهم الى اقفال دكاكينهم وترك الاشتغال بالتجارة » .

نهب وارهاق وتخريب

ضج سكان العاصمة من ترادف المظالم ، وضاقت بهم المسالك ، فكثر عدد المهاجرين من المدينة فرارا من الظلم ، فنادى الفرنسيون بين الناس بان من لم يحضر بعد اثنين وثلاثين يوما من المناداة نهبت داره وصودرت أملاكه واعتبر من المذنبين !

وصادروا العروض والبضائع ونهبوها فى مقابل سداد ما فرضوه من الغرامات والاتاوات ، وهدموا كثيرا من الدور وخاصة بيوت من هاجروا من المدينة

واكثروا من الهدم والتخريب لاغراض حربية ، ذلك لانهم اخذوا فى اتمام بناء القلاع التى شرع الجنرال كليبر فى انشائها

لاحاطة المدينة بسلسلة من الحصون تمنع قيام ثورة اخرى ، فهدموا كثيرا من البيوت والعمارات اما لاخذ اخشابها وادوات البناء منها واستخدامها فى بناء القلاع والحصون ، أو كشف الجهات التى شرعوا فى اقامة الحصون عليها ، وهدموا بيوتا اخرى لبيع أخشابها أو اتخاذها وقودا . فعم الهدم والتدمير احياء باكملها كالحسينية ، والخروبى (بمصر القديمة) ، وبركة جناق (بباب الشعرية) ، وبركة الفيل .

وكشفوا سور القاهرة القديم من باب النصر الى باب الحديد وحصنوا ابوابه وأقاموا حولها الاسلاك الشائكة ، وسدوا باب الفتوح بالبناء وكذلك باب البرقية وباب المحروق .

ومن العمارات التى هدموها جامع الجنبلاطية بباب النصر ، ومبانى راس الصوة حيث الحطابة وباب الوزير ، وهدموا اعالى المدرسة النظامية ، ومدرسة القانبية ، والجامع المعروف بالسبع سلاطين ، وجامع الجركسى ، وجامع خوند بركة خارج باب البرقية ، وكذلك ابنية باب القرافة ومدارسها ومساجدها ، والقباب والمدافن الكائنة تحت القلمة ، وجامع الرويعى وقد جعلوه خمارة ، وجزء من جامع عثمان كتخدا القزدغلى بالقرب من رصيف الخشاب ، وجامع خير بك حديد بدرب الحمام بالقرب من بركة الفيل ، وجامع البنهاوى ، والطرطوشى ، والعدوى ، وجامع عبد الرحمن كتخدا المقابل لباب الفتوح ولم يبق منه الا بعض الجدران .

وأمعنوا فى الهدم والتخريب بمختلف الوسائل ، فهدموا مساطب الحوانيت واقتلعوا أحجارها ، وتعللوا فى ذلك برغبتهم توسيع الشوارع والازقة ، وغرضهم الحقيقى منع الناس من اتخاذها متاريس فى حالة قيام الثورة كما حدث فى ثورة القاهرة الاولى والثانية ، وهدموا تلك المساطب فى احياء بأكملها ، كالصليبة ، وقناطر السباع ، ودرب الجماميز ، ودرب سعادة ، وباب الخلق فما يليه الى باب الشعرية فاشتد الضيق بأصحاب الحوانيت لانهم اضطروا بعد هدم مساطبهم ان ينزووا داخل حوانيتهم ، فصارت اشبه بالسجون .

وامعنوا فى مصادرة الاخشاب فقطعوا الاشجار والنخيل من جميع الحدائق والبساتين الكائنة بالقاهرة وبولاق وقصر العينى ، والروضة ، ومصر القديمة ، وخارج الحسينية ، وبركة الرطلى ، وارض الطبالة ، وبساتين الخليج ، وكذلك فى كثير من الاقاليم ، واخذوا ايضا اخشاب المراكب والسفن مع شدة الحاجة اليها للنقل وعدم امكان انشاء مراكب جديدة ، فتعطلت المواصلات مما أدى الى صعوبة النقل وارتفاع أجور الشحن وغلو الاسعار واشتداد الضيق بالناس .

فالسياسة التى اتبعها (منو) حيال الشعب كانت اذن سياسة ارهاب وظلم ، ونهب ومصادرة ، وهدم وتخريب ، فلا غرو أن زادت النفوس نفورا من حكم الفرنسيين على الرغم

من اعتناق « منو » الاسلام ، فان المصريين قد راوا باعينهم وشاهدوا بأنفسهم ان سيل المظالم والمغارم على عهده فى ازدياد مما شجع الانجليز والاتراك على اتخاذ اجراء حاسم ازاء الجيش الفرنسى فى مصر .

الحملة الانجليزية التركية على مصر

ما فتئت الحكومة الانجليزية بعد هزيمة الاتراك فى معركة عين شمس تسعى سعيا حثيثا فى اعداد حملة عثمانية انجليزية للزحف على مصر .

سياسة انجلترا ازاء مصر

كانت سياسة انجلترا حيال مصر تقتضى ان لا ترى الدولة قوية سواها نفوذ فى وادى النيل ، وهى ايضا لا تدع مصر نفسها تنهض وتصبح دولة قوية مهيبة الجانب محفوظة الكيان ، ذلك أن مطامع انجلترا الاستعمارية جعلتها تطمع فى التسلط على وادى النيل واتخاذ مصر قاعدة حربية وبحرية لتضمن سيادتها فى البحر الابيض المتوسط وتبسط نفوذها السياسى والتجارى فى الشرق وفيما وراء البحار ، تلك كانت سياستها من القرن الثامن عشر الى القرن العشرين ، وعلى هذه القاعدة قامت وجهة النظر الانجليزية فى المسألة المصرية ، وكل الحوادث السياسية التى وقعت فى وادى النيل خلال القرن التاسع عشر الى القرن العشرين ، دارت من الوجهة الانجليزية على هذا المحور .

كانت الحكومة الانجليزية تحرض تركيا على محاربة فرنسا واجلائها عن مصر . وكانت ترمى لا الى جلاء الفرنسيين عنها فحسب ، بل اخذت تنتهز الفرص لاحتلالها وتثبيت قدمها فيها ، على انها لم تفلح فى غرضها الاخير بفضل جهاد مصر ونضالها فى الذود عن استقلالها .

كانت مهمة انجلترا فى الحملة العثمانية الاولى مقصورة على معاونتها باساطيلها فى البحر الابيض المتوسط . ولكن هزيمة العثمانيين فى موقعة عين شمس جعلتها تفكر فى الدخول الى ميدان القتال برا واعداد جيش انجليزى يشترك مع الجيش العثمانى فى الزحف على مصر ، لان الجيش العثمانى قد برهن على عجزه عن طرد الفرنسيين منها . فاخذت انجلترا تعد حملة برية . وجعلت فى الوقت نفسه تواصل سعيها فى الاستانة لتعد تركيا حملة جديدة تسير بالاشتراك مع الحملة الانجليزية لتتحد حركاتهما وتتناصر القوات العثمانية والانجليزية برا وبحرا .

وكانت الخطة الحربية التى رسمتها الحكومة الانجليزية بالاتفاق مع الباب العالى ان يزحف الجيش العثمانى برا من طريق العريش وقطية ، وفى الوقت نفسه ينزل فى (أبو قير) جيش انجليزى تركى بحماية الاسطول البريطانى والعمارة التركية ، وينزل بالسويس جيش هندى قادم من الهند على ظهر العمارة الانجليزية فى البحر الاحمر ، فتلتقى القوات الثلاث فى ارض مصر وتطوق الجيش الفرنسى بها .

موقف منو

تمت هذه الخطط والجنرال (منو) غارق فى احـــلامه ومشروعاته .

وقد علم مراد بك وهو فى الصعيد بانباء الاستعدادات لتنفيذ تلك الخطط ، اذ كان يتلقاها من رسل المماليك الذين اوفدهم اليه زميله ابراهيم بك من معسكر الجيش العثمانى ، وكان مراد فى ذلك الحين على تمام الولاء للفرنسيين ، فاعتزم ان يفضى بهذه الانباء الى الجنرال (منو) ليأخذ للامر عدته ، واوفد اليه عثمان بك البرديسى لمناسبة سداد الخراج عن الصعيد واطلعه على رسائل ابراهيم بك وابلغه نبأ اقتراب الحملة التركية الانجليزية وطلب اليه أن يعنى فى حـــالة فتح باب المفاوضة للتفاهم مع تركيا بالمحافظة على الامتيازات التى نالهـا مـراد بك بمقتضى اتفـــاقية كليبر ـ مـراد وهذا هو كل ما عنى به فى هذا الموقف العصيب ، واكد له أنه فى حالة اخفاق المفاوضة وتجدد القتال يضع قواته تحت تصرف القيادة الفرنسية طبقا للاتفاق المبرم بينهما .

على أن منو لم يكترث لهذه الانباء ولم يأخذ عدته لمواجهة الحملة القادمة ، فلما قدمت لم تلق المقاومة التى لقيتها أيام نابليون وكليبر ، وصدقت نبوءة عثمان بك البرديسى التى

تنبأ بها حينما يئس من اقناع الجنرال منو بضرورة الاستعداد لمواجهة الحملة التركية الانجليزية ، فانه قابل احد قواد الحملة وقال له « ان قائدا مثل الجنرال منو سيكون سببا في ضياع الجيش الفرنسى » .

وصول الحملة الانجليزية الى ابو قير

بدأت الجنود الانجليزية تنزل الى شاطىء ابو قير يوم ٨ مارس سنة ١٨٠١ ، وانحدر منهم ذلك اليوم ستة الاف جندى ، فاشتبكوا فى قتال شديد مع قوات الجنرال فريان قائد الجنود الفرنسية بالاسكندرية الذى جاء على عجل فى نحو ٢٠٠٠ من الجنود فأطلقت المدافع الفرنسية نيرانها على الجنود الانجليزية فى طريقها الى اليابسة ، فخسر الانجليز كثيرا من القتلى فى المراكب واثناء نزولهم الى البر ، ودار قتال عنيف على الشاطىء ، لكن القوات الانجليزية كانت اكثر عددا وأعظم استعدادا ، فظهرت على الفرنسيين وهزمتهم ووضعت الحصار حول قلعة ابو قير ، وتقهقر الفرنسيون غربا بعد ان خسروا فى تلك المعركة نحو ٤٠٠ قتيل وجريح وخسر الانجليز نحو ٦٥٠ من القتلى والجرحى .

تراجع جيش الجنرال فريان وعسكر فى المندرة (من ضواحى الاسكندرية) ، أما الانجليز فقد انزلوا بقية جنودهم الى البر ، ودخلت قواربهم المسلحة الى بحيرة أبو قير لتعرقل تقهقر الفرنسيين .

معركة سيدى جابر وهزيمة الفرنسيين

١٣ مارس سنة ١٨٠١

تقدم الانجليز يوم ١٢ مارس قاصدين (المندرة) فانسحب الفرنسيون منها وواصلوا تقهقرهم حتى معسكر قيصر (كامب دى سيزار) وتحصنوا به .

واصل الانجليز تقدمهم الى أن اقتربوا من مواقع الفرنسيين فدارت معركة شديدة بين الفريقين يوم ١٣ مارس سنة ١٨٠١ بالقرب من مسجد سيدى جابر ، ولما التقى الجمعان هجم الانجليز على مواقع الفرنسيين فاصلتهم المدافع الفرنسية نارا حامية اوقعت فى صفوفهم خسائر فادحة وكر عليهم الفرنسيون وحمى وطيس القتال ثم انتهى بهزيمة الفرنسيين وتراجعهم الى أسوار الاسكندرية واحتلال الانجليز معسكر قيصر ، وكان الفضل فى انتصارهم لكثرة عددهم فان الجيش الانجليزى بلغ نحو ١٤٫٠٠٠ مقاتل بينما الجيش الفرنسى نحو ٥٠٠٠ ، وقد تكبد الانجليز خسائر فادحة فبلغ عدد قتلاهم وجرحاهم نحو ١٣٠٠ قتيل وجريح وخسر الفرنسيون نحو سبعمائة بين قتيل وجريح .

وقد سمينا هذه المعركة معركة (سيدى جابر) لانها وقعت على مقربة من المسجد المعروف باسمه ، اما الانجليز فيسمونها معركة ١٣ مارس سنة ١٨٠١ . والفرنسيون يسمونها معركة (نيكو بوليس) ، وقد اخترنا لها اسم (سيدى جابر) وهو

اسم مشهور وموقعه معروف وكان المسجد قائما فى زمن المعركة ، فتسميتها باسمه تقرب الى الذهن حقيقة موقعها .

تقدم الانجليز بعد انتهاء المعركة يريدون الاسكندرية ، لكنهم استهدفوا لنيران المدافع الفرنسية المركبة فى قلعتى (كوم الدكة) و (كوم الناضورة) ، فاضطروا الى الانسحاب وتحصنوا على الاكمات القائمة حول معسكر قيصر .

الحالة فى القاهرة

اغتبط المصريون بقدوم الحملة التركية الانجليزية وانتصاراتها الاولى على الفرنسيين ، وكان هذا الشعور طبيعيا وسليما ، اذ ان الفرنسيين كانوا المحتلين للبلاد ، فوجبت محاربتهم ومشاركة من جاءوا لمحاربتهم ، اما الفرنسيون فقد ساد الاضطراب بينهم منذ ان علموا بقدوم الحملة الانجليزية التركية ، واخذ منو يتوعد كل من يذيع اخبارها بين الاهلين ، فأصدر منشورا مؤرخا ١١ شوال سنة ١٢١٥ (٢٥ فبراير سنة ١٨٠١) يطمئن فيه المصريين ويحذرهم تصديق الاخبار (الكاذبة) وانذر كل من يثبت عليه اذاعة هذه الاخبار بالقتل .

وبالرغم من تكتم الفرنسيين انباء الحملة وتواعدهم من يذيع بين الناس اخبارها فان انباءها قد استفاضت وعلم بها الناس قاطبة ، فلم ير (منو) بدا من ان يكاشف اعضاء الديوان بقدوم الانجليز والعثمانيين .

اجتماع اعضاء الديوان

فانعقد الديوان فى ٦ مارس سنة ١٨٠١ وحضر الاجتماع المسيو (فوريه) القوميسير الفرنسى نائبا عن منو ، وخاطب الاعضاء فى شأن الموقف الحربى . فزعم أن السفن الانجليزية التى قدمت ابو قير قد رجعت ادراجها . وابلغ الاعضاء ترجمة منشور للجنرال (منو) يذكر فيه أن الانجليز « الذين يظلمون كل جنس للبشر » قد ظهروا فى السواحل ومعهم العثمانيون وان الفرنسيين عازمون على ردهم جميعا على اعقابهم ، وطلب من المصريين أن يلزموا السكينة ، وتوعد من يتحرك للفتنة بالقتل ، ونوه فى منشوره بما وقع بالمصريين من القتل والنكال والمغارم فى ثورة القاهرة الثانية ، وامضى المنشور بتوقيع (خالص الفؤاد عبد الله جاك منو) .

فلما تليت ترجمة المنشور علم الاعضاء بخطورة الموقف ، ودارت مناقشة بينهم وبين المسيو فوريه فى تحديد مركزهم حيال هذا المنشور ، وقال بعض الحاضرين ان العقلاء لا يسعون فى الفساد ، واذا تحركت فتنة لزموا بيوتهم ، فأجاب المسيو فوريه : ينبغى للعقلاء ولامثالكم نصيحة المفسدين فان البلاء يعم المفسد وغيره . فقال بعضهم ان العقاب لا يكون الا على المذنب ، قال تعالى « كل نفس بما اكسبت رهينة » وقال آخر قال تعالى ايضا « ولا تزر وازرة وزر أخرى » ، فقال فوريه : المفسدون فيما تقدم هاجوا الفتنة فعمت العقوبة ، والمدافع لا عقل لها حتى تميز بين

المفسد والمصلح ، فانها لا تقرأ القرآن ، وقال آخر : المخلص نيته تخلصه ، فقال فوريه ؟ « ان المصلح من يشمل صلاحه الرعية فان صلاحه فى حد ذاته يخصه فقط والثانى أكثر نفعا » .

وطال البحث والجدل على هذا النحو وانتهت الجلسة على غير نتيجة .

ولما علم الجنرال منو بما دار من المناقشة بين الاعضاء والمسيو فوريه ارتاب فى نية أعضاء الديوان وكتب منشورا آخر ابلغه ذلك اليوم الى فوريه وهذا أرسله الى الاعضاء فى بيوتهم ليطالعهم به ، ومضمونه انذارهم بأنه يلقى عليهم علانية تبعة كل ثورة تحصل من الاهلين ، ولعله أراد بتحميلهم هذه التبعة أن يرهبهم ويكرههم على استخدام نفوذهم لمنع وقوع أى حركة فى العاصمة وغيرها من البلاد .

القى هذا الانذار على عاتق اعضاء الديوان تبعة رهيبة لانهم اذا ضمنوا أنفسهم فمن اين لهم أن يضمنوا سلوك الجماهير ؟ على انهم تلقاء هذا الانذار اجتمعوا بدار الشيخ عبد الله الشرقاوى رئيس الديوان ، وحضر الاجتماع الآغا (المحافظ) والوالى (رئيس الشرطة) والمحتسب ، واحضروا مشايخ الحارات وكبراء الاخطاط ونصحوهم وأنذروهم ، وأمروهم بالتزام الهدوء والسكينة .

واخذ الفرنسيون من جهتهم يستعدون للحرب والقتال وينقلون امتعتهم الى القلعة ، فتوهم الناس انهم سيضربون المدينة بالمدافع ، فشرعوا فى الهجرة من القاهرة الى الأقاليم

اعتقال واضطهاد

اشتد انزعاج الفرنسيين واضطرابهم ، فاعتقلوا السيد محمد السادات من جديد واصعدوه الى القلعة ، فسأل السيد محمد السادات الموكل به عن ذنبه الذى يعتقل من أجله، فقيل له « لم يكن الا الحذر من اثارة الفتنة فى البلد واهاجة العامة لبغضك للفرنسيين لما سبق لك منهم من الايذاء » .

وبقى السيد السادات رهن الاعتقال الى ان جلا الفرنسيون عن مصر ، ومات ولده اثناء الاعتقال فلم يفرجوا عنه وأذنوا له فقط بحضور الجنازة ونزل من القلعة يصحبه حارس الى أن انتهت الجنازة وعاد به الحارس الى السجن .

واعتقلوا كذلك حسن اغا المحتسب وحبسوه بالبرج الكبير بالقلعة . ولما عزم الجنرال (منو) على السفر الى الاسكندرية لقتال الانجليز والترك استدعى اليه اعضاء الديوان ورؤساء التجار وآذنهم بعزمه على السفر ، وانه اناب عنه الجنرال بليار « قائمقام » وقائدا على الجنود الباقين بالقاهرة .وطلب اليهم ان يسهروا على ضبط الأمن فى المدينة . وابلغهم انه كان فى عزمه اعتقالهم رهائن لمنع وقوع الفتن . لكنه استصوب

ارجاء ذلك . وسافر (منو) بجيشه يوم ١٢ مارس سنة ١٨٠١ ولم يعد بعد ذلك الى القاهرة .

واتسعت حركة القبض والاعتقال عندما وردت الأخبار بقدوم جيش عثمانى آخر برا من جنوب سورية بقيادة يوسف باشا ضيا واحتلاله العريش . واشتد اضطراب الفرنسيين فى القاهرة . فاستدعى المسيو فوريه اعضاء الديوان للاجتماع يوم ٢٤ مارس سنة ١٨٠١ وابلغهم المسيو فوريه انه تحقق لهم ان الجيش العثمانى بقيادة يوسف باشا ضيا قادم الى مصر . وان السلطة الفرنسية رات بناء على ذلك اعتقال بعض الأعيان كما تقضى بذلك ضرورات الحرب ، وتلطف فى ابلاغ الاعضاء نبا الاعتقال . وانتهى الكلام بالقبض على اربعة من أعضاء الديوان وهم الشيخ عبد الله الشرقاوى ، والشيخ محمد المهدى ، والشيخ مصطفى الصاوى ، والشيخ سليمان الفيومى ، فاصعدوهم الى القلعة فى الساعة الرابعة من الليل ، واجلسوهم بجامع سارية ونقلوا الى مكانهم السيد محمد السادات فاستمر واياهم بالمسجد . وكلفوا الأربعة الباقين من أعضاء الديوان وهم الشيخ خليل البكر ، والشيخ محمد الامير ، والشيخ موسى السرسى ، والشيخ عبد الرحمن الجبرتى مؤرخ ذلك العصر ؛ ان يتولوا النظر فى شئون البلد وان يجتمعوا بالجنرال بليار ولا ينقطعوا عنه . وابلغوهم ان المشايخ المعتقلين لا خوف عليهم ولا ضرر ، وانهم معززون مكرمون ، وخصصوا لكل شيخ منهم خادما يختلف اليه فى اعماله وما يحتاج اليه

من منزله ». وسمحوا لمن يريد زيارتهم من اصـدقائهم بأن يزورهم فى القلعة بتصريح كتابى من الجنرال بليار . واعتقل الفرنسيون كذلك نحو خمسة عشر من أعيان القاهرة .

ثم أفرجوا فى ٢٦ مارس عن الشيخ سليمان الفيومى وأذنوا له بالاجتماع هو واعضاء الديوان للنظر فى شؤون البلد ».

على أن حالة الاضطراب التى سادت المدينة قـد جعلت الديوان قليل العمل ، واشـتد فزع الفرنسيين وخاصـة بعد ان وردت انباء معركة كانوب التى سيرد الكلام عنها فيما بعد واستمروا ينقلون امتعتهم وذخائرهم الى القلعة . وانتقل المسيو فوريه الى القلعة أيضا ولم ينزل منها . وارسل الى الشيخ سليمان الفيومى بأن ينقل أمتعة الديوان الى داره ، فنقلها ولم يبق منها الا الحصر . واخذ اعضاء الـديوان يحضرون كعادتهم فكانوا يفرشون سجادتهم ويجلسون عليها وقت الاجتماع ثم ينصرفون ».

وقبضوا على الشيخ محمد الأمير احد أعضاء الديوان فى أوائل محرم سنة ١٢١٦ (أواخر مايو سنة ١٨٠١) واعتقلوه مع المشايخ بجامع سارية بحجة ان ابنه كان من المحرضـين على ثورة القاهرة الثانية وانه لما انتهت الثورة هاجر من المدينة الى الوجه البحرى ثم حضر الى مصر فأقام بها اياما ، ثم قصد الى (فوه) باذن من السلطة الفرنسية ، فلما تجدد القتال واشتد انزعاج الفرنسيين واخذوا الناس بأدنى شبهة وتقرب اليهم المنافقون بالدعاية والتجسس وشى البعض للجنـرال

بليار فى ابن الشيخ الأمير والقى فى روعه أنه انضم الى الجيش العثمانى . فاستدعى الجنرال بليار الشيخ وسأله عن ابنه فاجاب بأنه لم يزل فى فوه . فقال له الجنرال انه لم يكن هناك بل هو عند القادمين (العثمانيين) ، فأنكر الشيخ ذلك وقال ان شئتم ارسلت اليه بالحضور . فأمهله الجنرال بليار ثمانية أيام اى مسافة الذهاب الى فوه والمجىء منها فى ذلك العصر . ثم كرر عليه الطلب بلسان وكيل الديوان فوعده الشيخ بحضور ابنه أو حضور الجواب بعد يومين ، ولما انقضى الميعاد ولم يحضر ابنه اعتقله الفرنسيون وحبسوه فى القلعة .

وقد أفرجوا فى السادس عشر من محرم سنة ١٢١٦ عن الشيخ مصطفى الصاوى لمرضه .

معركة كانوب وهزيمة الفرنسيين

٢١ مارس سنة ١٨٠١

رحل الجنرال (منو) عن القاهرة ومضى قاصدا الاسكندرية فبلغ الرحمانية . وسار منها الى دمنهور حيث لحق بــه القائدان رينييه Reynier ورامبون Rampon

ثم واصل سيره فبلغ الاسكندرية يوم ١٩ مارس ، واستعد للمعركة التى نشبت بينه وبين الجيش الانجليزى . وكان الانجليز فى غضون ذلك قد أنزلوا كل ما بسفنهم من الذخائر والمدافع . واستعدوا للقتال استعدادا عظيما .

اعتزم الجنرال (منو) ان يهاجم الجيش الانجلزى ، وخشى اذا هو تأخر عن الهجوم ان يباغته الانجليز ويضربوا الحصار على الاسكندرية فيصبح الفرنسيون محصورين بين أسوارها ويستهدفون للمجاعة اذا أحكم الانجليز حصارها براو بحرا ، فضلا عن أن الجيش الانجليزى يصبح حرا فى التوغل فى داخلية البلاد ، فرأى ان يغامر بمهاجمة الجيش الانجليزى على امل أن يكون النصر حليفه ، كما انتصر نابليون على الأتراك فى معركة أبو قير من قبل .

على أن الفرق كبير بين الموقفين ، فان نابليون جمع فى يولية سنة ١٧٩٩ كل جنوده وهاجم بهم الجيش التركى قبل أن ينظم مصطفى باشا صفوفه ، وكان له من عبقريته وسرعته فى القتال ما كفل له النصر فى واقعة أبو قير ، لكن (منو) كان مجردا من الكفاية الحربية . فضلا عن انه ترك نصف الجيش تقريبا فى القاهرة وأبطأ فى التقدم بالنصف الآخر ، وترك للانجليز الوقت الكافى لتنظيم صفوفهم وتثبيت أقدامهم شرقى الاسكندرية ، وقد أدرك معظم القواد الفرنسيين خطأ منو فى مغامرته المتأخرة ونصحوا اليه أن يتريث فى الأمر حتى يأخذ له عدته . لكنه اصر على خطته . فوقعت الواقعة يوم ٢١ مارس سنة ١٨٠١ ، وهى المعروفة بمعركة كانوب .

كانت مواقع الانجليز فى خط يمتد من البحر شرقى معسكر القيصر الى ترعة الاسكندرية (المحمودية الآن) بالقرب من حجر

النوبية . ومواقع الفرنسيين على بعد نحو اربعة آلاف متر تقريبا شرقي باب رشيد في خط يمتد من البحر الى ترعة الاسكندرية ، بالقرب من النقطة المعروفة الآن بمحطة (النزهة) . وقد سميت المعركة واقعة (كانوب) لأنها وقعت على مقربة من باب من ابواب الاسكندرية القديمة يسمى باب كانوب (شرقي باب رشيد) ينتهي اليه شارع من شوارعها القديمة كان يعرف بشارع كانوب ويعرف الآن بشارع باب رشيد أو باب شرقي (طريق الحرية الآن) .

في هذا الميدان نشبت المعركة . وهي من أهم المعارك التي كانت لها نتائج حاسمة في سير القتال ، وتطور الموقف الحربي والسياسي في مصر . تولى قيادة الجيش الفرنسي فيها الجنرال (منو) والجيش الانجليزي الجنرال رالف ابركرومبي . وكان موقف الانجليز من بدء القتال أرجح من مركز الفرنسيين ، فقد كان الجيش البريطاني متفوقا في العدد اذ كان مؤلفا من نحو ١٦٫٠٠٠ من المشاة ومائتين من الفرسان بينما كان الجيش الفرنسي لا يزيد على ٨٫٣٥٠ من المشاة و ١٫٣٧٠ من الفرسان . هذا فضلا عن أن الجيش الانجليزي كانت تحمي ميمنته من البحر بعض السفن المدفعية وميسرته بعض القوارب المسلحة في بحيرة ابو قير (التي لم تكن جففت بعد) ، فكان لهذه العمارة البحرية اثر كبير في سر القتال ، اذ كانت تصب قنابلها على الصفوف الفرنسية اثناء هجومها . فالجيش الفرنسي كان اذن اقل من الانجليزي عددا واضعف مركزا . ولو تولى قيادته قائد اكفأ من الجنرال

(منو) لما تغيرت نتيجة القتال تغيرا جوهريا ، اللهم الا في مبلغ الخسائر التى نالت الفرنسيين ؛ فان أوامر (منـو) عرضت صفوفهم للخسائر الفادحة . وقد انتهت المعركـة بهزيمة الفرنسيين .

ولما رأى الجنرال منو أن لاسبيل الى استمرار القتـال أصدر امره بالانسحاب الى الاسكندرية . فانتهت المعركة في نحو الساعة الحادية عشرة بعد أن خسر الجيش الفـرنسى نحو ألف وخمسمائة من القتلى وألف من الجرحى . وكان من القتلى نخبة من القواد والضباط .

وبالرغم من انتصار الانجليز فان خسارتهم كانت فادحة ؛ فقد فقدوا نحو ١٥٠٠ قتيل منهم قائد الجيش نفسه الجنرال ابركرومبى Abercromby ، وجرح بعض قوادهم ، وخلف ابركرومبى في قيادة الجيش البريطانى الجنرال هتشنسون .

كان من نتائج معركة كانوب ان ارتد الجيش الفرنسى الى أسوار الاسكندرية ، وانفتح الطريق أمام الجيش الانجليزى للتوغل فى البلاد . على أنه بالرغم من تضعضع الجيش الفرنسى وما حل به من الخسائر فى معارك ٨و١٣و٢١ مارس ، فقد أحجم الانجليز عن الزحف ، وكان الجنرال هتشنسون شديد التردد كثير الوجل . فقضى وقتا طويلا ، قبل أن يبت رأيا فى الهجوم ، ولم يكن الجنرال (منو) اقل منه ترددا ، وكانت الظواهر تدل على ان الانجليز لا يتجاوزون الشواطىء ولا يلبثون أن يعودوا الى سفنهم .

والواقع انهم كانوا مترددين في التقدم الى داخل البلاد ، وفكر بعض قوادهم في الانسحاب والرجوع الى السفن لولا قدوم المدد على ظهر العمارة التركية التى جاءت الى ابو قير يوم ٢٥ مارس سنة ١٨٠١ ، بقيادة حسين قبطان باشا تقل ستة آلاف جندى من خيرة الجنود الانكشارية ، فنزلوا الى البر وانضموا الى الجيش الانجليزى فازداد بهم قوة وزحف فى داخل البلاد . واحتل رشيد ثم الرحمانية .

واحتل رشيد ثم الرحمانية .

زحف الجيش العثمانى

معركة (الزوامل) ــ ١٦ مايو سنة ١٨٠١

أما الجيش العثمانى الذى قدم من سورية بقيادة الصدر الأعظم يوسف ضيا وعدده نحو عشرين الف مقاتل فقد تحرك من العريش خلال شهر ابريل وتابع سيره دون مقاومة ، وأخلى الفرنسيون قطية والصالحية وبلبيس بعد أن نسفوا قلاعها والمخازن التى كانت لهم بها .وارتدت حامياتها الى القاهرة . ولما وصل الصدر الأعظم الى بلبيس عزم الجنرال بليار على أن يهاجمه بجيشه قبل أن يتفرغ لصد الجيش الانجليزى العثمانى القادم من رشيد . وكان بليار يأمل أن يهزم الجيش التركى كما هزمه كليبر من قبل .

كان عدد الجنود الذين يقودهم بليار نحـــو عشرة آلاف مقاتل . فترك بالقاهرة قوة من المشاة تحتل الجيزة والقلاع

المشرفة على المدينة ، وسار ببقية جيشه لملاقاة الصدر الأعظم . فوصل يوم ١٦ مايو الى الزوامل فى منتصف الطريق بين الخانكة وبلبيس . فاشتبك بطلائع الجيش العثمانى فيها ، ودارت معركة بدات بانتصار الفرنسيين وانتهت بهزيمتهم وتراجعهم الى القاهرة .

وفى خلال ذلك استولى على دمياط بعد أن انسحب منها الفرنسيون . واخلى الفرنسيون كذلك قلعة عزبة البرج وقلعة البرلس .

تحرج موقف الفرنسيين فى القاهرة

موت مراد بك

امتنع الجيش الفرنسى فى القاهرة واتخذ فيها خطة الدفاع . وفكر الجنرال بليار منذ تجدد القتال فى الاستنجاد بحليف الفرنسيين مراد بك ، وطلب اليه العمل بشروط الاتفاق المبرم بينه وبين كليبر .

فشرع مراد بك فى امداد بليار وسار برجاله الى مصر ، لكنه لم يكد يصل الى سوهاج حتى اصيب بالطاعون وادركته الوفاة يوم رابع ذى الحجة سنة ١٢١٥ ــ ١٨ ابريل سنة ١٨٠١ ــ ودفن بسوهاج عند الشيخ العارف ، ومن ابلغ ما قاله الجبرتى فى نعيه : « انه كان من أعظم الاسباب فى خراب الاقليم المصرى بما تجدد منه ومن مماليكه واتباعه من الجور والتهور ومسامحته لهم . فلعل الهم يزول بزواله » .

وكانت وفاته ضربة كبيرة اصابت آمال الفرنسيين ، لانهم فقدوا بموته حليفا قويا كان يمكن أن يمدهم بما لديه من حول وقوة . وحزنوا عليه حزنا شديدا . واختار المماليك عثمان بك الطنبورجي خلفا له . واعتمده الفرنسيون خليفة لمراد بك واميرا على الصعيد . فأرسل هذا الى بليار يعرب له عن ولائه وولاء المماليك للفرنسيين . لكنه بعد ذلك نقض المعاهدة لما رأى كفة الانجليز والأتراك راجحة واتصل بابراهيم بك زميله القديم الذى جاء صحبة الصدر الاعظم .

انتشار الوباء

وازداد مركز الفرنسيين حرجا باستفحال فتك الطاعون فى البلاد وخاصة فى القاهرة والصعيد . بدأ هذا الطاعون فى شهر يناير سنة ١٨٠١ واشتدت وطأته فى اوائل ابريل . فكان يموت به فى اليوم نحو مائة من الأهالى وعشرين من الفرنسيين . ومات من هؤلاء فى القاهرة نحو خمسمائة بالرغم من الجهود التى بذلها اطباء الجيش الفرنسى فى مقاومته . ولم يشهد الناس وباء يحاكيه فى شدة وطأته منذ وباء سنة ١٧٩١ المعروف بوباء اسماعيل بك .

وقد وصف الدكتور لارى Larrey كبير جراحى الحملة الفرنسية وباء سنة ١٨٠١ فى مشاهداته عن الأمراض فى مصر ، فقال انه اودى بحياة مائة وخمسين الف نسمة من المصريين فى القاهرة والوجه القبلى .

اجتماع بليار باعضاء الديوان

اجتمعت كل هذه الاسباب فكانت نذيرا للفرنسيين بانقراض استعمارهم فى مصر ، على ان الجنرال بليار اظهر الجلد امام الشعب ، وتظاهر بان فى استطاعته مقاومة الجيوش الزاحفة على القاهرة ، وعاد يتهدد ويتوعد وينذر المصريين بالانتقام والنكال اذا جنحوا الى الثورة ، فاستدعى اعضاء الديوان فى شهر محرم سنة ١٢١٦ ، وخاطبهم على لسان المترجم قائلا :

« نخبركم بأن الخصم قد قرب منا ، ونرجوكم ان تكونوا على عهدكم مع الفرنساوية ، وان تنصحوا اهل البلد والرعية بان يكونوا مستمرين على سكونهم وهدوئهم ، ولا يتداخلوا فى الشر والشغب ، فان الرعية بمنزلة الولد ، وانتم بمنزلة الوالد ، والواجب على الوالد نصح ولده وتاديبه وتدريبه على الطريق المستقيم التى يكون فيها الخير والصلاح ؛ فانهم ان داموا على الهدوء حصل لهم الخير ونجوا من كل شر ، وان حصل منهم خلاف ذلك نزلت عليهم النار واحرقت دورهم ، ونهبت اموالهم ومتاعهم ، ويتمت اولادهم وسبيت نساؤهم والزموا بالاموال والفرد (جمع فردة اى ضريبة) التى لا طاقة لهم بها ، فقد رايتم ما حصل فى الوقائع السابقة ، فاحذروا من ذلك فانكم لا تدرون العاقبة ، ولا نكلفكم المساعدة لنا ولا المعاونة لحرب عدونا ، وانما نطلب منكم السكون والهدوء لا غير » ، فأجابه الاعضاء بقولهم « كذلك » .

على أن الحلفاء (الانجليز والأتراك) قد واصلوا تقدمهم ، والتقوا قريبا من امبابه .

فازداد مركز الجيش الفرنسى ضعفا ازاء قوات الحلفاء وتحفز سكان القاهرة للثورة عليه .

اتفاقيـــة الجـــلاء

٢٧ يونيــه سنة ١٠٨١

ادرك الجنرال بليار ضعف مركزه ، فاجتمع وقواد الجيش وتداولوا فى الأمر ، فاتفقوا رأيا على الاذعان للجلاء عن مصر ، وعرضوا المفاوضة مع الجيش الانجليزى والجيش العثمانى لتوقيع اتفاق جلاء الفرنسيين .

وقد استمرت المفاوضة أربعة أيام وانتهت بالاتفاق على جلاء الجيش الفرنسى عن مصر ، ووقع المندوبون على هذا الاتفاق ، وتقتضى شروطه أن تجلو الجنود الفرنسية البرية والبحرية التى تحت قيادة الجنرال بليار عن مدينة القاهرة وقلاعها وقلاع بولاق والجيزة وعن كل جهة تحتلهـــا من الأراضى المصرية ، وان يكون جلاء الجنود باسلحتهم وأمتعتهم ومدافعهم وذخائرهم بطريق فرع رشـــيد . ومن رشيد وأبو قير يبحرون الى فرنسا على نفقة الحلفاء ، وأن يتم

الجلاء فى اقرب وقت ممكن بحيث لا يزيد على خمسين يوما من يوم التصديق على الاتفاق ، وحدد الاتفاق للجلاء عن القاهرة وبولاق اثنى عشر يوما ».

وتعهد قواد الجيش الانجليزى والتركى بتقديم المراكب اللازمة لنقل الجنود وامتعة الجيش واثقاله ، وان ترافق الفرنسيين فى انسحابهم كتائب من الجيش الانجليزى والتركى لتقديم المؤونة اللازمة للجنود ، وتعهد الانجليز والاتراك ايضا بتقديم السفن اللازمة لنقلهم الى ثغور فرنسا .

والمتأمل فى نصوص هذا الاتفاق يجد انه لا يختلف فى جوهره عن معاهدة العريش وهى المعاهدة التى رفضت الحكومة الانجليزية تنفيذها ونقضتها ثم عادت الى قبول اتفاق لا يختلف عنها بعد أن سفكت الدماء وضاعت الأرواح وخربت البلاد وعم البلاء .

اطلاق سراح المعتقلين

علم الناس فى القاهرة نبأ الصلح ، فقابلوه بابتهاج عظيم وأفرج الفرنسيون عن الأسرى العثمانيين ثم اطلقوا سراح المشايخ والاعيان المعتقلين فى القلعة وباقى المحبوسين من الفلاحين والعرب ، واستعد الجنود الفرنسيون للجلاء ونقل مهماتهم من القلعة وباقى قلاع المدينة .

جلاء الفرنسيين عن القاهرة

وقد اخلى الفرنسيون قلعة المقطم وباقى القلاع والحصون والمتاريس وانتقلوا الى الروضـــة وقصر العينى والجيزة استعدادا لنزولهم فى السفن التى اعدت لنقلهم بالنيل الى رشيد تنفيذا لشروط الصلح .

وفى ١٤ يوليه سنة ١٨٠١ (٤ ربيع الأول سنة ١٢١٦) اخلوا قصر العينى والروضة والجيزة وأقلعت بهم المراكب وعددها ثلثمائة مركب الى رشيد ، وبذلك تم جلاؤهم عن القاهرة وضواحيها ، واخذوا معهم رفات الجنرال كليبر ، وساروا من رشيد الى ابو قير ومن هناك ابحرت بهم السفن فى اوائل شهر اغسطس سنة ١٨٠١ الى فرنسا ، وجلوا نهائيا عن الديار المصرية .

وكان عددهم يوم جلائهم نحو ١٣٫٠٠٠ رجل منهم ٩٫٠٠٠ مقاتل صالحون للقتال والباقون من الجنود المرضى والرجال المدنيين ، وبذلك تم جلاء أكثر من نصف الجيش الفرنسى الذى كان يحتل مصر ، وبقى النصف الآخر فى الاسكندرية بقيادة الجنرال منو .

الجـــلاء عن الاسكندرية

وقد جنح الجنرال منو هو ايضا للتسليم ووقع فى ٣١ أغسطس سنة ١٨٠١ اتفاقية الجلاء عن الاسكندرية ، وتقتضى

شروطها ان يتم جلاء الجنود الفرنسية عن المدينة وقلاعها وملحقاتها فى عشرة ايام من يوم التوقيع على الاتفاق ، وان يسلم الفرنسيون السفن التى لهم ، وان تنقل الجنود الفرنسية على سفن الحلفاء ومعهم أسلحتهم وأمتعتهم وعشرة مدافع من مدافعهم ويسلموا باقى مدافعهم وذخيرتهم ثم تقلهم السفن الى أحد الثغور الفرنسية بالبحر الأبيض المتوسط ، وان يسلم اعضاء المجمع العلمى ولجنة العلوم والفنون جميع الآثار والمجاميع والخرط والرسوم والمخطوطات التى جمعوها فى مصر الى قواد الحلفاء .

بدا الفرنسيون يوم ٢ سبتمبر سنة ١٨٠١ يسلمون قلاع المدينة واستحكاماتها ومدافعها والسفن الحربية التى كانت لهم فى الثغر ، ولما جاء دور تسليم مقتنيات أعضاء المجمع العلمى ولجنة العلوم والفنون احتج اولئك الأعضاء على حرمانهم ثمرة ابحاثهم وجهودهم واكتشافاتهم ، وأوفدوا ثلاثة منهم لمقابلة الجنرال هتشنسون قائد الجيش الانجليزى لاقناعه بالعدول عن هذا الشرط ، فرفض طلبهم ، فأجمعوا رأيا على الامتناع عن تسليم تلك الكنوز العلمية ، وأنذروا القائد الانجليزى باحراقها بدلا من التفريط فيها وتسليمها ، وأبلغوه أنهم يلقون على عاتقه تبعة حرمان العلم من هذه النفائس فى حالة اصراره على طلبه ، فبهت القائد الانجليزى أمام هذا التهديد ، وقبل مكرها أن يتنازل عن نفاذ هذا الشرط وترك لهم مقتنياتهم ، بيد انه منعهم من أخذ العاديات التى ارادوا تهريبها معهم وحجزها بحجة انها ملك مصر ،

لكن مصر حرمت منها ونقلها الانجليز الى بلادهم وزانو بهـا متاحفهم ، ومن هذه الآثار (حجر رشيد) المشهور الموجود الى اليوم فى المتحف البريطانى بلندن .

واقلعت السفن المقلة للجنود الفرنسيين من الاسكندرية فى خلال شهر سبتمبر سنة ١٨٠١ قاصدة الى فرنسا ، وكان عددهم يوم رحيلهم ٧٢٠٠ من الجنود و ١٥٠٠ من البحـارة و ١٤٠٠ من المرضى و ٦٨٠ من المدنيين ، وكان اخر من ابحر منهم الجنرال (منو) الذى أصيب بالطاعون فى أواخر ايامه فغادر ثغر الاسكندرية يوم ١٨ أكتوبر سنة ١٨٠١ .

وبجلاء الفرنسيين عن الاسكندرية طويت صحيفة الاحتلال الفرنسى فى مصر وخلصت البلاد لأهلها ، ثم احبطوا على التعاقب مؤامرات الانجليز والترك والمماليك فى البقاء فيها بعد جلاء الفرنسيين ، كما سنبين ذلك فيما يلى .

الفصل السابع عشر

نتائج ظهور العامل القومى
على مسرح الحوادث السياسية

اخذ العامل القومى يظهر على مسرح الحوادث السياسية خلال الحملة الفرنسية ، ذلك حين نهضت الامة لمقاومة الاحتلال الفرنسى بكل ما أوتيت من حول وقوة ، وجادت بكل تضحية ، واحتملت ضروب العنت وصنوف الأذى لتتخلص من احتلال الفرنسيين ، وظل العامل القومى محتفظا بقوته بعد جلاء الجيش الفرنسى ، فلم يستطع الترك ، ولا المماليك ، ولا الانجليز ، ان يهزموه ، أو يقهروه ، أو يبعدوه عن الميدان ، وكان من نتائجه بعد انتهاء الحملة الفرنسية ثورة الشعب على حكم المماليك ، ثم على الوالى التركى ، ثم المناداة بمحمد على واليا مختارا على مصر سنة ١٨٠٥ ، ثم

اخفاق الحملة البريطانية التى جردتها انجلترا لتحقيق أطماعها فى وادى النيل ، وهزيمتها فى رشيد والحماد سنة ١٨٠٧ .

ولقد أوجزنا القول فى الفصول السابقة عن مبلغ مقاومة الأمة للاحتلال الفرنسى ومدى الحركات الشعبية التى حدثت فى خلال تلك السنوات ، وانتهينا من ذكر النتائج الأولى لظهور العامل القومى .

والآن فلنتكلم عن النتائج التى اعقبت جلاء الفرنسيين .

وتمهيدا لهذا البيان يجدر بنا أن نوضح الحالة السياسية فى مصر بعد انتهاء الحملة الفرنسية .

الحالة السياسية فى مصر بعد جلاء الفرنسيين

جلا الفرنسيون عن مصر سنة ١٨٠١ بعد احتلال ثلاثة اعوام وشهرين ، فتنازع السلطة فى البلاد ثلاث قوى مختلفة المصالح متباينة الاغراض ، اتحدت وقتا ما على محاربة الفرنسيين ولما تم لها النصر عليهم بدأت كل قوة تعمل على تحقيق أطماعها الخاصة فى وادى النيل .

هذه القوى الثلاث هى : الاتراك ، والانجليز ، والمماليك .

الاتــراك

تطلعت تركيا الى بسط حكمها المطلق فى مصر بحجة أنها فتحتها بحد السيف ، وارادت أن تجعل منها ولاية أو عدة

ولايات تحكمها كما كانت تحكم ولايات السلطة العثمانيـــة بولاتها الذين لم تر البلاد منهم منذ عهد الفتح العثمانى سوى الظلم والفوضى وسوء الادارة .»

ارادت تركيا أن تستخلص مصر لنفسها ، لذلك استقر عزمها على محاربة المماليك والقضاء عليهم حتى لا ينازعوها سلطة الحكم فى البلاد .

فكانت تعليماتها للصدر الاعظم يوسف ضيا تقضى بابادة بقية المماليك كيلا تقوم لهم قائمة ، او ابعـــادهم عن مصر واسكانهم فى ولاية أخرى من ولايات السلطة العثمانية .

كانت القوات العثمانية فى مصر مؤلفة من جيشـــين ، الجيش الأول وعدده نحو ٢٥ الى ٣٠ الف مقاتل بقيادة الصدر الأعظم ، ويتألف من الانكشارية وحرس الوزير والجنـــود الذين حشدهم فى سورية ، والمعسكر العام لهـــذا الجيش فى القاهرة ، وجنوده تحتل العاصمة ومعظم بنـــادر مصر الوسطى والصعيد كبنى سويف ، والمنيا ، واسيوط .

أما الجيش الثانى فكان مرابطا شمال الدلتا بقيادة حسين قبطان قومندان العمارة العثمانية التى كانت راسية فى خليج ابو قير . وعدد هذا الجيش نحو ستة آلاف مقاتل معظمهم من الأرنؤد والانكشارية يحتلون المواقع القريبة من مرسى العمـــارة .

الانجليز

كانت انجلترا تطمع فى ان تبسط نفوذها فى وادى النيل وتحتل بعض المواقع المهمة على شواطئه فى البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر لتضمن لنفسها السيادة فى البحار وترقب طريقها الى الهند .

وكان الجيش الانجليزى فى مصر عند جلاء الجنـــود الفرنسيين مؤلفا من ستة عشر الف مقاتل بقيادة الجنـرال هتشنسون يحتلون الاسكندرية ، ورشيد ، ودمنهور ، ويلحق به الجيش الذى قدم من الهند بقيادة الجنرال بيرد Baird وعدده نحو ستة آلاف مقاتل معسكرين فى الجيزة .

كانت انجلترا ترمى الى استدامة احتلالها لتلك المواقع وقد احتلتها مرتكنة على معاهدة التحالف المعقودة بينها وبين تركيا فى ٥ يناير سنة ١٧٩٩

على انها لم تكن ترمى من هذه المعاهدة الى طرد الفرنسيين من مصر فحسب ، بل كانت لها أطماع أخرى تضمرها لوادى النيل ، ومع ان المعاهدة كانت مقصورة على « ضمان الحكومة البريطانية سلامة أملاك السلطنة العثمانية بلا استثناء كما كانت قبل الحملة الفرنسية على مصر » لكن اللورد الجين Elgin سفير انجلترا المفوض فى الاستانة توصل الى اضافة شرط ملحق بالمعاهدة وهو « أن الجيش الانجليزى لا يجلو عن مصر الا بعد استتباب الأمن فى ربوعها » .

فالحكومة الانجليزية لم تضع هذا الشرط الاضافى عبثاً بل كانت ترمى الى التذرع به لتعطيل اجل احتلالها للبلاد ما استطاعت الى ذلك سبيلا . وما اشبه هذا النص بالحجج التى تذرعت بها بعد ثمانين عاما لتسيغ لنفسها احتلال مصر سنة ١٨٨٢ وتطيل اجل هذا الاحتلال ، والتاريخ يعيد نفسه .

المماليك

أما المماليك فقد كانوا يطمعون بعد انتهاء الحملة الفرنسية فى استعادة حكمهم فى مصر ، وحجتهم انهم حكامها الاقدمون الذين دانت لهم البلاد السنين الطوال ، وقد فطنوا الى أن الاتراك يأتمرون بهم ويريدون التخلص منهم ، فاتجهوا بأنظارهم الى الانجليز يطلبون حمايتهم ويستمدون منهم المعونة لتحقيق أطماعهم ، وكانت خطة الانجليز حيال المماليك مغرية لهم على الاسترسال فى اوهامهم وآمالهم ، ذلك ان الجنرال هتشنسون سعى قبل أن يزحف على القاهرة فى ضم المماليك من خلفاء مراد بك الى صفوفه ، وكانوا فى ذلك الحين موالين للفرنسيين بحكم اتفاق مراد ــ كليبر ، فوعدهم أن يعيد لهم سلطتهم القديمة فى مصر اذا هم انضموا الى جيوش الحلفاء .

فرأى المماليك ان صفقة الانجليز اربح ، وان نجم الفرنسيين آخذ فى الافول ، فانتقضوا عليهم ونكثوا اتفاق مراد بك

وانضموا الى صفوف الانجليز ، وعزم هؤلاء على أن يتخذوهم صنائع لسياستهم فى وادى النيل ، فايدوهم وناصروهم ومالؤوهم على استعادة سلطتهم القديمة فى مصر ، ولا عجب فى ذلك فان حكم المماليك قائم على الظلم والفوضى ، ومن مصلحة انجلترا انتشار الفوضى والمظالم فى البلاد لتجد سبيلا لاحتلالها والتدخل فى شؤونها ، من أجل ذلك توثقت عرى المودة بين المماليك والانجليز واعتقد المماليك ان سلامتهم فى الاستظلال بحمايتهم . ولما انتهت الحرب بجلاء الفرنسيين ابدى الجنرال هتشنسون عطفا كبيرا على مطالب المماليك .

تضعضع قوة المماليك

على أن المماليك تضعضت قوتهم وتحطمت شوكتهم فى المعارك التى نشبت بينهم وبين الفرنسيين خلال الحملة الفرنسية ، ولم يبق منهم سوى عدد يتراوح بين ثلاثة آلاف وخمسمائة الى أربعة آلاف مملوك بما فيهم بضع مئين من الأرقاء الذين اشتروهم من القوافل القادمة من سنار ، وضموهم الى صفوفهم ، وبضع مئات من الفرنسيين الذين لم يرحلوا مع الجنود الفرنسية حين الجلاء وآثروا البقاء فى مصر فانضموا الى صفوف المماليك .

فمثل هذه القوة لم تكن لتقف أمام قوة الجيش العثمانى المرابط فى مصر وخاصة بعد ان منعت الدولة جلب الرقيق من بلاد الشركس فنضب معين المماليك وحرموا من اكمال النقص الواقع فى صفوفهم .

هذا فضلا عن عوامل الانقسام والتنافس التي كانت تضعف قوتهم وتصدع وحدتهم ، فان التنافس القديم الذي كان بين حزبي ابراهيم بك ومراد بك قبل الحملة الفرنسية قد استمر بعد انتهائها ، فكان لكل منهما أنصار وشيعة من الأتباع والبكوات ، ولما مات مراد بك استمر الانقسام بين أنصار ابراهيم بك وخلفاء مراد بك ، وقد استخدمت تركيا هذا التنافس لتضرب المماليك بعضهم ببعض .

وكان المماليك مختلفين كذلك في وجهة النظر السياسية ، ففريق منهم وهو الأغلب كانوا يرون السلامة في الاستظلال بحماية الانجليز يتخذونهم حماة واولياء ، وعلى راس هذا الفريق محمد بك الألفي .

وفريق آخر كان يرى الاستنجاد بفرنسا ، ومنهم عثمان بك البرديسي ، وفريق ثالث يرى الكف عن القتال والتزام الحياد وموالاة الاتراك ، وعلى رأسهم عثمان بك حسن ، وكان الالفي والبرديسي زعيمي المماليك المرادية (أتباع مراد بك) ، وكان لابراهيم بك حزب آخر يتبعه ينافس البكوات المرادية في الزعامة والسلطة ، على أن ابراهيم بك قد تضعضعت شوكته لكبر سنه فلم يكن له من الاحترام الا ما كان جديرا به لشيخوخته وسابق سلطته .

فالتباعد بين المماليك ، والتنافس القديم بين زعمائهم ، واطماعهم الشخصية ، واختلاف وجهة نظرهم السياسية ،

لكل هذه الظروف مجتمعة كانت من الاسباب التى عجلت بانقراض دولتهم واراحة مصر من حكمهم .

العامل القومى

تلك هى القوى التى تنازعت النفوذ والسلطة فى مصر منذ جلاء الفرنسيين .

وهناك قوة رابعة ظهرت على مسرح النضال السياسى واخذت تنمو ويشتد ساعدها دون أن تأبه لها تلك القوى الثلاث أو تحسب لها حسابا ، على انها القوة الثابتة الخالدة المؤيدة بحقها الشرعى فى تقرير مصير البلاد ، تلك هى قوة الشعب المصرى .

بدات هذه القوة تظهر فى الميدان خلال السنوات التى قضاها الجيش الفرنسى فى البلاد .

ظهرت الامة بشخصية جديدة ، وروح فتية ، وعزيمة قوية ، كونتها الحوادث والشدائد ، وصقلتها التجارب والآلام .

كانت هذه السنوات الثلاث بمثابة مران على النضال والكفاح السياسى ، وتطور فى الحياة القومية ، رات الامة خلالها من الحوادث والانقلابات ما فتح اعينها وهز اعصابها واستثار فيها روح التطلع الى المجد والعلا ، رات نابليون بونابارت يخطب ودها ، ويشيد بعظمتها ، ويتملق كبراءها

القومى ، ويتغنى بماضيها ، ويعلن حقها فى ان تحكم نفسها بنفسها .

ثارت فى وجه الحكم الفرنسى غير مرة ، فاعتادت مقاومة الاضطهاد ومكافحة القوة المسلحة ، وألفت خوض غمار الوقائع والمعارك .

قاومت نابليون قاهر الملوك ومزلزل العروش

رات خلاصة علماء فرنسا واطبائها ومهندسيها يعرضون عليها آثار علمهم وتجاريبهم ، رات علوما وافكارا جديده ، ومنشآت ونظما حديثة . رات « ديوانا » مؤلفا من صفوة ابنائها بعد ان كان الديوان القديم مقصورا على المماليك .

ايقظت الحوادث فيها روح المقاومة الشعبية ، تلك الروح التى تنهض بالاخلاق وترقى بالافكار ، وتفتق الاذهان ، وتنير البصائر ، وتغرس الفضائل فى النفوس . وأخذ ترادف الحوادث فى خلال تلك السنوات الثلاث يمزق استار الصمت والجمود التى كانت تحجب عنها نور الحياة والنشاط ، فلا غرو ان ظهرت الامة المصرية العريقة فى الحضارة والمدنية بشخصية جديدة ولدتها الحوادث ، وان تقتحم ميدان النضال السياسى بروح معنوية جديدة تختلف كثيرا عن حالتها القديمة ، وكذلك الامم المستعدة للرقى تتطور نفسيتها وتتجدد شخصيتها تحت تأثير الحوادث السياسية والانقلابات ، وهنالك يظهر مبلغ استعداد كل امة للرقى

ومقدار ما هو كامن في قرارة نفسها من المواهب الدفينة »
فالامة المصرية التى ظلت السنين الطوال رازحة تحت نير الاستبداد لم تفقد مواهبها القديمة التى ورثتها عن المدنيات المتعاقبة ، بل كانت هذه المواهب كامنة تحت الرماد ، يعلوها الصدأ ، فما ان صدمتها الحملة الفرنسية حتى اخذت تبدو للعيان ، كما تصقل المعادن وتجلى جواهرها في لهب النار ، ونهضت الامة في وجه الاحتلال الاجنبى تحمل بين جنبيها قوة حيوية كبيرة .

ظهر الشعب المصرى في الميدان قويا فتيا لا يمل الجهاد ولا ينكص على الاعقاب ، ولما طويت صحيفة الغزوة الفرنسية ظل يناضل عن كيانه في وجه العوامل المثبطة والقوات المتألبة عليه .

واذا تتبعت التقلبات التى اعقبت جلاء الفرنسيين رايت العامل القومى ذا اثر فعال في سير الحوادث وتطورها .

فهذا العامل الوليد الذى تمخضت عنه المقاومة المستمرة في عهد الحملة الفرنسية اخذ ينمو ويترعرع ويشتد ساعده وأبى ان يعود الى نظام الحكم القديم او يكون مطية لاهواء الدول الطامعة في وادى النيل ، وجعل يتطلع الى نظام للحكم ارقى من النظم التى رزحت تحتها البلاد السنين الطوال .

في خلال تلك السنوات ، وفي غمار المنازعات والاطماع المختلفة ، اخذ الشعب ينظر بعين السخط والمقت الى عودة

حكم المماليك وحكم الاتراك معا ، اما حكم المماليك فلم يكن قد نسى مظالمه القديمة ، وما جره على البلاد من الخراب واما الحكم التركى فقد ظهر من سيئاته ومظالمه فى خلال السنوات التى اعقبت جلاء الفرنسيين ما جعل الشعب يكره ان يعود الى نيره القديم ، وكانت الجنود العثمانية التى ساقتها تركيا الى مصر خليطا من اردأ عناصر السلطنة العثمانية مجردة من النظام والرقى والتهذيب ، يقودها رؤساء جهلاء لم يألفوا من اساليب الحكم سوى الظلم والارهاب ، ولم يكن لهم هم سوى النهب والتخريب والاستهانة بأرواح الناس وارهاق الشعب بمختلف انواع المظالم والمغارم ، فلا جرم ان كره الشعب حكم المماليك والاتراك واخذ يداب ويعمل للتخلص من كلا الحكمين معا .

قادة الشعب وزعماؤه

ظهر للشعب فى خلال تلك السنين زعماء معدودون كونتهم الحوادث وثقفتهم التجارب ، فكان لهم فضل كبير فى اظهار شخصية الامة وتوجيهها الى ما فيه خيرها وصالحها ، نالوا هذه الزعامة بما كان لهم من المقام المحمود بين الناس قبل الحملة الفرنسية وما اكسبهم اضطهاد الفرنسيين من المحبة والجلال ، وما اشتهروا به من نصرة المظلوم وحماية الضعفاء فى وجه القوة والظلم .

وقد ساعد على زيادة نفوذهم بعد جلاء الفرنسيين ان التنازع بين المماليك والاتراك قد أضعف مركز الفريقين ،

فاستطاع الشعب فى خلال هذا التنازع أن يكسب نفـوذا جديدا وسلطة جديدة ، وظهر لزعماء الشعب صوت مسموع فى حكومة البلاد وتطور الحوادث وعزل الولاة وتعيينهم .

فالنفوذ الجديد الذى اكتسبه الشعب وزعماؤه هو من اكبر مميزات سنوات الانتقال التى اعقبت الحملة الفرنسية

فلنستعرض شخصية أولئك الزعماء الذين ملكوا قيادة الشعب فى دور من أهم أدوار حياته القومية،ونخص بالذكر من كانوا أكثرهم عمـــلا وأكبرهم اثرا فى سير الحـــوادث وتطورها .

السيد عمر مكرم

هو اكبر شخصية ظهرت بين رجالات مصر فى فجر النهضة القومية ، كان اكبر زعماء الشعب نفسا ، واكبرهم شجاعة واقداما ، واعظمهم نفوذا ، وارفعهم كلمة ، فـلا غرو ان نعده زعيم الزعماء ورئيس الرؤساء .

لا نعرف الشيء الكثيـر عن مولده ونشـأته ، ذلك لان الجبرتى لم يترجم له كما ترجم لمعظم معاصريه ، لان عادة الجبرتى ان يذكر تراجم الوفيات من رجالات مصر ، وهو لم يدرك وفاة السيد عمر مكرم ، ولذلك حرمنا ترجمـة وافية لهذا الرجل النبيل من قلم مؤرخ محقق كانت ميزته البحث والاستقصاء ، والذى عرفناه من خلال تحقيقـات الجبرتى ان السيد عمر مكرم اسيوطى المولد والنشأة ،

ولد فى اسيوط ونشأ فيها ، ولذلك يسميه فى بعض المواطن السيد عمر الاسيوطى ، وقد تحققنا انه من سلالة الحسن ابن على بن ابى طالب كرم الله وجهه .

كان نقيبا للاشراف فى مصر قبل مجىء الحملة الفرنسية ، فهو بحكم توليه النقابة فىمقدمة رجالات مصر منزلة وجاها .

فلما جاء الفرنسيون ظهرت شخصيته الكبيرة ونفسيته القوية بما دعا الشعب اليه من التطوع للقتال ومابثه فى نفوس الجماهير من روح المقاومة ، يدلك على ذلك ما ذكره الجبرتى عن حالة القاهرة قبل واقعة الاهرام باربعة ايام من النداء بالنفير العام وخروج الناس للمتاريس استعدادا للمقاومة قال « وصعد السيد عمر افندى نقيب الاشراف الى القلعة فانزل منها بيرقا كبيرا اسمته العامة البيرق النبوى فنشره بين يديه من القلعة الى بولاق وامامه الوف من العامة » .

وهذا هو بعينه استنفار الشعب الى التطوع العام لصد هجمات المعتدى المغير والسير فى طليعة المتطوعين للقتال .

فتامل فى حالة نقيب الاشراف النفسية وهو ينزل من القلعة ناشرا علم الجهاد يشق المدينة من شرقيها الى غربيها وحوله الالوف من الناس ذاهبا بهم الى بولاق تجاه امبابة حيث وقعت الواقعة ، ان هذه الحالة النفسية هى ارقى ما يتصف به زعماء الشعب فى ساعة الشدة ، وهى لا تقل نبلا عن الدعوة للتطوع العام التى بثها زعماء الثورة الفرنسية فى نفوس الشعب الفرنسى حينما نادوا « ان الوطن فى خطر » .

فالسيد عمر مكرم كان اذن فى طليعة المتطوعين للقتال المدافعين عن القاهرة فى وجه الاحتلال الفرنسى ، ولما وقعت الهزيمة فى معركة الاهرام لم يرض البقاء فى القاهرة بعد ان اصبحت تحت رحمة الغزاة ، ولم تلن قناته لهم على الرغم من أنهم اختاروه لعضوية الديوان الاول ، فرفض عضوية الديوان ، وهاجر الى سورية وابى العودة الى القاهرة ، ولو هو عاد اليها لنال من احترام الفرنسيين وعطفهم ما يغرى النفوس ويكسر من حدتها ، ولكنه آثر الهجرة والنفى وشظف العيش اباء للضيم ونفورا من الذل ، وترك فى مصر املاكه وامواله عرضة للنهب والمصادرة .

وظل فى منفاه بمدينة (يافا) الى ان احتلها الفرنسيون اثناء الحملة على سورية ، فقابله بها نابليون ، وكان يعرف منزلته من قبل ، فأمر بارجاعه الى مصر معززا مكرما ، فعاد اليها لكنه اعتزل الفرنسيين واعتكف فى بيته ولم يشأ ان يتصل بهم او يتقرب اليهم ، ولو انه اراد ذلك لاغدقوا عليه النعم وخصوه باعظم المزايا ليجتذبوه الى صفوفهم ، وبقى فى عزلته الى ان ابرمت معاهدة العريش ثم نقضت وتجددت الحرب بين الفرنسيين والعثمانيين وثارت القاهرة ثورتها الثانية ، فكان من زعمائها ، ولما اخمد الفرنسيون تلك الثورة هاجر من مصر ثانية ، واستهدف فى هذه المدة ايضا للنهب والمصادرة ، ثم عاد الى مصر بعد

جلاء الفرنسيين ، فزادت منزلته القديمة فى نفوس الشعب وعادت اليه نقابة الاشراف التى نزعت منه اثناء هجرته الاولى .

. واذا تأملت فى الحركات التى تتابعت فى البلاد بعد انتهاء الحملة الفرنسية تجد ان اسم السيد عمر مكرم يملأ الجو السياسى بما كان له من عظيم النفوذ والمكانة السامية والاثر البالغ فى تطور الحوادث ، وتتبين ان له اليد الطولى فى الثورة التى قامت ضد حكم المماليك سنة ١٨٠٤ ، وضد الوالى التركى سنة ١٨٠٥ ، وكان منظورا اليه من الشعب كرئيس تستجاب دعوته وتطاع كلمته وملجأ يأوى اليه المظلومون فيرفع عنهم شر المظالم ويقيهم طغيان الحكام .

فترجمته مقترنه بالحوادث الجسيمة التى وقعت فى البلاد بعد جلاء الفرنسيين الى ولاية محمد على عرش مصر وتجد هذه الترجمة فى تتبع النبذ الاتية ، ولقد افردنا له فوق ذلك نبذة خاصة تحت عنوان (عمر مكرم روح الحركة) يتبين منها مبلغ ما كان له من الفضل فى ثورة الشعب على الوالى التركى .

السيد محمد السادات

سليل بيت السادات العريق فى المجد وشرف المحتد ، تربى فى مهاد العز والنعمة ، وتلقى العلوم الشرعية واللغوية على شيوخ الازهر فوصل فى العلم والثقافة الى ما وصل

اليه علماء ذلك العصر ، وجمع بين العلم وشرف النسب ، ذلك الى ما ورثه عن اسلافه من الثروة والجاه .

تولى خلافة آل السادات ومشيخة سجادتهم سنة ١١٨٢ هجرية على عهد على بك الكبير ، فعظمت مكانته وزادت منزلته لما اتصف به من الشمم والاباء والحرم مع الكرم وحسن المعاشرة والترفع عن الصغائر ، وحب المحاضرة فى العلم والادب .

عاش السيد محمد السادات وافر الحرمة نافذ الكلمة عظيم المكانة بين الناس سواء قبل الحملة الفرنسية وفى خلالها وبعد انتهائها .

كان جريئا فى الحق لايهاب من بيدهم سلطة الحكم ، وبحسبك ان تتأمل فى موقفه حينما أوفدت الدولة العثمانية حسن باشا الجزائرلى سنة ١٧٨٦ الى مصر لمحاربة المماليك واستعادة سلطتها المطلقة لتحكم على مبلغ ما اتصف به من الشهامة والمرءوة ، فقد اسرف حسن باشا فى القسوة والجبروت واستباح اموال المماليك وقبض على نسائهم وأولادهم وأمر بانزالهم سوق المزاد وبيعهم زاعما أنهم ارقاء لبيت المال ، فأجتمع الشيوخ والعلماء وذهبوا اليه معترضين وكان السيد محمد السادات هو المتكلم عنهم ، فاشتد فى مخاطبته وقال له : « أأنت أتيت الى هذا البلد وارسلك السلطان لاقامة العدل ورفع الظلم كما تقول ام لبيع الاحرار وأمهات الاولاد وهتك الحرمات ؟ » فقال له حسن باشا :

« هؤلاء ارقاء لبيت المال » ، فقال له : هذا لا يجوز ولم يقلْ به احد .

فحنق حسن باشا على السادات والمشايخ وتهددهم بأن يبلغ السلطان معارضتهم لاوامره ، فلم يعبأ السادات بتهديده واصر على معارضته حتى افحمه وحمله على العدول عن قصده .

كان السادات فى موقفه هذا معارضا سياسة الدولة ، متحديا نائبها ، مؤيدا قوما تعدهم الدولة من العصاة ، ووقف كذلك فى وجه حسن باشا عندما صادر أموال المماليك ، فقد فر زعماؤهم من القاهرة الى الوجه القبلى حتى لا يبطش بهم حسن باشا واودع كبيرهم ابراهيم بك عند السادات ودائعه الثمينة ، فعلم بذلك حسن باشا ، فأرسل يطلب الوديعة ، فرفض بإباء ان يسلمها وقال فى ذلك :

« ان صاحبها لم يمت ، وقد كتبت على نفسى وثيقة بذلك فلا اسلمها مادام صاحبها فى قيد الحياة » .

فحنق عليه حسن باشا وكاد يبطش به لولا ان خشى نفوذه ومنزلته بين قومه .

وقف السادات هذا الموقف وهو اعزل لا سلاح معه الا سلاح الحق ، وقاوم ارادة وزير من وزراء الدولة جاء على راس جيش ليعيد فى مصر سلطة الحكومة العثمانية ، ولا

يقف الرجل مثل هذا الموقف وخاصة في ذلك العصر الا اذا كان على حظ عظيم من الشجاعة وعلو النفس .

ومما يذكر عنه في مجابهة رؤساء المماليك انه لما جاءت الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ ووصلت العاصمة اخبار احتلال الاسكندرية وجمع ابراهيم بك ومراد بك العلماء للتشاور في الامر كان السيد السادات ضمن المجتمعين ، فوبخ المماليك على سوء سياستهم وقال لهم : « ان كل هذا من سوء افعالكم وظلمكم ، وآخر امرنا معكم انكم ملكتمونا للافرنج » وخص مراد بك بالتوبيخ قائلا له : « وخصوصا بأفعالك وتعديك أنت وأمراؤك على متاجرهم وأخذ بضائعهم » .

فنقم عليه مراد بك هذه اللهجة في الخطاب ، واسرها في نفسه ، قال الجبرتي في هذا الصدد ان مراد بك بعد ان اصطلح مع الفرنسيين اغراهم بالسيد السادات فكان هذا الاغراء من اسباب اضطهادهم اياه ، وقد ذكر عنه المؤرخون الفرنسيون انه لم يكن يحب المماليك وكان المماليك من جهتهم لا يحبونه ويحقدون عليه لمكانته من الشعب .

وقد رفض عضوية الديوان في عهد الحملة الفرنسية ، وظل محفوظ الكرامة مقبول الشفاعة ، ولم تلن قناته للفرنسيين ولا هم كانوا يثقون به ، وحدثت بينه وبينهم مشادة في بعض المواطن ، فقد تقدم القول بأنهم اتهموه بزعامة ثورة القاهرة الاولى ، وقامت عليه البينات بذلك ، ولكن نابليون راى ان محاكمته تجعله شهيدا في نظر الشعب وان

الضرر من قتله اكثر من نفعه فابقى عليه ، وحدث انه لما امر نابليون باعتقال ملا زاده ابن القاضى التركى كان الشيخ السادات اكثر العلماء اعتراضا على حبسه ، وعلم نابليون بموقفه فى هذا الصدد ، فنقم ذلك منه فاستدعاه ولامه على مسلكه ، فتدخل بينهما الشيخ محمد المهدى (الذى كان موضع ثقة نابليون) والقوميسير الفرنسى للديوان فانتهت المسألة بسلام .

ويقول عنه المؤرخون الفرنسيون انه كان من زعماء ثورة القاهرة الثانية ووصفوه بانه رجل يميـــل الى الهيـــاج والشغب .

وقد ناله من اضطهاد الفرنسيين فى عهد كليبر ومنو ما تقدم بيانه ، فلما جلا الفرنسيون عن البلاد علت منزلته فى نظر الشعب واشترك فى الحركات الشعبية التى قامت فى مصر ، ومع ان السيد عمر مكرم والسادات كانا فى مقدمة زعماء الشعب منزلة ونفوذا فقد وقعت المجافاة فى عهد محمد على وانضم السادات الى محمد على فى الوقيعة بالسيد عمر مكرم ، وتولى نقـــابة الاشراف بدله وتوفى السادات سنة ١٢٢٨ هجرية .

الشيخ عبد الله الشرقاوى

هو الشيخ عبد الله بن حجازى بن ابراهيم ، ولد فى حدود سنة ١١٥٠ هجرية فى قرية (الطويلة) باقليم الشرقية ،

ولذلك سمي الشرقاوي ، وحفظ القرآن في قرية (القرين) القريبة من الطويلة ، ثم ارسله ابوه الى الأزهر ليتلقى العلم على شيوخ ذلك العصر ، وكان شأنه شأن طلبة العلم الذين يفدون على الأزهر ويتلقون علومه ثم ينتظمون في سلك العلماء ، وتميز بالجد والمثابرة في التحصيل ، وكان شافعي المذهب وله مؤلفات في العلوم الفقهية والتصوف .

وكان في بداءة عهده « في قلة من خشونة العيش وضيق المعيشة » كما يقول الجبرتي ، فكان بعض معارفه يواسونه ويمدونه بالعون الى ان اشتهر ذكره بين الناس ، فواصله بعض السراة التجار بالهدايا والصلات « فراج حاله وتجمل بالملابس وكبر تاجه » .

وبعد وفاة الشيخ أحمد العروسي سنة ١٢٠٨ هـ تولى مشيخة الأزهر ، فعظمت منزلته واكسبته المشيخة نفوذا كبيرا ومكانة عظمى في مصر لأن شيخ الأزهر هو بمثابة كبير علماء العصر ، وكان أمراء المماليك يحترمونه ويراعون نفوذه الأدبي والديني ، وله في مقاومة مظالمهم مواقف تدل على مبلغ ماله من النفوذ والجاه .

ولما جاء الفرنسيون تولى في عهدهم رياسة الديوان الذي انشأوه ، واسندت اليه رئاسته في أدواره التي تعاقبت عليه ، فكان رئيسا للديوان الذي تأسس في أول عهد الحملة ، ثم للديوان العام ، ثم للديوان العمومي والديوان الخصوصي اللذين انشأهما نابليون في ديسمبر سنة ١٧٩٨ ،

لم للديوان الذى تأسس فى عهد الجنرال منو ، وجمع بين رئاسة الديوان ومشيخة الأزهر ، فعظم جاهه وازداد نفوده.

وكان له مع الفرنسيين شأن طويل ، فقد غضبوا عليه ثلاث مرات ، الأولى فى عهد نابليون حينما رفض أن يرتدى طيلسان الجمهورية المثلث الألـــوان ورمى به الى الأرض ، فغضب عليه نابليون وقال انه لا يصلح لرياسة الديوان .

والثانية فى عهد الجنرال (منو) ، فقد ارتاب الفرنسيون فى موقفه بعد مقتل الجنرال (كليبر) لأن قاتل كليبر كان يبيت فى الأزهر ويقيم به فأحضر الفرنسيون الشيخ الشرقاوى على اعتباره شيخ الجامع الأزهر والشيخ احمـد العريشى قاضى مصر وحجزوهما الى منتصف الليل ، والزموهمـــا البحث عن الأزهريين الأربعة الذين ذكرهم سليمان الحلبى فى اعترافه واحضارهم كما تقـدم بيانه ، وكان من نتـائج هذه الحادثة وما أعقبها من تفتيش الأزهر أن العلماء وعلى راسهم الشرقاوى اقفلوا أبواب المسجد وظل مقفلا الى أن شرع الفرنسيون فى الجلاء عن مصر .

والمرة الثالثة فى عهد (منو) أيضا حيث اعتقل فى القلعة كما فصلنا ذلك فى موضعه .

وفيما عدا هذه المرات الثلاث كان الشرقاوى يجامـــل الفرنسيين ويداريهم ، ويتبع حيالهم خطة المسالمة والمحاسنة، ولعله شعر بما احتمل من تبعة أدبية جسيمة بانتهاج هذه

الخطة ، فحاول فى كتابه (تحفة الناظرين) أن يدافع عن نفسه وعمن سلك مسلكه على عهد الحملة الفرنسية ، قال:

« والسبب الذى اوجب اهل مصر وقراها بعض الانقياد اليهم (الى الفرنسيين) عجزهم عن مقاومتهم بسبب هروب المماليك الذين معهم آلات القتال ، وانهم عند قدومهم كتبوا كتبا فرقوها فى البلاد وذكروا فيها انهم ليسوا نصارى لانهم يقولون ان الله واحد ، وانهم يعظمون محمدا ويحترمون القرآن ، وانهم يحبون العثمانلى (كذا) ولم يأتوا الا لطرد المماليك الظلمة لأنهم نهبوا اموالهم واموال تجارهم ولا يتعرضون للرعايا فى شىء » .

هذه هى الروح التى املت على الشرقاوى خطته فى محاسنة المحتلين ومجاملتهم ، وقد كان يجمل بكبير علماء مصر الا ينهج هذه الخطة ، وكان مطلوبا منه على الأقل أن يتبع خطة السيد عمر مكرم أو السيد محمد السادات ، ومهما دافع عن نفسه وعن حطته فدفاعه لا يثبت أمام البحث والتحقيق لأنه ليس صحيحا ان الفرنسيين انما جاءوا لطرد المماليك الظلمة وانهم لا يتعرضون للرعايا فى شىء ، فانهم جاءوا للفتح والغزو واخضاع مصر والمصريين لحكمهم ، والشيخ الشرقاوى نفسه يعترف فى كتابه ان الفرنسيين اخلفوا عهدهم الذى اعلنوه فى كتبهم ومنشوراتهم ، فقد قال فى هذا الصدد : « ولكن لما دخلوا مصر لم يقتصروا على نهب اموال المماليك بل نهبوا الرعايا وقتلوا جملة من الناس

لما قامت عليهم أهل مصر بسبب طلبهم تفريد غرامة (فرض ضريبة) على البيوت وقتل منهم ما يقرب من الالف وهتكوا بعض الأعراض فى مصر وقراها فان كل قرية حاربتهم نهبوا اموالها وقتلوا رجالها واخذوا نساءها وقتلوا من علماء مصر نحو ثلاثة عشر عالما » .

فمع اعتراف الشرقاوى بهذه الحقائق لا يقبل منه عذر فيما اختطه لنفسه حيال الفرنسيين من المداراة والمجاملة ، ولو انه لم ينتفع فى ذات نفسه من هذه السياسة لكان محتملا أن تكون اتباعه اياها نتيجة اعتقاد منه بصلاحها للبلاد ، ولكن انتفاعه من ورائها مما يدعو الى الشك فى ان خطته كانت عن عقيدة سليمة بريئة من الشوائب ، فالجبرتى وهو مؤرخ نزيه صادق يقول فى ترجمته ان الدنيا قد اتسعت عليه فى عهد الفرنسيس وزاد طمعه فيها ، ويقول أنه انتفع فى أيامهم بما كان يؤدى له من راتب رياسة الديوان وما كان يحصل عليه من « قضايا وشفاعات لبعض الاجناد المصرية ، وجعالات على ذلك ، واستيلاء على تركات وودائع خرج اربابها فى حادثة الفرنساوية وهلكوا ، واتسعت عليه الدنيا وزاد طمعه فيها واشترى دارا واسعة بظاهر الأزهر فى مساكن الأمراء الأقدمين » .

وقد ظل الشرقاوى مرعيا مشارا اليه بالبنان لمكانته العلمية ولما كانت تسبغه عليه مشيخة الأزهر من الاحترام والرياسة

واشترك بعد جلاء الفرنسيين فى الحوادث التى أدت الى ولاية محمد على واقترن اسمه بهذا الحادث الهام .

وكانت وفاته سنة ١٢٢٧ هجرية .

الشيخ محمد الامير

من كبار العلماء المشار اليهم بالبنان ، ولد فى (سنبو) « بمركز ديروط » سنة ١١٥٤ هجرية ، وحفظ القرآن وطلب العلم على شيوخ عصره ، وتلقى علوم الهيئة والهندسة على الشيخ حسن الجبرتى والد المؤرخ الشهير عبد الرحمن الجبرتى ، فجمع بين العلوم الشرعية والرياضية ، وذلك الى تضلعه فى علوم الادب واللغة ، واشتهر بمؤلفاته العديدة فى مختلف العلوم .

ذاع ذكره فى مصر وفى مختلف أنحاء الشرق ، فكانت تأتيه الصلات من سلطان المغرب الاقصى ومن مختلف نواحيه كل عام ، وبلغت شهرته الاستانة وذهب اليها وألقى بهـا دروسا حضرها علماء الاستانة وشهدوا له بالفضل والعلم .

وقد انتخب عضوا بالديوان فى عهد نابليون ثم فى عهد منو ، واعتقله الفرنسيون بالقلعة فى شهر مايو سنة ١٨٠١ كما اسلفنا ذلك فى موضعه .

واشتهر بجرأته وشجاعته ، وكان فصيحا متكلما لا تأخذه فى الحق لومة لائم ، يغلظ القول للبكوات المماليك والولاة الأتراك ، ذكر الجبرتى فى ترجمته ما كان من الوالى التركى

خورشد باشا واعتقاله السيدة نفيسة المرادية (زوجة مراد بك)وغيرها من نساء المماليك بعد انتهاء الحملة الفرنسية فقال ما خلاصته انه لما شاع الخبر تغيرت خواطر النــاس وركب القاضي ونقيب الأشراف (السيد عمر مكرم) والشيخ السادات ، والشيخ الامير وذهبوا الى الباشا وتحدثوا اليه في شأنها ، فاتهمها بأنها ارسلت الى بعض كبار رؤساء الجند تستميلهم الى المماليك العصاة وانها وعدتهم بـدفع رواتبهم ، وقال انهـا ما دامت تستطيع ان تدفع للجنـد رواتبهم فينبغي أن تدفعها لخزانة الحكومة ، واتضح ان غرضه ارهاق السيدة نفيسة وابتزاز المال منها قهرا ، فقال الشيوخ ان الأمر يحتاج الى تحقيق ، وقام الشيخ سليمان الفيومي ؟ والشيخ محمد المهدى وخاطبا السيدة نفيسة في ذلك فأنكرت ما نسب اليها ، وقالت : « اذا كان قصده مصادرة اموالي فلم يبق عندى شيء » فاعترض الشيوخ على خورشد باشا وحـدث اخـذ ورد بينهم ، وقال الشيخ الأمير غاضبا : ان هذا امر غير مناسب ويترتب عليـه مفاسد ويقع اللوم علينا فاذا كان الأمر كذلك فلا علاقة لنا بشيء من هذا الوقت او نخرج من هذا البلد ، ومعنى ذلك أن الشيخ الأمير يهدد الوالي بمقاطعة الشيوخ له ، وهذا أمر له عواقبـه ، فتوسط بعض اعوان خورشد باشا في الخلاف وتحدثوا اليه في اطلاق سراح السيدة نفيسـة المرادية والسماح لها بان تقيم في بيت السادات ، فرضى الوالي بذلك وانزلوها من القلعة الى بيت السادات .

فهذه الحادثة تدلك على مكانة الشيخ محمد الأمير وما كان له من الهيبة والجراة فى مقاومة مظالم الحكام .

وكانت وفاته سنة ١٢٣٢ هـ .

الشيخ سليمان الفيومى

ولد بالفيوم وحضر الى مصر وحفظ القرآن وتلقى العلوم بالأزهر ، ومع قلة بضاعته فى العلم كما يقول الجبرتى فقد نال مكانة كبيرة بين الناس بما اشتهر عنه من الكرم والجود وحسن المعاشرة والبشاشة والتواضع والمواساة للكبير والصغير ، فكان الناس يلجئون اليه لرفع المظالم وقضاء الحاجات فلا يبخل على أحد بجاهه وسعيه .

فالرجل اذن كان مثال الشهامة والمروءة ، فلا غرو أن نال احترام الناس ومحبتهم ونال احترام الامراء المماليك ونسائهم بما اشتهر عنه من مكارم الأخلاق والتعفف والتورع ، فكان يدخل بيوتهم ويتلقاه نساء الأمراء فى مجالسهن ويجلس معهن وتسرهن محادثته ويقلن — على رواية الجبرتى — « زارنا أبونا الشيخ ، وشاورنا أبانا الشيخ ، فأشار علينا بكذا ونحو ذلك » .

وله مواقف مشهورة تدل على الشهامة والمروءة ، فمن ذلك أنه لما جاء حسن باشا الجزائرلى الى مصر سنة ١٧٨٦ لاعادة الحكم التركى ومحاربة المماليك ارتحل هؤلاء الى الصعيد واحاط حسن باشا بدورهم وطلب الأموال من

نسائهم واعتقل اولادهم وجواريهم وازواجهم وانزلهم الى سوق المزاد فالتجأ الى المترجم الكثير من نساء الأمراء فآواهن وأجهد نفسه فى السعى لحمايتهن ومواساتهن مدة اقامة حسن باشا بمصر .

ولما جاء الفرنسيون الى مصر وطردوا المماليك خرج نساؤهم من بيوتهم وذهبن اليه أفواجا لاجئات اليه ، فامتلأت بهن داره وما حولها من الدور ، فحماهن وتصدى للدفاع عنهن أمام الفرنسيين .

وكان مرعى المكانة مقبول الشفاعة فى عهد الحملة الفرنسية ، وانتخب عضوا بالديوان فى عهد نابليون ثم فى عهد الجنرال (منو) ، وهو من أعضائه النابهين .

وكان له ضلع فى ثورة أمير الحج كما اشرنا الى ذلك فى موضعه فقد اخذ يطوف البلاد مع مصطفى بك امير الحج لاثارة الفلاحين ، وكتب عنه الجنرال (دوجا) فى رسالة الى نابليون أن طوافه مع أمير الحج كان من أسباب استفحال الثورة لما له من المكانة بين الناس ، وقد رجع الى القاهرة بعد اخماد ثورة أمير الحج ووضع تحت المراقبة .

وفى عهد الجنرال منو وضع الفرنسيون نظاما جديدا لتعيين مشايخ البلاد (العمد) ، فاوجبوا ان يكون تعيين كل شيخ بلد بأمر من القائد العام وجعلوا لهيئة مشايخ البلاد مفتشين وجعلوا لها رئيسين أحدهما فرنسى والآخر مصرى

وهو الشيخ سليمان الفيومى ، فصار كما يقول الجبرتى « شيخا للمشايخ » ، فازدحمت داره بمشايخ البلدان يأتون اليه افواجا ويذهبون أفواجا .»

وفى آخر عهد الحملة الفرنسية اعتقل فى القلعة حين وردت انباء الحملة الانجليزية العثمانية ، ولم يلبث قليلا حتى أفرجوا عنه .

وجاء العثمانيون والمترجم فى عداد العلماء والرؤساء وافر الحرمة ، شهير الذكر بعيد الصيت ، مرعى الجانب ، مقبول القول عند الأكابر والأصاغر .»

وقد لازمته سجيته التى اشتهر بها فى ايواء المنكوبين ومواساتهم .»

ومات سنة ١٢٢٤ هجرية .»

الشيخ مصطفى الصاوى

من كبار العلماء والفصحاء المشار اليهم بالبنان ، وسمى الصاوى نسبة الى بلدة (الصوة) من أعمال الشرقية ، وقد انتقل منها أبوه الى السويس وولد بها المترجم فارتحل الى مصر ، وكان والده من اعيان التجار فالحق ابنه بالأزهر فحفظ القرآن واشتغل بالقراءة وحضر الدروس على شيوخ ذلك العصر ، وتضلع فى العلوم وضرب بسهم فى الادب والبلاغة ، فكان كاتبا بليغا وشاعرا اديبا ، وقد أورد الجبرتى

شيئا من نظمه ونثره ، وكان علماء الأزهر يعترفون له بالتفوق في الكتابة والفصاحة .

ويدلك على منزلتـه من العـلم انه كان مرشحا لمشيخة الجامع الأزهر بعد وفاة الشيخ العروسى ، وزاحم فيهـا الشيخ عبد الله الشرقاوى ، فهو اذن قرين الشرقاوى وندّه في العلم والمكانة ، ولكن مشيخة الجامع استقرت للشرقاوى ، وكان الشيخ الصاوى يتولى من قبل وظيفة التدريس فى المدرسة الصلاحية المجاورة لضريح الامام الشافعى ، وهى من وظائف مشيخة الأزهر ، فلما تولى الشرقاوى المشـيخة بقيت وظيفة التدريس فى يد الشيخ الصاوى ، وتلك ميزة تدل على ماله من المكانة العلمية .

ولما جاء الفرنسيون ووقعت هزيمة امبابة كان الشـيخ مصطفى الصاوى هو والشيخ سليمان الفيومى على راس الوفد الذى ذهب بالنيابة عن سكان القاهرة لمقابلة نابليون ، وانتخب عضوا بالديوان وظل عضوا به فى عهد نابليون وفى عهد الجنرال منو ، واضطهده الفرنسيون بعد اخماد ثورة القاهرة الثانية فخصوه بجزء من الغرامة التى فرضوها على سكان القاهرة ، واعتقلوه حتى سدد ما فرض عليه ، وكان نصيبه فى الغرامة خمسين الف ريال .

واعتقلوه للمرة الثانية فى مارس سنة ١٨٠١ بعد وصول الحملة الانجليزية العثمانية ثم افرجوا عنه لمرضه .

وكانت وفاته فى شهر ذى القعدة سنة ١٢١٦ ، ولم يدرك ثورة الشعب على حكم المماليك وعلى الوالى التركى .

الشيخ محمد المهدى

عالم من كبار العلماء ، اشتهر بسعة العلم وحدة الذكاء وقوة العارضة ، وضرب بسهم فى الادب والانشاء ، تردد اسمه كثيرا فى مذكرات نابليون وقواد جيشه وفى معظم المراجع الفرنسية .

لعب دورا كبيرا على مسرح الحوادث السياسية فى اواخر القرن الثامن عشر واوائل التاسع عشر .

ولد فى (ناهية) من اعمال الجيزة ، وسبب تسميته بالحفنى ان والده كان قبطيا واسلم المترجم وهو دون البلوغ على يد الشيخ الحفنى من شيوخ ذلك العصر ، وفارق اهله، وحضنه الشيخ الحفنى ورباه واحبه واستمر بمنزله مع اولاده واعتنى بشأنه ، فقرا القرآن ولما ترعرع اشتغل بطلب العلم واجتهد فى التحصيل ليلا ونهارا ، فظهرت عليه مخايل النباهة والجد ، وانتقل من التحصيل الى التدريس فى الأزهر سنة ١١٩٠ هـ فاشتهر بسعة العلم وحسن الالقاء مع الفصاحة والبيان وسلامة التعبير وتحقيق المشكلات ، فادرك مكانة سامية بين أقرانه ، وساعده الحظ بانضمامه الى الامير اسماعيل بك الذى كان ينافس مراد بك وابراهيم بك فى امارة مصر اواخر القرن الثامن عشر ، فلما فاز

اسماعيل بك على خصميه بمعاونة حسن باشا الجزائرلى نال الشيخ محمد المهدى حظوة كبيرة لديه وأغدق عليه الخلع والعطايا .

فلما جاءت الحملة الفرنسية ، بدأ عهد جديد للمهدى نستخلصه من المراجع الفرنسية ومما ذكره الجبرتى ، فالشيخ المهدى قد نال من ثناء نابليون ومديحه ما جعله فى نظره وفى نظر قواد الحملة الفرنسية فى طليعة العلماء ، فقال عنه فى مذكراته « انه أذكى علماء الأزهر وأفصحهم لسانا واكثرهم علما وأصغرهم سنا » ، وكان يخصه بالثقة فى كثير من المواطن ، فقد كان سكرتيرا لأول ديوان انشأه نابليون ، وأدرك من السلطة والنفوذ مالم يتوافر لأحد من أعضاء الديوان ولا لرئيسه ، وكان نابليون يعهد اليه بصياغة منشوراته فى القالب العربى المسجع ، ولما زحف على سورية واحتل قلعة العريش وعزم على ان يبلغ نبأ هذا الانتصار الى المصريين انفذ الى الجنرال (دوجا) نائبه فى القاهرة كتيبة من الجنود تحمل الأعلام التى استولى عليها من العثمانيين وعهد اليه أن يرفعها على منارات الأزهر ، وكتب اليه فى هذا الصدد يقول : « أريد أن تقابلوا الشيخ المهدى وأعضاء الديوان وتتفقوا معهم على اقامة احتفال صغير لمقابلة الأعلام المرسلة لكم » .

فاختصاص نابليون الشيخ المهدى بالذكر دليل على ما كان يشعر نحوه من الاحترام والثقة .

وكان الجنرال دوجا الذى استخلفه نابليون فى القـاهرة اثناء الحملة على سورية يركن الى المهدى ويشاوره فى كثير من الامور .

ولما غضب نابليون على السادات لاعتراضه على اعتقال ملا زاده ابن القاضى التركى كان الشيخ المهدى هو الـداخل فى الصلح بينهما ، فهذه الوقائع تدلك على ما كان للمهـدى من المكانة عند اقطاب الحملة الفرنسية .

والظاهر أنه لم يستهدف لغضب المحتلين الا مرة واحـدة أو مرتين ، فالمرة الأولى لما عاد نابليون بعد انتصـــاره فى معركة (أبو قير) البرية ، فقد ساءه ما علمه عن المهدى انه كان يعارض محافظ المدينة فى احكامه ، واظهر استياءه من سلوك المهدى والصاوى وبقية أعضاء الديوان ، وعاتبهم على مسلكهم ، ولكنه ما لبث أمام حسن بيان المهدى أن تجـاوز عن عتابه .

والمرة الثانية فى أواخر عهد الحملة الفرنســية حيث اعتقلوه بالقلعة ضمن من اعتقلوهم من أعضاء الديوان .

وقد احتفظ الشيخ المهدى بمكانته بعد جلاء الفرنسيين ، فصار من المتقدمين والمتصدرين فى الحركات الشعبية التى ظهرت على مسرح الحوادث السياسية ، واشترك مع السيد عمر مكرم ، والسادات ، والشرقاوى وغيرهم فى تولية محمد على حكم مصر ، وكان له فى هذا الصدد فضل مشـــهور ومقام محمود ، وهو الذى تولى تحرير محضر اجتماع العلماء

وقرارهم بعزل خورشد باشا الوالى التركى ، وهو موقف تاريخى يشرف المترجم ويخلد اسمه ، ولكنه بعد أن تم الأمر لمحمد على كان قوام الوقيعة بالسيد عمر مكرم مما تراه مفصلا عند الحديث عنها .

ولم يزل المهدى مرعى المقام عظيم المكانة الى أن توفاه الله سنة ١٢٣٠ هجرية عن نحو خمس وسبعين سنة .

السيد احمد المحروقى

اكبير تجار القاهرة ، بل كبير تجار مصر فى ذلك العصر ، تختلف شخصيته عن الشخصيات المتقدمة بأنه نشأ فى غير البيئة التى نشأوا فيها ، فلا هو تخرج من الأزهر ، ولا نال مكانته بانتسابه للعلم ، بل نشأ من بيت تجارى عريق،ومارس التجارة فنال فيها منزلة سامية وادرك بفضلها مركزا اجتماعيا كبيرا لا يقل رفعة وسموا عن منزلة كبار الرؤساء والعلماء ، وهذا يدلك على مبلغ ما للتجارة والأعمال الاقتصادية من الاحترام عند الشعب ، ولا غرو فقد كانت طبقة التجار هيئة ممتازة بين طبقات الامة كما بينا ذلك فى الفصل الثانى

كان أبوه من تجار الحرير بسوق العنبريين بمصر واشتهر بالصدق والأمانة والتدين والصلاح ، فأحسن تربية ابنه ، فلما ترعرع خالط الناس ومرن على الكتابة ، وكان على غاية

من الحذق والنباهة ، اخذ واعطى ، وباع واشترى ، وشارك وتدخل مع التجار ، وحاسب على الألوف .

وقد شارك المترجم فى العمل تاجرا من كبار تجار القاهرة يسمى السيد احمد ابن عبد السلام ، فضرب فى تجارة الصادرات والواردات بسهم وافر ، ولما مات السيد أحمد المذكور خلفه المترجم فى مركزه التجارى وفى منصبه (شاه بندر التجار) ، فصار كبير تجار القاهرة ، واذا لاحظنا أن القاهرة عاصمة القطر التجارية كان المحروقى كبير تجار مصر قاطبة ، وقد ظهرت مواهبه ومزاياه فى مركزه الجديد ، فزادت شهرته وعظم شأنه ، واتصل بامراء مصر من المماليك وتصدى لقضاء مطالبهم وهم أصحاب الحل والعقد وبيدهم سلطة الحكم ، فكانوا يبتاعون منه مطالبهم ومطالب الحكومة فاتسعت تجارته وذاع صيته فى الأقطار البعيدة وصار اكبر تجار الصادرات والواردات ، وتعددت معاملاته التجارية مع سائر الأقطار الشرقية وبعض الأقطار الافرنجية » .

فالمحرقى اذن هو نموذج صالح يصح أن يقتدى به الى اليوم فى الاضطلاع بالاعمال التجارية والاقتصادية العظيمة المدى ، وفى انماء ثروة مصر القومية » .

ويدلك على مبلغ مكانته بين الناس انه لما اعتزم أداء فريضة الحج سنة ۱۲۱۲ هجرية « كان يوم خروجه يوما مشهودا ، اجتمع الكثير من العامة والنساء وجلسوا بالطريق للفرجة عليه » كما يقول الجبرتى » .

فهذا الوصف يعطيك صورة من منزلة المترجم بين عظماء عصره وما ادركه من العز والجاه .

وظل على هذه المكانة حينما جاء الفرنسيون الى مصر ووقعت هزيمة امبابة أثناء رجوعه من الأقطار الحجازية ، وقد جاء فى قافلة نهبها العربان بالقرب من بلبيس ، وكان نابليون وقتئذ يتعقب ابراهيم بك فى الشرقية ، فقابله وعرف مكانته فأكرم مثواه ووعده برد مانهب منه ، وارسل يتعقب المعتدين ورد اليه ما امكنه استخلاصه ، ورجع الى القاهرة ، فكان لمنزلته التجارية والمالية موضع احترام الفرنسيين ، وانتخب عن التجار ضمن أعضاء الديوانين العمومى والخصوصى اللذين انشئا سنة ١٧٩٨ ، واصطحبه نابليون فى رحلته الى السويس .

ولما وقعت ثورة القاهرة الثانية كان من زعمائها ، والمتصدرين لتنظيمها بماله وهمته ونفوذه .

يتبين مما تقدم ان السيد المحروقى لم يكن متوفرا على اعمال تجارته الواسعة فحسب ، بل كان يشترك فى الحياة العامة ، فارتفع الى مستوى زعماء الشعب ، فهو من هذه الناحية خير مثال لكبار الأعيان والتجار يقتدى به فى الجمع بين تنمية الثروة الشخصية ، واداء الواجبات الوطنية . والواقع أن انماء الثروة وتعهدها بالحزم وحسن التدبير ليس عملا شخصيا فحسب ، بل هو عمل قومى جليل لأنه انماء للثروة القومية العامة ، والخير فيها يعم البلاد وأهلها .

اشترك المترجم فى ثورة القاهرة الثانية ، ولما اخفقت هاجر الى سورية صحبة السيد عمر مكرم ، ولازمه فى منفـــاه وهجرته ، وصادر الفرنسيون أملاكه فى غيبته ، ولم يعد الى مصر الا بعد جلاء الفرنسيين .

وازدادت مكانته وعظم جاهه بعد عودته من منفاه ، وصار موضع الاحترام عند ولاة الأمور والجمهور معا ، وزاره الصدر الأعظم يوسف ضيا فى بيته تكريما له ، ودامت زيارته له ساعة من الزمن .

فالسيد المحروقى قد نال اذن من المنزلة الاجتماعيـــة والسياسية بفضل كفايته الاقتصادية والمالية ما سما بـه الى الصف الأول من الرؤساء والزعماء فى فجر النهضـــة القومية ، فلا غرو أن نعده شخصية ممتازة من شخصيات ذلك العصر .

وظل محتفظا بمكانته واسع الجاه عظيم المقام والاحتـرام الى أن أدركته الوفاة سنة ١٢١٩ هجرية .

نظرة عامة الى زعماء ذلك العصر

أولئك هم قادة الشعب وزعماؤه فى فجر النهضة القومية ، ومهما لاحظت فى تراجم بعضهم من مواطن ضعف أو نقد ، فلا تنس انهم رجال ظهروا على مسرح الحياة القومية منـذ نيف ومائة وخمسين عاما ، اى قبل أن يسبقهم غيرهم الى تمهيد سبيل العمل والجهاد فى عهدهم ، ففضلهم من هذه الناحية لا يصح أن ينكر ، وحقهم لا يصح أن يغمط .

ولا تنس ايضا انك اذا طلبت اليهم أن يقدموا حســابا أمام التاريخ وأمام الاجيال المتعاقبة عن نصيبهم فى الحركة القومية ، فحسبهم أنهم فى مجموعهم أصحاب الفضل الأكبر واليد الطولى فى الحركات الشعبية التى ظهرت فى توجيه ارادة الأمة الى مقاومة الحكم الفرنسى ، ثم مقاومــة حكم المماليك ، ثم مقاومة الحكم التركى ، ثم احياء ســلطة الامة باختيار ولى الأمر واجلاسه على عرش مصر ، فهم اذن دعاة التطور السياسى الذى شــهدته مصر فى اواخــر القرن الثامن عشر واوائل التاسع عشر ، وهم فى تواضعهم وخمول ذكر الأكثرين منهم ، قد قام على اكتافهم وبارادتهم انقلاب كبير فى نظام الحكم ، فهم الذين اعلنوا حق الشــعب فى تقرير مصيره . بخلعهم الوالى التركى واسناد زمام الحكم الى محمد على الذى اختاروه للولاية وقتئذ .

الفصل الثامن عشر

الصراع بين القوات الثلاث

ان مااوردناه فى الفصل السابق هو كلمة اجمالية وصفنا بها حالة مصر السياسية حلال السنوات التى اعقبت جلاء الفرنسيين .

والآن فلننتقل من الاجمالى الى التفصيل ، ولنستعرض الحوادث من بدء الصراع بين القوات الثلاث الى خلع الوالى التركى خورشد باشا والمناداة بمحمد على واليا على مصر بارادة الشعب سنة ١٨٠٥ .

تعيين خسرو باشا واليا لمصر

اخذت القوات الثلاث يرقب بعضها بعضا مدى شهرين كل منها بمرصد للأخرى تتحين الفرص لتحقيق أطماعها .

وفى خلال هذه المدة ظل يوسف باشا ضيا (الصدر الأعظم) فى معسكره بالقاهرة صاحب الحول والطول ينظم الادارة ويعزل من شاء ويولى من شاء من صنائعه .

وتقلد محمد خسرو باشا ولاية مصر ، وهو أول وال عثمانى عين بعد جلاء الفرنسيين ، وكان قبل توليته كتخدا (وكيل) حسين قبطان باشا قائد العمارة العثمانية الراسية فى خليج أبو قير ومن خاصة أصدقائه ، وهو الذى سعى له فى تقليده ولاية مصر ، وقد بقى الوالى بأبو قير بجانب رئيسه قبطان باشا واكتفى بارسال خازنداره الى القاهرة

كان الصدر الاعظم يتظاهر بالود للمماليك ، فاغتر هؤلاء بظاهره ، على حين كان فى الوقت نفسه يعمل على الفرقة وايقاع الانقسام بينهم ليضربهم بعضهم ببعض تمهيدا للقضاء عليهم جميعا عند سنوح الفرصة ، فعين محمد بك الألفى أميرا على الصعيد ، وكان هذا المنصب مطمع كثير من البكوات المماليك ، فحنقوا ونقموا على الالفى انفراده بهذه الامارة ، واعتزم الصدر الأعظم وحسين باشا القبطان أن يأخذا رؤساءهم غيلة ، وكانت هذه الأساليب مألوفة فى ذلك العهد ، فاتفقا على أن يدعو كل منهما فريقا من زعماء المماليك الى الاجتماع به ، الأول فى القاهرة ، والثانى فى الاسكندرية ، بحجة تكريمهم وتقليدهم سلطة الحكم فى البلاد فاذا ما اجتمعوا فتك بهم الجند أو غللوهم فى الحبوس وارسلوهم الى الاستانة لتقرر الحكومة التركية فى مصيرهم ماتراه .

ففي أوائل أكتوبر سنة ١٨٠١ ارسل حسين باشا القبطان يدعو كلا من عثمان بك الطنبورجي زعيم المماليك وخليفة مراد بك ، وعثمان بك البرديسي ، ومراد بك الصغير وغيرهم من البكوات من بيت مراد بك (اتباعه) الى زيارته بمعسكره بأبو قير ، وأعلمهم أن الغرض من هذه الزيارة هو الاتفاق معهم على تخويلهم سلطة الحكم فى القاهرة بدلا من ابراهيم بك وأنصاره .

فلبى المماليك الدعوة وساروا لمقابلته فى معسكره ، وبالغ فى الحفاوة بهم وظلوا فى ضيافته اياما عدة ثم عقد اجتماعا تلا عليهم فيه فرمانا قال انه صدر من السلطان باعلان رضاه عن المماليك وابقائهم فى مناصبهم التى كانوا عليها من قبل فى حكومة البلاد ، ثم دعاهم لهذه المناسبة الى زيارة بارجته الراسية فى خليج أبو قير ، فنزل البكوات فى زورقه الخاص به لينقلهم الى بارجة القبطان باشا ، وبعد أن ابتعد الزورق عن البر وأصبح فى اللجة التقوا بمركب آت من عرض البحر وفيه جماعة من السعاة اخبروا أن لديهم رسالة باسم قبطان باشا ، فنهض الباشا وتركهم بحجة الاطلاع على الرسائل وانتقل الى المركب الآخر وأمر أن يدفع به ، وبقى المماليك وحدهم ، فكانت هذه العلامة نذيرا بانفاذ المؤامرة ، فما هى الا لحظة حتى أخذ الرصاص ينهال عليهم من رجال قبطان باشا وعلموا انهم وقعوا فى الفخ الذى نصب لهم ، فدافع المماليك عن أنفسهم دفاعا شديدا وقتلوا كثيرا من العساكر الذين

عهد اليهم بالفتك بهم ، ولكنهم غلبوا على امرهم امام كثرة الجنود والبحارة ، فقتل في هذه المؤامرة من زعماء المماليك عثمان بك الطنبورجي خليفة مراد بك ، وعثمان بك الاشقر من مماليك ابراهيم بك ، ومراد بك الصغير ، وعلى بك ايوب ، ومحمد بك المنفوخ ، ومحمد بك الحسيني ، وابراهيم كتخدا السناري (وكيل مراد بك) . وجرح كل من عثمان بك البرديسي وحسين بك ، وسليمان اغا جروحا بليغة . وسيقوا مع باقي المماليك الى بارجة قبطان باشا واعتقلوا بهـا .

كان الانجليز يجهلون تدبير المؤامرة ، فلما علموا بها غضب الجنرال هتشنسون غضبا شديدا واعتبرها عملا عدائيا موجها ضد الانجليز ، وعدها وحشية ، وكادت الحرب تنشب بين الانجليز والعثمانيين لولا أن سلم حسين باشا القبطان باطلاق سراح المماليك المسجونين وتسليم جثث القتلى منهم وانتقل المماليك من معسكر أبو قير الى الاسكندرية ليكونوا في حمى الانجليز ، واحتفل هؤلاء بدفن قتلى المماليك احتفالا عظيما بالاسكندرية وارسل الجنرال هتشنسون نبأ هذه المؤامرة الى الجيش الانجليزي المرابط بالجيزه .

مؤامرة القاهرة

وحدث لمماليك القاهرة ماحدث لاخوانهم بالاسكندرية غير أن الصدر الأعظم يوسف ضيا كان أقل فظاعة من حسين باشا القبطان .

ذلك أنه دعا ابراهيم بك والبكوات المماليك الذين كانوا في القاهرة وضواحيها الى ديوان عقده بقصره وامر بتلاوة فرمان يشبه الفرمان الذى تلاه حسين باشا فى مؤامرة أبو قير وزاد فيه أن ابراهيم بك عين « شيخ البلد » وهو اللقب الذى كان يعرف به رئيس حكومة مصر فى عهد المماليك ، وبعد ان اغدق عليهم الهدايا ومناهم بالوعود الخلابة قلب لهم ظهر المجن وامر بتلاوة فرمان آخر ينقض الفرمان الأول ويقضى بالقبض عليهم وتغليلهم بالحديد وارسالهم مخفورين الى الآستانة ، وقد قبض عليهم فعلا وسيقوا الى سجن القلعة وأصدر يوسف باشا أوامره للجنود العثمانية بالقبض على كل من يعثرون عليه من المماليك فى القاهرة وضواحيها وتهديد من يؤويهم من الناس ، وأنفذ طاهر باشا أحد قواد الجند الألبانيين بطائفة من جنوده ليقبض على محمد بك الألفى فى الصعيد ، وذهبت طائفة أخرى الى سليم بك أبى دياب احد زعماء المماليك وكان مقيما بالمنيل لاعتقاله ولكنها لم توفق الى القبض عليه لهربه واحتمائه بالجيش الانجليزى الذى كان مرابطا بالجيزة .

وطلب سليم بك أبو دياب وباقى المماليك الذين لم يقبض عليهم حماية الانجليز فحموهم .

وطلب الجنرال هتشنسون من الصدر الاعظم اطلاق سراح الامراء والمماليك والا أعلن الحرب على الجنود العثمانية وأنفذ لهذا الغرض الجنرال ستوارت Stuart فحضر

الى الجيزة يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٨٠١ ، فخشى السلطان الاعظم عاقبة القتال وافرج عن السجناء .

هذا وقد ذهب المماليك بعد اطلاق سراحهم الى الجيزة يصحبهم رجالهم واتباعهم وهناك التقوا بمن فروا من اخوانهم وانضم اليهم المماليك الناجون من مؤامرة أبو قير وبلغ عددهم جميعا نحو ٢٥٠٠ مملوك واتفقوا على الانتقام من الاتراك .

ما كسبه الانجليز من هذه المؤامرة

وقد كسب الانجليز بهذا التدخل جانب المماليك واصبحوا حماتهم وصار القوم صنائع لهم فى قضاء مآربهم .

على أن الحوادث السياسية خيبت آمال الفريقين فخلصت البلاد من المماليك ومن الدسائس الانجليزية كما ستراه فيما يلى :

انتهت المؤامرة على المماليك بالفشل وتحرج مركز حسين باشا القبطان امام حلفائه الانجليز ، فلم يلبث أن سافر من ابو قير الى الاستانة فى اواخر نوفمبر سنة ١٨٠١ (رجب سنة ١٢١٦) .

تغير وقتى فى وجهة النظر الانجليزية

جمع المماليك شملهم واجتمع زعماؤهم الذين نجوا من مؤامرة القاهرة ، وبقوا بالجيزة يعدون العدة لقتال الاتراك وينتظرون المدد والعون من الانجليز .

على أن السياسة الانجليزية اقتضت ان تتظاهر مؤقتا بالتزام الحياد وأن تدخرهم لوقت آخر ، ذلك ان فرنسا أخذت تتقرب الى الباب العالى بعد جلاء جيشها عن مصر وتسعى لاعادة روابط الصداقة القديمة التى كانت تصلها بتركيا وتراخت مدة الحملة الفرنسية ، فلما زالت اسباب الجفاء سعت فى عقد معاهدة صلح من شروطها اعادة العمل بالمعاهدات القديمة بين الدولتين ، ابرمت هذه المعاهدة فى باريس يوم ٩ اكتوبر سنة ١٨٠١ ووقعها المسيو (تاليران) وزير خارجية فرنسا ، والسيد على افندى سفير تركيا فى باريس »

فلما علمت بها الحكومة الانجليزية ساءها أن ترى فرنسا منافستها وعدوتها اللدود تسترد مركزها فى الشرق بالاتفاق مع تركيا ، فأخذت تسعى لدى الباب العالى فى منع التصديق على المعاهدة ، وقد وجدت بادىء الامر فتورا من الحكومة التركية لما بلغها من معاونتها للماليك العصاة وتأييدها لمطالبهم ، فاضطرت انجلترا أن تنكر هذه المعاونة وانكرت موقف الجنرال هتشنسون والجنرال ستوارت واستدعت اولهما ارضاء لتركيا ، وسعى اللورد (الجين) Elgin سفير انجلترا فى الاستانة سعيا متواصلا ليحمل الباب العالى ان يعدل عن تصديق المعاهدة ، وكان لنفوذه الفعال على شاطىء البوسفور اثر كبير فى نجاح مسعاه ، فلم يقبل الباب العالى من شروط المعاهدة الا مالا يتعارض مع مقدمات

الصلح التى ابرمت بين فرنسا وانجلترا فى لندن بتاريخ أول اكتوبر سنة ١٨٠١ وهذا معناه عدم التصديق على المعاهدة

رحل الجنرال هتشنسون اذن عن مصر وخلفه فى قيادة الجيش الانجليزى الماجور جنرال اللورد كافان Cavan وجاء الى مصر المستر ستراتن Strabon سكرتير السفارة الانجليزية فى الاستانة يحمل تعليمات الحكومة البريطانية عن سياستها فى مصر ، وافهم اللورد كافان والمستر ستراتن زعماء المماليك ان نصيحة الحكومة الى « اصدقائها البكوات » ان يقبلوا شروط الصدر الاعظم .

ومعنى ذلك انها تخلت وقتا ما عن حمايتهم .

راى المماليك ان ينتظروا الى ان تحين فرصة جديدة تساعدهم فيها الحكومة الانجليزية ، فانتقلوا فى أواخر يناير سنة ١٨٠٢ الى الصعيد لينظموا قواتهم استعدادا لقتال الاتراك .

واصبحت السلطة فى القاهرة والوجه البحرى فى يد الاتراك لاينازعهم فيها منازع ، واعتزم الصدر الأعظم الرحيل الى الاستانة ، فاستدعى محمد خسرو باشا ليسلمه زمام الحكم قبل ارتحاله ، فحضر الى القاهرة يوم ٢١ يناير سنة ١٨٠٢ واستقر فى الحكم ثم ارتحل الصدر الاعظم الى سورية يصحبه جزء من الجيش العثمانى ، وصار محمد خسرو باشا صاحب الحل والعقد فى العاصمة .

جلاء الانجليز ورحيلهم

اخذ مركز خسرو باشا يبدو وطيدا في مصر ، وزاد في ثباته ان الحكومة الانجليزية ارسلت الى الجيش المرابط بالجيزة تأمره بالعودة الى الهند فانسحب الجيش الانجليزى من معسكره فى شهر مايو سنة ۱۸۰۲ ، وسلم الجيزة الى خسرو باشا ، ومضى الى السويس فاقلعت به السفن الى الهند فى اوائل يونية ، ولم يبق من جيش الاحتلال الانجليزى فى مصر سوى القوه المرابطة بالاسكندرية .

وفى ۲۷ مارس سنة ۱۸۰۲ ابرم الصلح المعروف بصلح (اميان) Amiens بين فرنسا وانجلترا وهولندا واسبانيا ، ومن شروطه جلاء الانجليز عن مصر ، لكنهم رغم عهودهم اخذوا يماطلون فى الجلاء ويعملون باتفاقهم مع صنائعهم المماليك على اطالة اجل احتلالهم .

وقد كان نابليون ينظر بعين القلق الى مماطلة انجلترا في الجلاء عن مصر ، لانه راى بثاقب نظره ان رسوخ قدمهم فيها يهدد السلام فى البحر الابيض المتوسط وما يليه ويبسط نفوذ انجلترا وسيطرتها فى نواحيه وفى البلاد المفضيه اليه ويملكها زمام التجارة فى الشرق .

فلما رأى مماطلتها فى الجلاء انفذ الى مصر الكولونل
ويدرس الحالة فى مصر .

سباستيانى Sebastiani ليتعرف نيات الانجليز

والكولونل سباستيانى هذا من خاصة رجالات نابليون الذين حاربوا تحت لوائه واعتمد عليهم فى مهمات سياسية ؛ وقد عهد اليه برحلة سياسية الى الشرق وخاصة فى مصر وتركيا سنة ١٨٠٢ ، ورفعه الى درجة قائد فرقة بعد واقعة استرلتز ثم عينه سفيرا لفرنسا فى تركيا وبقى فى هذا المنصب الى سنة ١٨٠٧

جاء سباستيانى الى الاسكندرية خلال شهر اكتوبر سنة ١٨٠٢ ، وطالب الجنرال ستوارت قائد القوات البريطانية بالجلاء عنها ، لكنه رأى منه العزم على البقاء والفى الانجليز غير مكترثين لعهودهم ، وكذلك كان شأنهم فى كل عهود الجلاء التى قطعوها على أنفسهم .

ولما علم المصريون ان الكولونل سباستيانى قدم ليستعجل الانجليز فى الجلاء عن البلاد قابله كبراؤهم وعلماؤهم بالحفاوة والاكرام .

انتهى الكولونل سباستيانى من رحلته بمصر وغادرها الى بعض الثغور السورية ثم الى الاستانة ثم رجع الى فرنسا وقدم الى نابليون تقريرا عن مهمته .

وما فتىء نابليون يطالب انجلترا بالجلاء حتى اضطرت ان تجلو عن مصر وارسلت اوامرها بذلك الى الجنرال ستوارت ».

موقف المماليك بعد جلاء الانجليز

أبلغ الجنرال ستوارت زعماء المماليك اوامر حكومته بجلاء الجنود الانجليزية عن مصر ، فوقع هذا الخبر كالصاعقة على رءوسهم لانهم كانوا ينظرون الى الانجليز كحماة واولياء لهم ، وقد نصحهم الجنرال ستوارت بالعودة الى الصعيد فى انتظار ما تبذله الحكومة الانجليزية من المساعى لصالحهم .

وكان ستوارت قد خبر نفسية المماليك ، وعجم عودهم ؟ فاستيقن انهم قوم آفاقيون لا يهمهم الا قضاء لباناتهم ولو باعوا فى سبيلها حقوق مصر ومصالحها ، ورأى أن انجلترا رغم جلائها عن مصر تستطيع أن تدخرهم فى المستقبل لتحقيق اطماعها فى وادى النيل ، وأن تتخذهم أداة لبسط نفوذها فى البلاد ، فرغب الى محمد بك الالفى أن يسافر الى انجلترا ليطلب منها مساعدة المماليك على حكم البلاد ويساومها فى هذا الشأن ، فاعتزم الالفى الرحيل اليها ليعرض عليها ولاءه وولاء زملائه .

واتم الجنرال ستوارت معدات الجلاء ، ثم سلم قلاع الاسكندرية وابراجها الى خورشيد باشا محافظ المدينة يوم

١٤ مارس سنة ١٨٠٣ ، واقلعت العمارة البريطانية من الثغر يوم ١٦ تقل الجنود الانجليز وعددهم ٤٠٠ر٤ مقاتل .

وبذلك خلصت مصر من الاحتلال الانجليزى الاول .

وسافر محمد بك الالفى صحبة العمارة الانجليزية واخذ معه اموالا طائلة مما نهبه فى الوجه القبلى مدة امارته .

تجدد الحرب بين المماليك والاتراك

صار الاتراك أصحاب الحول والطول فى الاسكندرية ، فاصبحت خطرا على المماليك بعد ان كانت ملجأ لهم مدة الاحتلال البريطانى ، ولم يطمئنوا الى مقـــامهم بالجيزة ، فانسحبوا بقيادة عثمان بك البرديسى الى الصعيد حيث كان الجيش التركى محتلا بعض البنادر الكبيرة واهمها المنيـا واسيوط وجرجا .

فهاجم البرديسى المنيا واحتلها بعد قتال شديد ، وكانت الجنود العثمانية تدافع عنها بقيادة حاكم المدينة (سليم كاشف) وهو من المماليك الذين انضموا الى الاتراك ، فلما تم للمماليك احتلال المنيا اعملوا فيها النار وقتلوا من فيهـا من الاهالى والجنود .

كان لاحتلال المنيا اثر كبير فى سير القتال ، لانه جعـل الملاحة فى النيل تحت رحمة المماليك واستطاعوا ان يمنعوا

وصول الغلال من الصعيد الى القاهرة والوجه البحرى ،
وصارت الحاميات العثمانية فى أسيوط وجرجا فى خطر ،
وقد اسرف الفريقان المتحاربان فى ظلم الاهالى وسلب اموالهم
فكلما مروا بالقرى طلبوا من أهلها دفع الاتاوات والغرامات
ووضعوا ايديهم قوة واقتدارا على ما يملكه الناس من مال
وحاصلات ، فضج الناس من مظالم الفريقين وتمنـــوا
الخلاص منهما ، مما هيأ لمحمد على فرصة الظهور فى الميدان

ظهور محمد على فى الميدان

نشأ محمد على بمدينة (قوله) من ثغور مقدونية ، ولد
سنة ١٧٦٩ ، وقد انتظم فى سلك الجهادية جنديا بسيطا ،
وزوجه حاكم قوله بقريبة له مطلقة ذات ثروة واسعة ، وهى
التى رزق منها بابراهيم ، وطوسون ، واسماعيل ، واشتغل
بتجارة الدخان وربح منها ، ثم ما لبث ان عاد الى الحياة
العسكرية حين شرعت تركيا فى اعـــداد جيش لمحــــاربة
الفرنسيين فى مصر ، وقد صدر الامر الى حاكم قولة بتقديم
ما لديه من الجنود ، فألف كتيبة من ثلاثمائة جندى انتظم
محمد على فى سلكها ، وكان ابن الحاكم رئيسا لها ، ومحمد
على معاونا له ، وجاءت هذه الكتيبة الى مصر على ظهـــر
العمارة التركية التى رست فى ساحل (أبو قير) فى شهر
مارس سنة ١٨٠١ .

اشترك محمد على فى المعارك الاخـــيرة التى دارت رحاها
فى مصر بين الاتراك والانجليز من جانب ، والفرنسيين من

جانب آخر ، وشهد انتهاء عهد الحملة الفرنسية ، وبقى في مصر وارتقى فى غضون ذلك الى مرتبة كبار الضباط ، فنال رتبة (بكباشى) قبل جلاء الفرنسيين ، ثم رقى الى رتبة (سرجشمه) أى (لواء) فى أواخر سنة ١٨٠١ ، واخذ يرقب تطور الصراع بين القوات الثلاث التى كانت تتنازع على السلطة بعد جلاء الفرنسيين . فطمحت نفسه الى تولى سلطة الحكم فى مصر ، ورسم لنفسه خطة تدل ولا ريب على دهائه وهى التودد الى زعماء الشعب والتحبب اليهم والاستعانة بهم للوصول الى قمة السلطة .

وقد ترك القوات الثلاث (الانجليز والاتراك والمماليك) تتنازع وتتصارع ، وشهد مؤامرة الاتراك على المماليك التى سبق الكلام عنها ، ثم جلاء الانجليز عن مصر ، ثم تجدد الحرب بين الاتراك والمماليك وفوز المماليك ، فأخذ يستعد للتخلص من هؤلاء ، وتمهيدا لهذه الغاية ترك لزعماء المماليك زمام السلطة حتى يحملهم تبعة الحكم ومساوئه ويجعلهم هدفا لسخط الشعب .

عودة محمد بك الالفى وفشل خطته السياسية

سلف القول بأن محمد بك الالفى سافر الى انجلترا حين جلاء الانجليز عن الاسكندرية ، وغايته أن يطلب من الحكومة الانجليزية معاونة المماليك على رجوعهم للحكم .

قضى الألفى فى هذه الرحلة طويلاً من الـزمن ، وكانت الرحلة على جانب كبير من الخطورة ، ولو نجح الألفى فى مهمته لتغير وجه التاريخ المصرى الحديث .

فالألفى كان بلا نزاع اقوى زعماء المماليك شكيمة واشدهم بأسا وأبعدهم نظرا ، وحسبك انالجبرتى يقول عنه انه «آخر من أدركنا من الأمراء المصريين شهامة وصراحة ونظرا فى عواقب الأمور ، وكان وحيدا فى نفسـه ، فريدا فى أبنـاء جنسه ، وبموته اضمحلت دولتهم ، وتفرقت جمعيتهم ، وانكسرت شوكتهم ، وزادت نفرتهم وما زالوا فى نقص وادبار وذلة وهوان وصغار ولم تقم لهم بعده راية وانقرضـــوا وطردوا الى أقصى البلاد فى النهاية » .

فهذا الرجل البعيد النظر الذى بموته اضمحلت دولـة المماليك لعب دورا خطيرا على مسرح الحوادث المصريـــة ، والنقطة البارزة فى تاريخه انه يمثـل خطة سياسية معينة رسمها واتبعها ودعا اليها زملاءه المماليك وكان لا ينفك يسعى لنجاحها ، تلك الخطة هى الاستظلال بحماية انجلترا وتخويلها احتلال ثغور الاسكندرية ورشيد ودمياط مقابل مساعدتها المماليك على الاستقرار فى مصر والاستئثار بزمام الحكم فيها ، ولو نجحت هذه الخطة لوقعت مصر منذ نيف ومائة وخمسين عاما فى قبضة الانجليز ولما تكونت الدولة المصرية المستقلة .

كان الألفى يمثل الحماية الانجليزية ، ومن هنا تتبين لماذا ساعدت انجلترا الألفى وحاربت مصر طوال عهد محمد على .

كان محمد بك الألفى صنيعة السياسة الانجليزية فى مصر ورجل المماليك لدى الانجليز فى الاستظلال بحمايتهم ، وكان الانجليز كما قدمنا لا يفتئون يساعدون المماليك على تولى زمام الحكم فى مصر . وقد بذلوا لهم فوق مساعداتهم فى مصر نفوذهم السياسى فى الاستانة ليضمنوا لهم الحكم وخاصة بعد أن أبرم صلح اميان Amiens الذى يقضى بجلاء القوات البريطانية عن مصر ، فانهم عزموا اذا هم جلوا عنها ان يتخذوا المماليك صنائع واولياء لهم فى البلاد ليضمنوا بسط نفوذهم فيها واحتلالها يوما ما ، فسعوا لدى البـاب العالى لاستمالته الى المماليك ولكنهم اخفقوا فى مسـاعاهم ورفض السلطان رجوعهم الى الحكم ، ومن ثم تجددت الحرب بينهم وبين الأتراك فكان النصر حليفهم .

اخفقت انجلترا فى مسعاها بالاستانة ، ولو انها نجحت لوقعت مصر فريسة فى ايدى المماليك ولرزحت تحت نير الظلم والتأخر احقابا طويلة ، ولصارت على يدهم الى الحماية البريطانية ، لكن الحوادث خيبت ظنونهم ، فسلمت مصر من حكم المماليك ومن حماية الانجليز معا .

غلبة البرديسى على الالفى

رجع الالفى من انجلترا تقله سفينة حربية جعلتها الحكومة الانجليزية تحت تصرفه .

وصل الى ابو قير يوم ١٢ فبراير سنة ١٨٠٤ وسار من فوره الى رشيد وهناك التقى بالمستر بتروتشى . Betrucci

نائب القنصل البريطانى وخلا به عدة ساعات ، ثم اقلتــــه سفينة القنصل فى النيل يرفرف على مؤخرها العلم الانجليزى وانحدرت به الى القاهرة .

علم (محمد على) بعودة الألفى الى مصر ، فأوجس فى نفسه خيفة ، لأن محمد على كان يحسب للالفى حســـابا كبيرا وبعده اقوى خصومه واشدهم بأسا واصعبهم مراسا، لكن الحظ ساعده بأن سحر له عثمان بك البرديسى ليخلصه من خصمه ، ذلك أن البرديسى قد دبت فى نفســه عقارب الحسد من عودة زميله وصديقه القديم من انجلترا ، وداخله الخوف من أن يرى الألفى ينافسه النفوذ والسلطة مؤيدا الجانب من احدى الدول العظمى ، فاعتزم الفتك به والتخلص منــه .

انفذ البرديسى رجاله للقبض على الألفى وقتله ، وكاد الألفى يقع فى الشرك لولا ان لجأ الى الاختفاء والفــرار ، واستطاع ان ينجو بنفسه وذهب الى الصعيد حيث اخـــذ يسعى فى تكوين حزب يناصره .

وهكذا انقسم المماليك وتفرقت اهواؤهم ، فكان ذلك من الأسباب التى عجلت بزوال دولتهم .

لم يكن النزاع بين البـــرديسى والألفى قوامــه الفكرة السياسية ، بل كان منشؤه الحسد والتنافس على السلطة والحكم ، فما كان البرديسى اقل من خصـــمه رغبــة فى الاستظلال بالحماية الانجليزية .

الفصل التاسع عشر

ثورة الشعب على المماليـــك

مارس سنة ١٨٠٤

آلت زعامة المماليك الى عثمان بك البرديسي بعد اختفاء الألفى من الميدان ، وامن على سلطته فى الحكم ، على أن البرديسي بدأ يحتمل تبعة الحكم امام الشعب ويواجه مقاومة قوية أخذت تشتد وتقوى حتى انتهت بسقوط دولة المماليك .

ذلك أن الحالة فى القاهرة كانت تزداد تفاقما بسبب تذمر الشعب من كثرة وقـوع المظـــالم وارهاقه بمختلف الضرائب والمغارم ، وكان المماليك لا يدعون فرصة الا ويفرضون على الناس غرامة أو ضريبة جديدة ، فاشتد الضيق بالأهلين ، وزاد فى سوء الحالة نقص النيل فى تلك السنة (أغسطس

سنة ١٨٠٣) نقصا فاحشا ، فأثر هذا النقص فى حالة الزراعة واستولى الذعر على الناس فى القاهرة وازدحموا على شراء الغلال ، فارتفعت أسعارها وشح الخبز فى الأسواق واشتد الضيق بالفقراء وأواسط الناس ، وعم السواد الأعظم من السكان ، واجتمع الى هذا الضيق اعتداء المماليك والجنود الأرناؤود على ما لدى الناس من الأموال والغلال والمتاع .

وفى حال ذلك (نوفمبر سنة ١٨٠٣ — شعبان سنة ١٢١٨) شكا الناس الى كبار العلماء من ترادف هذا الاعتداء ، فذهب السيد عمر مكرم نقيب الاشراف ، والشيخ عبد الله الشرقاوى ، والشيخ محمد الامير الى البكوات المماليك وطلبوا اليهم منع اعتداء العساكر على الناس . فوعدوهم بالمدخل . وركب الاغا (المحافظ) والوالى (رئيس الشرطة) وأمامه جماعة من عسكر الارناؤود والمنادى ينادى بالامن والامان للرعية وانه اذا وقع من الجند اعتداء أو نهب فللناس أن يضربوهم وان لم يقدروا عليهم فليأخذوهم الى رؤسائهم .

على أن مثل هذه الوعود والتنبيهات ذهبت عبثا ، واستمر الجند والمماليك فى اعتدائهم على الأهالى ، وأخذ جو المدينة يظهر منذرا بوقوع حوادث خطيرة .

بدأت هذه الحوادث بمطالبة الجنود برواتبهم المتأخرة ، وذهبوا الى دار عثمان بك البرديسى يضجون ويتوعدون ،

ولم يكن محمد على بعيداً عن تدبير هذه الحركة ، فاستنجد البرديسى بصديقه محمد على ، فتدخل هذا فى الأمر وهدأ حركة الجنود فى مقابل وعد من البرديسى بأن يدبر فى بضعة أيام المال اللازم لدفع رواتبهم المتأخرة .

كانت خزانة الحكومة خالية من المال بسبب سوء الادارة وتلف الأراضى الزراعية وتعاقب الفتن وما أدى اليه الظلم من انقباض أيدى الناس عن العمل .

ففكر البرديسى فى ابتداع الوسائل للحصول على المال ، ففرض على تجار القاهرة ضريبة جديدة ، لكنه لم يحصل على المال الكافى لسد حاجة الجنود الذين كانوا يزدادون كل يوم ضجة وصخبا ، فاعتزم البرديسى فى شهر مارس سنة ١٨٠٤ (ذى القعدة سنة ١٢١٨) أن يفرض ضريبة جديدة على جميع الأهالى بلا استثناء ، ضربها على العقارات والبيوت أجرة سنة موزعة على الأملاك والمستأجرين ، وكلف عمال الحكومة بأن يحصلوها من كل فرد من أفراد القاهرة من ملاك ومستاجرين .

كانت فداحة الضرائب من اهم أسباب الثورات فى مختلف العصور والبلدان ، كذلك كانت هذه الضريبة الجديدة المنطوية على الارهاق والظلم سببا فى ثورة القاهرة على المماليك ، لانها نزلت بالناس فى وقت اشتداد الضيق ووقوف حركة الاعمال .

أخذ عمال الحكومة وكتابها يعاونهم جنود المماليك يجوبون احياء المدينة وشوارعها وحاراتها يكتبون أسماء الملاك والتجار والمستأجرين ويلزمون كل مالك وكل ساكن بدفع نصيبه في الضريبة على النحو الذى قررته الحكومة بالاتفاق مع رؤساء التجار والطوائف ، فبدأ الناس يتذمرون ، وامتنع كثير من الناس عن دفع المطلوب منهم اما لعجزهم أو لاستنكارهم لهذا الظلم ، فوقعت الملاحاة بينهم وبين عمال الحكومة ، واشتد سخطهم وعلا صياحهم ، واحتشدوا يوم ٢٥ ذى القعدة سنة ١٢١٨ وجاهروا باستنكار هذه المظالم وامتناعهم عن دفع الضرائب ، وخرج الناس من بيوتهم يضجون ويصخبون ، واحتشدوا فى الشوارع حاملين الرايات والدفوف والطبول ، واخذوا يستمطرون اللعنات على الحكام .

وكانت صيحاتهم منصبة على الحكام المماليك الذين بيدهم الحل والعقد ، فأخذت جموعهم تنادى « ايش تأخذ من تفليسى ! يابرديسى ! » .

واغلق التجار وكالاتهم ودكاكينهم ، واتجهت جموع الناقمين الى الأزهر لمقابلة المشايخ والاحتجاج لديهم على الضريبة الجديدة ، فقام المشايخ الى الأمراء المماليك يطلبون الغاءها .

كان احتشاد الجماهير وغضبهم وتجمهرهم من نذر الثورة والتمرد ، فأخذت روح الثورة تنتقل من حى الى حى حتى عمت انحاء المدينة ».

فاضطرب عثمان بك البرديسى امام رؤية الشعب الثائر يستولى على الميادين والشوارع ؛ وكانت الحركة موجهة ضد حكم المماليك من جهة وضد مساوىء الجنود الأرناؤود من جهة اخرى .

وخشى محمد على ان تصيب الثورة جنوده بالأذى ، فبادر الى كشف المماليك امام الشعب وجعلهم وحدهم هدفا لغضب الجماهير ، وجاهر بانضمامه الى العلماء والمشايخ ، ونزل فى الشوارع واختلط بالجماهير الصاخبة وقابل العلماء بالأزهر وتعهد لهم بأن يبذل نفوذه لرفع هذه الضريبة ، كما انه اوصى جنوده الأرناؤود بأن يحترموا الشعب ، فاختلطوا بالناس واعلنوا عدم رضاهم عن الضريبة وجاهروا انهم انما يطلبون رواتبهم من الحكومة لا من الأهالى ، قال الجبرتى فى هذا الصدد : « وفى وقت قيام العامة كان كثير من العسكر منتشرين فى الأسواق ، فداخلهم الخوف ، وصاروا يقولون لهم انا معكم سواء ، وانتم الرعية ونحن العسكر ولم نرض بهذه الضريبة ، ورواتبنا على الميرى لا عليكم » .

يتبين من رواية الجبرتى أن ثورة الشعب كانت على جانب من الخطورة وانجنود محمد على اوجسوا منها خيفة وحسبوا لها حسابا كبيرا ، ولولا ذلك لما « داخلهم الخوف » كما

يقول الجبرتى ، ولما استرضوا الشعب باعلان انضمامهم اليه في ساعة غضبه ، ويؤيد رواية الجبرتى ما ذكره المسيو (فولابل) الذى عاصر تلك الحوادث . قال فى كتابه « مصر الحديثه » يصف حالة القاهرة وما وقع فيها :

« انتشر عمال الحكومة ومعهم طوائف من الجنود المماليك فى احياء القاهرة وشوارعها يطالبون كل مالك وكل تاجر بأن يدفع لفوره حصته فى الضريبة التى فرضت عليهم ، وبدات المطالبة هادئة يعقبها الدفع ، ثم ما لبثت أن أثارت الاحتجاجات وامتنع كثير من التجار عن دفع ما يطلب منهم أما لكونهم أكثر احتياجا ممن دفعوا الضريبة او اكثر شجاعة منهم ، فاشتدت المناقشة وعلا الصخب ، واحتشد الجيران ، ثم لم يلبث الشعب ان احتشد بأجمعه فى الشوارع واتجهوا الى المساجد التى اتخذوها ملتقى لاجتماعاتهم ، فسرعان ما غصت المساجد بجموع الشعب ، واثار اجتماعه فى نفوس الجماهير روح الحماسة والشعور بالقوة والحق ، وقبضت الجماهير فى ساعة الغضب الأولى على بعض جباة الضرائب وقتلوهم .

« كان لهذا الموقف الجرىء الذى ركبه الشعب أثر دهشة وروعة فى نفوس الحزبين اللذين يتنازعان السلطة (المماليك والأرناؤود) ، ولم يعلما عند أى حد تقف حركة الشعب الثائر الذى يستولى على الشوارع والميادين والمبانى ويستعد للمقاومة العنيفة ، ولم يكن خافيا على زعماء الأرناؤود أن

جنودهم قد استهدفوا باعتداءاتهم وفظائعهم لكراهة الأهالى مثلما استهدف لها المماليك سواء بسواء ، فلجأ المماليك الى وساطة العلماء ، أما محمد على فقد بادر الى اغتنام الفرصة لخدمة برنامجه وان يستفيد من الحوادث التى لا مفر من وقوعها ، فانضم الى المشايخ واتصل بالجماهير واختلط بالعامة وتعهد ببذل جهوده حتى يصل الى رفع هذه الضريبة ، فهدأت وعوده من روع الشعب الغاضب ، وتفرقت الجموع راضية عنه » .

قابل عثمان بك البرديسى هذه الثورة بالغطرسة والكبرياء ، ونقم على المصريين قيامهم فى وجهه وخروجهم على حكمه ، وتوعدهم بالشر والنكال ، وفى ذلك يقول الجبرتى : « اظهر البرديسى الغيظ والانحراف من أهل مصر وخرج من بيته مغضبا الى جهة مصر القديمة وهو يلعن اهل مصر ويقول لابد من تقريرها (الضريبة) عليهم ثلاث سنوات ، وافعل بهم وافعل حيث لم يمتثلوا لأوامرنا » .

فالبرديسى والبكوات المماليك نقموا من المصريين انهم « لم يمتثلوا لأوامرهم » وكانوا يريدون منهم الطاعة العمياء والرضوخ للظلم والقهر ، وجهلوا أن روحا جديدة دبت فى نفوس المصريين وحفزتهم الى التطلع لحياة أرقى ومركز اسمى مما كانت البلاد تعانيه فى ذلك العصر ، واخذ المماليك يستعدون لمقاومة الثورة ، ويجمعون جموعهم ويستدعون رجالهم الذين كانوا موزعين فى الأقاليم ، ولكنهم أبطأوا فى

٣

الحضور لانهماكهم في نهب القرى وتحصيل الجبايات ،
وانتهز محمد على فرصة غضب الشعب على المماليك وثورته عليهم وتوزع جنود المماليك فى الاقاليم ليتخلص منهم ، فامر جنوده فهاجموا المماليك الموجودين بالقاهرة يوم ١١ مارس سنة ١٨٠٤ وحاصروا بيت ابراهيم بك ببركة الفيل وبيت عثمان بك البردسى بالناصرية وبيوت باقى المماليك فى انحاء العاصمة واستمر الحصار الى اليوم التالى .

اسقط فى ايدى المماليك ، وراو انفسهم حيال قوتين ، ثورة الاهالى من جهة ، وجنود محمد على من جهة اخرى فلم يجدوا سبيلا للنجاة سوى الفرار من القاهرة ، بعد ان قتل منهم من قتل ، وكان اول الفارين عثمان بك البرديسى وهو الذى كان من قبل يشمخ بأنفه ويهدد ويتوعد ، ومع ن بيته كان اشبه بقلعة تحيط بها الابراج المحصنة وفيهـا الجنود وآلات الحرب والقتال الا انه لاذ بالفرار الى مصر القديمة ومنها الى ناحية البساتين ثم الى حلوان ، وفر كذلك ابراهيم بك الى الرميلة ثم الى الصحراء ، وكان جنود المماليك يحتلون قلعة الجبل ويطلقون القنابل على الأزبكية، فلما علموا بفرار زعيميهم عثمان بك البرديسى وابراهيم بك وقع الرعب فى قلوبهم وابطلوا الرمى ، واخلوا القلعة ونزلوا من باب الجبل ولحقوا بابراهيم بك فى فراره ، وتسلم القلعة جنود محمد على ، وخرج المماليك من المدينة على اسوأ حال ، وذهبوا الى الوجه القبلى يستعدون لاستئناف الحرب

والقتال ،وينهبون القرى ويفرضون عليها الغرامات والاتاوات، وكانوا فى فرارهم من القاهرة على غير الشجاعة التى كانوا يتفاخرون بها ايام الرخاء .

قتل من المماليك واجنادهم فى ذلك اليوم نحو ثلثمائة وخمسين ، وارتحل الباقون منهم عن المدينة ، وانتفض الشعب فى رشيد ودمياط وسائر العواصم على الحكام المماليك ، فهربوا الى الصعيد ودالت دولتهم وانقضى حكمهم من البلاد ، ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة »

وفى اليوم التالى ابطلت الضريبة التى كانت سببا فى اشتعال نار الثورة .

الفصل العشرون

ثوره الشعب على الوالى التركى

مايو سنة ١٨٠٥

بعد أن دالت دولة المماليك اجتمع العلماء ورؤساء الجند واجمعوا رايا على تعيين خورشد باشا محافظ الاسكندرية واليا وتعيين محمد على قائمقاما له ، وأوفدوا الى الاسكندرية رسولا يدعو خورشد باشا الى الحضور للقاهرة ليتولى منصب الولاية .

ولاية خورشد باشا

وصل خورشد باشا الى بولاق فى اواخر مارس سنة ١٨٠٤ ، وهو خامس من تقلد ولاية مصر فى نحو سنتين ، فأولهم خسرو باشا وقد خلع ، ثم طاهر باشا وقد قتل ، ثم أحمد باشا وقد طرد ، ثم على باشا الجزائرلى وقد قتل ، ثم جاء خورشد باشا وفى عهده قامت الثورة التى سنتكلم عنها فيما يلى .

ولا جرم أن هذه التعيينات والتقلبات تدلك على مبلغ تزلزل النفوذ التركى فى البلاد وما آلت اليه سلطة الوالى من الضعف والانحلال .

والواقع أن الوالى العثمانى لم تكن سلطته تتعدى حدود مدينة القاهرة وكانت ابدا عرضة لتمرد الجنود وعصيانهم .

لم يفقد المماليك املهم فى استعادة سلطتهم القديمة بالرغم من طردهم من القاهرة وعواصم الوجه البحرى وتشتتهم فى الوجه القبلى ، فجمعوا شملهم وعادوا الى الجيزة بقيادة عثمان بك البرديسى وابراهيم بك يريدون فتح القاهرة ، وتفرقت جماعات منهم فى الشرقية والقليوبية والمنوفية والغربية يعيثون فى البلاد فسادا وينهبون حاصلات الأهالى ومواشيهم ويفرضون عليهم الاتاوات والغرامات ، واصبحت القاهرة فى شبه حصار واستمرت الحرب سجالا بين المماليك وجنود الوالى ومحمد على عدة اشهر الى ان ارتدوا عن القاهرة ، وكان فيضان النيل من اهم اسباب ارتدادهم لأن المياه غمرت البلاد التى كانوا مرابطين فيها فاضطروا الى الرحيل عنها وانسحبوا ثانية الى الصعيد .

وفى أثناء ذلك اخذ خورشد باشا يدبر الوسائل للتخلص من محمد على ، فاستصدر من الاستانة فرمانا بعودة الألبانيين ورؤسائهم الى بلادهم ، وجاء الفرمان يحمله رسول الى القاهرة ، وتظاهر محمد على بالاذعان وأعد عدته للرحيل، بيد أن العلماء لما علموا بامر هذا الفرمان طلبوا الى محمد على البقاء بمصر ، واضطربت القاهرة لنبأ هذا الرحيل ، واقفلت الأسواق والدكاكين ، وكاد حبل الأمن يضطرب ، فقبل محمد على طلب العلماء وأعلن بقاءه ارضاء للرأى العام .

فلما تحقق خورشد باشا عدول محمد على عن السفر

ادرك أن مكيدته قد أخفقت واضطر للاذعان مؤقتا للأمر الواقع والاستعانة بمحمد على فى محاربة المماليك بالصعيد ، ورأى فى تكليفه هذه المهمة ذريعة لابعاده هو وجنوده عن القاهرة ليخلو له الجو فيها .

سار محمد على من القاهرة على رأس جنوده الارناؤود وعددهم نحو ثلاثة آلاف مقاتل يوم ١٧ أكتوبر سنة ١٨٠٤ (١٢ رجب سنة ١٢١٩) وكان يعاونه جيشان آخران جردهما الوالى ، الأول بقيادة سلحداره وعدده نحو أربعة آلاف ، والثانى بقيادة حسن باشا وعدده نحو ١٢٠٠ مقاتل .

فاخذت هذه القوات تطارد المماليك فى الصعيد واستولت على المنيا يوم ١٥ مارس سنة ١٨٠٥ بعد حصار دام ستة وخمسين يوما .

وبينما كان محمد على منهمكا فى قتال المماليك بالصعيد ، اراد خورشد أن يتخلص من منافسه فى السلطة ، وطلب من الحكومة العثمانية امداده بقوات جديدة ، فصادف هذا الطلب هوى فى نفسها لأنها لم تنظر بعين الرضا الى تضعضع نفوذ ممثلها الرسمى فى مصر ، فأنفذت اليه جيشا من الدلاة احتشد فى سورية وسار منها الى مصر ، فلما وصل الى محمد على نبأ وصول هذا الجيش ورأى انه هو المقصود بقدومه عجل بالعودة هو وزميله حسن باشا الى القاهرة ليحبط سياسة خورشد باشا قبل ان ترسخ قدم الدلاة فى البلاد .

وكان غرض خورشد أن يستعين بجيش الدلاة لتثبيت

سلطانه ، لكن هذا الجيش كان السبب فى القضاء المبرم على سلطة الوالى كما سيجىء بيانه .

سوء سياسة خورشد باشا ونفوذ العلماء

كان خورشد باشا سيىء الرأى فسد التدبير ، ميالا الى الظلم ، غير مكترث بميول الشعب ، معتمدا على القوة الغشوم .

سكن القلعة من اليوم التاسع من صفر سنة ١٢١٩ (٢٠ مايو سنة ١٨٠٤) ، فكان انتقاله اليها نذيرا بالتجائه الى القوة المسلحة فى اخضاع المدينة ، تعددت مظالمه فتدخل العلماء غير مرة لرفعها عن النـــاس ، ومن اجل هذا عظم نفوذهم فكانوا موئل الشعب يفزع اليهم عند وقوع الملمات ، وكانت مساوىء خورشد باشا هى الباعثة على ذلك .

ففى عهده قوى سلطان العلماء وبلغ نفوذهم اقصى مداه حتى اثاروا الشعب واقتلعوا بقوته الوالى عن كرسى ولايته ، واجلسوا واليا آخر (محمد على) مكانه ، ولم يسبق لهم هذا النفوذ من قبل ، كما لم يخلص لهم مثله بعد انقضاء هذا العصر .

مقدمات الثورة

فرض خورشد باشا فى شهر مايو سنة ١٨٠٤ اتاوة جديدة على ارباب الحرف والصنائع ، فضجوا منها لما كانوا فيه من الضيق وسوء الحال واقفلوا حوانيتهم وحضروا الى الجامع الأزهر يشكون أمرهم الى العلماء ، وكان اقفال الحوانيت

من نذر الثورة ، فمر المحافظ ورئيس الشرطة فى الاسواق ينادون بالأمان وفتح الحوانيت فلم يفتح منها الا القليل .

وظلت الخواطر فى هياج يومى السبت والأحد (١٦ ـ ١٧ صفر سنة ١٢١٩) ، وفى يوم الاثنين (١٨ صفر سنة ١٢١٩ ـ ٢٩ مايو سنة ١٨٠٤) اشتد الهياج ، واقفلت جميع الدكاكين والاسواق ، واحتشدت جموع الصناع وارباب الحرف وجماهير الناس بالجامع الأزهر ومعهم الطبول ، وصعد كثير منهم الى المنارات يصرخون ويدقون الطبول ، فوصل دوى ندائهم الى نواح بعيدة فى المدينة وسمعه الوالى وهو بالقلعة ، ووصله خبر التجمهر ، فأرسل الى السيد عمر مكرم نقيب الأشراف رسولا ينبئه بانه رفع الاتاوة عن الفقراء منهم ويطلب اليه فض الجماهير ، فقال السيد عمر مكرم « ان هؤلاء الناس وأرباب الحرف والصنائع كلهم فقراء وما كفاهم ما هم فيه من الكساد وسوء الحال حتى تطلبون منهم مغارم لرواتب العسكر »ومعنى هذا أن السيد عمر مكرم طلب رفع الاتاوة عن الجميع ، فرجع الرسول بذلك الى الوالى وحضر الأغا (محافظ المدينة) ومعه عدة من الجنود وجلس بالغورية يأمر الناس بفتح الدكاكين ، ويتوعد من يتخلف ، فلم يحضر احد ولم يسمعوا لقوله ، فاضطر الوالى أمام هذه الحركة الى رفع الاتاوة ، فى ذلك اليوم وأعلن ابطالها ونادى المنادى بذلك فاطمأن النساس وتفرقوا .

كان الشعب اذا مستعدا للهياج متحفزا للانقضاض والثورة،

وقد كان لهذه الحركة اثرها فى نفوس الناس لانهم ايقنوا ان فى استطاعتهم رفع المظالم باجتماعهم وتقرير الاضراب العام وامتناعهم عن دفع الضرائب .

فظائع الجنود الدلاة وهياج الشعب

كان جيش الدلاة الذى جلبه خورشد باشا مؤلفا من ثلاثة آلاف مقاتل من اردأ عناصر السلطنة العثمانية ، فاخذوا يعيثون فى الأرض فسادا ويرتكبون الجرائم ويعتدون على الأموال والأرزاق والأرواح .

وقعت هذه المظالم وترادف اعتداء الجنود الدلاة ، واضطر الوالى الى الاغضاء عن سيئاتهم ليستعين بهم فى تثبيت سلطانه ، ومد لهم فى حبل السلب والنهب وعلم خورشد أن محمد على راجع الى القاهرة .

سعى خورشد باشا فى استمالة العلماء اليه ولكنه اخفق فى مسعاه فأراد أن يجعلهم تحت رقابته فطلبهم وطلب السيد عمر مكرم فى اليوم الحادى عشر من شهر محرم سنة ١٢٢٠ (١١ أبريل سنة ١٨٠٥) فلما اجتمعوا به قال لهم ان محمد على وحسن باشا راجعان من الوجه القبلى من غير اذن وطالبان شرا ، فأما أن يرجعا من حيث اتيا ويقاتلا المماليك واما ان يذهبا الى بلادهما أو يتوليا ولايات ومناصب فى غير مصر ، وقال أن لديه أمرا من السلطان « أعزل من اشاء وأولى من اشاء واعطى من أشاء وامنع من اشاء » وطلب اليهم ان يبقوا عنده (بالقلعة) يقيمون معه صحبة كبار الضباط .

ففهم العلماء أن الوالى يريد أن يبقيهم فى القلعة ليكونوا رهائن تحت يده ، فاعتذروا بأن بعضهم وهم الشرقاوى والبكرى والمهدى غائبون عن مصر ، فقال اذا نرسل لهم بالحضور .

وانتهى الاجتماع على أن يبيت بالقلعة كل ليلة اثنان من المشايخ واثنان من الوجاقليه (الجهادية) واعدوا لهم مكانا بالضربخانة (دار الضرب) .

وكان الشعب يعتبر الوالى مسئولا عن فظائع الدلاة ومظالمهم ، لانه هو الذى جلبهم لتايد سلطته ، فاخذ تيار السخط العام ينحدر نحو الوالى وعب عبابه ، ولم يبق بين السخط والثورة الا ان تقع حادثة تشعل نار البركان .

أيام الثورة

أول مايو ــ ٩ يولية سنة ١٨٠٥

فى يوم الأربعاء أول مايو سنة ١٨٠٥ اعتدى الجنود الدلاة على أهالى مصر القديمة وأخرجوهم من بيوتهم ونهبوا مساكنهم وأمتعتهم وقتلوا بعض الأهالى الآمنين ، فعظم الهياج فى مصر القديمة وحضر جميع سكانها رجالا ونساء الى جهة الجامع الأزهر ، وانتشر خبر الاعتداء والهياج بسرعة البرق فى انحاء المدينة ، واجتمع العلماء وذهبوا الى الوالى وخاطبوه فى وضع حد لفظائع الجنود الدلاة ، فأصدر الوالى امرا للجنود بالخروج من بيوت الناس وتركها لأصحابها .

وكان هذا الأمر صوريا ، لأن الجنود لم يخضعوا ولم ينفذوه ، فخوطب الوالى ثانيا فى الأمر فطلب مهلة ثلاثة

ايام ليرحل الجنود من المدينة قاطبة .

فلما علمت الجماهير بهذا الجواب اشتد ضجيجهم وتضاعف سخطهم وتألبت جموعهم وبدات علائم الثورة تلوح فى افق المدينة ».

وفى اليوم التالى (الخميس ٢ مايو) عمت الثورة أنحاء العاصمة »

اضراب العلماء عن التدريس

اجتمع العلماء بالازهر وأضربوا عن القاء الدروس ،وأقفلت دكاكين المدينة وأسواقها ، واحتشدت الجماهير فى الشوارع والميادين يضجون ويصخبون ، فأدرك الوالى خطر الحالة ، وارسل وكيله صحبة رئيس الانكشارية (المحافظ) الى الأزهر لمقابلة العلماء ومفاوضتهم لوقف الهياج ، فلم يجدهم بالازهر ، فذهب الى بيت الشيخ عبد الله الشرقاوى وهناك حضر السيد عمر مكرم وزملاؤه فأغلظوا له فى القول فانصرف على غير جدوى ، ومضى يقصد القلعة ، لكن الجماهير لم تكد تبصره حتى انهالوا عليه رجما بالأحجار ، ورفض العلماء أن يتدخلوا لايقاف الهياج ، وطلبوا جلاء الجنود الدلاة عن المدينة فى مدة حددوها ، وكانت اجابة هذا الطلب صعبة التحقيق لأن الوالى يستحيل عليه أن يبعد الجنود عن القاهرة وهم من جهة عدته فى القتال ومن جهة أخرى فان لهم رواتب متأخرة والخزانة خالية من المال ، فظل العلماء مضربين عن القاء الدروس ، وبقيت الدكاكين والأسواق مقفلة اكثر من أسبوع ، وامتنع العلماء عن مقابلة الوالى

طوال هذه المدة .

تبين لك مما تقدم أن حركة شـــعبية قوية قامت تناوىء سلطة الوالى التركى ، كانت هذه الحركة قوامهـــا الشعب وزعماؤه ، ومن الخطأ أن يظن احد ان محمد على هو الموعز بهذه الحركة ، فان منطق الحوادث يدل يقينا على انها نتيجة تذمر الجماهير وتبرمها من مظالم الحكم ، وانما اغتنم محمد على تلك الحركة ليكسب تأييدهم كما فعل فى ثورة الشعب على حكم المماليك .

تعيين محمد على واليا لجدة
ومحـــاولة ابعـــاده عن مصر

وأثناء ذلك ما فتىء خورشد باشا يبذل الوسائل لاقصاء محمد على عن مصر ، وكان من قبل يسعى سعيا حثيثا لدى الباب العالى لهذه الغاية ، وقد نجح فى مسعاه اذ ورد فرمان سلطانى بتقليد محمد على ولاية (جدة) .

وكان الغرض من هذا التعيين ابعاد محمد على عن مصر بأية وسيلة ولو بترقيته ، فابتهج خورشد باشا لورود هذا الفرمان وظن أنه سيخلصه من منافسه فى المنصب ، وارسل الى محمد على يستدعيه الى القلعة ليسلمه الفرمان ويخلع عليه خلعة الولاية الجديدة ، لكن محمد على ادرك ما فى هذا التعيين من الدسيسة وخشى الغدر به اذا هو صـــعد الى القلعة تلبية لدعوة الوالى فأرسل ينبئه أنه مستعد لتلقى أمر التعيين فى المدينة فى أى منزل يختاره الوالى ، فغضـــب خورشد باشا من هذا الجواب ، وكاد الامر يستفحل لولا

تدخل الشيوخ فاتفقوا على أن يكون الاجتماع في منزل سعيد اغا وكيل دار السعادة وصديق محمد على ، فرضي خورشد باشا بهذا الحل مرغما ، وذهب في الميعاد (٣ مايو سنة ١٨٠٥) الى دار سعيد أغا بالأزبكية ، وامر بتلاوة الفرمان القاضي بتعيين محمد على واليا لجدة ، وكان ذلك بحضور علماء المدينة وكبرائها ، ولما انتهى الاجتماع خرج محمد على ومضى الى داره ، وعاد الوالي الى القلعة بعد أن كاد الجنود المطالبون برواتبهم المتأخرة يفتكون به ، ولم ينل خورشد باشا من وراء هذه الدسيسة سوى الخيبة والفشل ، فان محمد على قد زادت مرتبته بتقلده الولاية دون أن يبتعد عن الميدان او يذهب الى جدة .

اجتماع زعماء الشعب ومطالبهم
١٢ مايو سنة ١٨٠٥

انتهت الفترة التى حددها العلماء لجلاء الجنود الدلاة عن المدينة يوم السبت ١١ مايو سنة ١٨٠٥ ، واستطاع الوالي أن يبعد رهطا منهم تهدئة للخواطر الثائرة ، ولكن بقى منهم بالقاهرة نحو الف وخمسمائة ، وعلم زعماء الشعب أنهم ممتنعون عن الجلاء حتى تدفع رواتبهم وأن الوالي لا يريد اخراجهم حتى تؤدى لهم تلك الرواتب وانه لا سبيل الى دفعها مع خلو خزانة الحكومة من المال الا بفرض ضريبة جديدة على المدينة .

أحدثت هذه الأنباء هياجا عظيما في الخواطر ، وبات الناس ليلة الأحد في هرج ومرج ، والزعماء يتشاورون فيما يعدونه

للفـداء .

وعندما تبلج صبح يوم ١٢ مايو سنة ١٨٠٥ (١٢ صـفر سنة ١٢٢٠) اجتمع زعماء الشعب واتفقوا رأيا على الذهاب الى دار المحكمة الكبرى (بيت القاضى) لاختصـــام الوالى واصدار قراراتهم فى مجلس الشرع .

ولم تكد تعلم الجماهير بما استقر عليه رأى الزعمـــاء حتى احتشدت جموعهم واتجهت الى دار المحكمة ، واقبلت الجموع من كل صوب على دار العدل واحتشدت بفنائهـا وحولها ، وبلغت عدتها أربعين ألف نسمة .

فكان اجتماع هذا البحر الزاخر من الخلائق هو الثورة بعينها ، وظهرت روح الشعب قوية ناقمة على الوالى وعلى الحكم التركى .

ويكفيك لتعرف نفسية الشعب فى ذلك اليوم العصيب أن تتأمل فيما ذكره الجبرتى عن صيحاتهم التى كانوا ينادون بها فقد كانوا يصيحون « يارب يامتجلى ، اهلك العثملى » ، فهذا النداء يدلك على ما كان يجيش بنفوس المصريين من روح السخط على الحكم التركى واعتزام التخلص منه ، وهـذا يعطيك صورة لما أحدثته الروح القومية من الأثر البالغ فى النفوس .

وثيقة الحقوق

اجتمع زعماء الشعب فى دار المحكمة وطلبوا من القاضى أن يرسل باستدعاء وكلاء الـــوالى ليحضروا مجلس الشرع ،

فارسل يستدعيهم على محل فحضروا ، وعندما انعقد المجلس عرض الزعماء ظلامة الشعب وحرروا مطالبهم وهى :
الا تفرض من اليوم ضريبة على المدينة الا اذا اقرها العلماء وكبار الاعيان .
ان تجلو الجنود عن القاهرة وتنتقل حامية المدينة الى الجيزة .
الا يسمح بدخول اى جندى الى المدينة حاملا سلاحه .
ان تعاد المواصلات فى الحال بين القاهرة والوجه القبلى .
هذه هى المطالب التى املاها وكلاء الشعب فى اجتماع ١٢ مايو سنة ١٨٠٥ وسلموا صورتها الى القاضى وقام وكلاء الوالى نيلغوها الى خورشد باشا بالقلعة .
نقلنا بيان هذه المطالب عن المسيو فولابل الذى دونها فى كتابه (مصر الحديثة) واسماها « وثيقة الحقوق » تشبيها لها « بوثيقة اعلان الحقوق » التى قررها البرلمان البريطانى سنة ١٦٨٨ وايد فيها حقوق الشعب الانجليزى واهمها ان لا يجوز للملك أن يفرض ضريبة الا بعد موافقة البرلمان .
وقد رجعنا الى الجبرتى فرايناه يوردها بصيغة اخرى تختلف قليلا عن رواية فولابل وان كانت تتفق واياها فى مجموعها قال : « فحضر الجميع واتفقوا على كتابة عرضحال بالمطلوبات ، ففعلوا ذلك وذكر فيه تعدى طوائف العسكر والايذاء منهم واخراجهم من مساكنهم والمظالم والفرد (الضرائب) ، وقبض مال الميرى المعجل ، وحق طرق

المباشرين ، ومصادرة الناس بالدعاوى الكاذبة وغير ذلك
واحدوث (وكلاء الوالى) ووعدوا برد الجواب فى ثانى يوم »

رأى الوالى أن الحركة خطيرة ، وأن الثورة تؤذن أن تقتلعه من مقره ، وكان السيد عمر مكرم نقيب الأشراف فى مقدمة زعماء الحركة وأكبرهم نفوذا ، وفى ذلك يقول فولابل : « أن السيد عمر مكرم ظهر فى الصف الأول من صفوف المجاهدين الذين رآهم الشعب لأول مرة يدافعون عن مصالحه » فأراد الوالى أن يلقى القبض عليه ويعتقله بالقلعة ليشل الحركة القائمة فى المدينة ، فلما وصلته رسالة القاضى أرسل اليه يستدعيه ويستدعى السيد عمر مكرم والعلماء الى القلعة ليتشاور معهم فى الأمر ، لكن السيد عمر فطن الى مقاصد الوالى وخشى الغدر ، فأشار برفض الذهاب الى القلعة ، وكان محقا فى حذره لأنهم علموا بعد ذلك أن الوالى أعد أشخاصا لاغتيالهم فى الطريق .

خلع خورشد باشا والمناداة بمحمد على واليا لمصر

١٣ مايو سنة ١٨٠٥

لم يجب أحد من زعماء الشعب دعوة الوالى ولم يذهبوا الى القلعة ، فحنق عليهم وعد امتناعهم عن الذهاب اليه تمردا وعصيانا ، وتلقاء ذلك رفض اجابة المطالب التى قرروها .

كان هذا الرفض معجلا لسير الحوادث فاجتمع وكلاء الشعب من العلماء ونقباء الصناع فى اليوم التالى (الاثنين

١٣ مايو – ١٣ صفر سنة ١٢٢٠) بدار المحكمة ليتداولوا فى الموقف .

واحتشدت الجماهير فى فناء المحكمة وحولها يؤيدون وكلاءهم ، وهناك اتفقت كلمة نواب الشعب واجمعوا رأيهم على عزل خورشد باشا وتعيين محمد على واليا بدله ، وعندئذ قاموا وانتقلوا الى دار محمد على لتنفيذ قرارهم وابلغوه ما اتفقوا عليه وقالوا :

« اننا لا نريد هذا الباشا واليا علينا ولابد من عزله من الولاية » .

ونادى السيد عمر مكرم بالنيابة عنهم وقال :

« اننا خلعناه من الولاية » .

فقال محمد على : « ومن تريدونه واليا » .

فقال الجميع بصوت واحد : « لا نرضى الا بك وتكون واليا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير » .

فاظهر محمد على ترددا وامتناعا خشية المسئولية وحتى لا ينسب اليه انه المحرض على هذه الثورة الشعبية ، وقال انه لا يستحق هذا المنصب وان هذا التعيين قد يمس حقوق السلطان ، فألح وكلاء الشعب عليه وقالوا جميعا قد اخترناك برأى الجميع والكافة ، والعبرة برضا أهل البلاد ، واخذوا عليه العهود والمواثيق أن يسير بالعدل وألا يبرم أمرا الا بمشورتهم .

فقبل محمد على ولاية الحكم ، ونهض السيد عمر مكرم

والشيخ عبد الله الشرقاوى والبساه خلعة الـولاية ، وكان ذلك وقت العصر .

وبذلك تمت مبايعة نواب الشعب لمحمد على ، وامروا بأن ينادى به فى انحاء المدينة واليا لمصر .

هذا هو اليوم المشهود الذى تولى فيه محمد على حكم مصر بارادة الشعب .

وهو من الأيام التاريخية المعدودة فى تاريخ الحركـة القومية ، ففيه تم انقلاب عظيم فى نظام الحكم ، فيه وضعت مصر لنفسها اساس حريتها واستقلالها ، فيه أعلنت عن حقها فى تقرير مصيرها ، فيه تجلت سلطة الأمة ممثلة فى اشخاص زعمائها وذوى الراى فيها ، تجلت سلطة الأمة فى خلع الوالى الذى لم ترتض حكمه واسناد ولاية الأمر الى من انتخبه زعماء الشعب ووكلاؤه .

وتلك اول مرة فى تاريخ مصر الحديث يعزل الوالى ويختار بدله بقوة الشعب وارادته .

لقد كان الولاة يعزلون بقوة الجند وارادة رؤسائهم من المماليك ، لكن هذه المرة كان الانقلاب شعبيا فوقع بـارادة الشعب وبقوة الشعب ، تم انتخاب محمد على للولايـة على الرغم من صدور الفرمان السلطانى باسناد ولاية جدة اليه ، وكان معروفا ان الحكومة التركية تؤيد خورشد باشـا وتناصره فى موقفه ، فخلع خورشد باشا وانتخاب محمد على واليا لمصر فيه معنى الاستقلال عن الحكومة التركيـة ومقاومة تدخلها فى حكم مصر .

ويمتاز هذا الانقلاب بأنه لم يكن مقصورا على مجـــرد انتخاب وكلاء الشعب لولى الامر ، بل كان مقرونا باشتراطهم أن يرجع اليهم فى شؤون الدولة ، فوضعوا بذلك قاعـدة الحكم الدستورى فى البلاد ، وفى ذلك يقول الجبرتى عن ولاية محمد على : « تم الأمر بعد المعاهدة والمعاقـــدة على سيره بالعدل واقامة الأحكام والشرائع والاقلاع عن المظـالم وألا يفعل امرا الا بمشورته ومشورة العلماء وانه متى خالف الشروط عزلوه » .

وهناك ميزة اخرى اكسبت ذلك الانقلاب بهاء وجلالا ، ذلك انه تم فى دار المحكمة ، فى ساحة القضاء ، فاتخـــذ معنى الاحتكام الى العدالة والتمسك بالحق ، وهى فكـرة جليلة امتازت بها تلك الثورة المصرية ، ولا نظن ثورة أخرى غربية أو شرقية تسامت الى هذا المعنى البديع .

فالثورة اذا كان قوامها المطالبـــة بالحق والاحتكام الى العدل ، كان أساسها الحق ومن ورائه قوة الشعب تســنده وتؤيده. وما أحوج الثورات والحركات القومية الى أن تحافظ فى كل أدوارها على معانى الحق والعدل والنزاهة، فانها بذلك تسلم من الانحدار فى مهاوى الرذيلة والفساد ، والفـوضى والطغيان .

القتال بين الشعب والوالى

أبلغ زعماء الشعب قراراتهم الى خورشد باشا ، وذهب وفد منهم الى القلعة لمقابلته ، فأجابهم « انى مولى من طرف السلطان فلا أعزل بأمر من الفلاحين ، ولا أنزل من القلعـة

الا بأمر من السلطنة » .

ومعنى ذلك انه رفض الاذعان لمطالب وكلاء الشعب وكبر عليه ان يصـــدر منهم امر او نهى وانكر عليهم هذا الحق بأسلوب يدل على مبلغ ما كان يشعر به الحكام من ازدراء ارادة الشعب ، فلم يكن بد من نشوب القتال بين الشعب والوالى .

وقد حرر نواب الشعب يوم اجتمـــاعهم محضرا بعزل خورشد باشا وتعيين محمد على بدله ، ولم يذكر الجبرتى انهم حرروا محضرا الا فى يوم ١٦ صفر (١٦ مايو) حينمـــا طلب منهم خورشد باشا سندا شرعيا بالعزل ، لكن (فولابل) يقول انهم حرروا محضرا يوم ١٣ مايو اى قبل المحضر الثانى ، ويقول ان الذى تولى تحريره هو الشيخ محمد المهدى واقتبس منه العبارة الآتية وقال عنها انها جديرة بالتفات النظر اليها ، وهى « ان للشعوب طبقا لما جرى به العرف قديما ولما تقضى به احكام الشريعة الاسلامية الحق فى ان يقيموا الولاة ولهم أن يعزلوهم اذا انحرفوا عن سنن العدل وساروا بالظلم لأن الحكام الظالمين خارجون على الشريعة » .

واخذ الوالى يحصن القلعة ويتزود من الميرة والذخيرة ويستعد للقتال لاخضاع المدينة واخماد الثورة .

واخذ زعماء الشعب من ناحيتهم يعدون الوسائل لحصار القلعة لاجبار خورشد باشا على التسليم ، فدعـوا الاهالى الى حمل السلاح ، واحتشد الثائرون فى ميدان الأزبكيـــة حتى ملأوه ، واعتزم الزعماء ، ان يعدوا ابلاغ الوالى قرارهم ويطلبوا اليه احترامه منعا للفتنة وحقنا للدماء ، فبعثوا برسالة

الى عمر بك وصالح قوش « من ضباط الارناؤود » يذكرون فيها « ما اجتمع عليه رأى الجمهور من عزل الباشا وانه لا ينبغى مخالفتهم لما يترتب على ذلك من الفســـاد العظيم وخراب الاقليم » .

فلوسل عمر بك وزميله يطلبان سندا شرعيا مثبتا لعزله ، فاجتمع الزعماء فى يوم الخميس (١٦ مايو ١٨٠٥ — ١٦ صفر ١٢٢٠) بدار المحكمة (بيت القاضى) وحرروا محضرا فى شكل سؤال وجواب على نحو الفتاوى التى كانت تصـــدر بخلع السلاطين فى الاستانة ووقعوا على المحضر وارسلوه الى الوالى ومستشاريه ، فلم يقتنعوا به ولم يتعقلوه ، واستمر الوالى على عناده .

فأخذ السيد عمر مكرم يحرض الناس على الاجتمـــاع والاستعداد للقتال ولبى الأهالى الدعوة متطوعين حامليـــن ما وصلت اليه ايديهم من الأسلحة والعصى ، فأقاموا المتاريس والاستحكامات بالقرب من القلعة وتحصنوا بها وحمل السلاح كل قادر على حمله ، وخلت مخازن الأسلحة مما فيهـــا من آلات الكفاح واشتركت جميع طبقات الشعب فى حمـــل السلاح على اختلاف أعمارهم ومراكزهم وطوائفهم ، وبلغ عدد الثوار أربعين ألفا حاملين الاسلحة والعصى « وكان الفقراء من العامة يبيعون ملابسهم أو يستدينون ويشترون الأسلحة »

وارسل خورشد باشا الى القاضى يطلب الرواتب المتأخرة لجنوده وبقاءه فى القلعة الى ان يرد جواب الدولة وقال فى رسالته ان اقامته بالقلعة ليس فيها ضرر على الرعيـــة ،

فأجابه القاضي : « ان اقامتكم بالقلعة هي عين الضرر فانه حضر يوم تاريخه نحو الاربعين ألف نفس بالمحكمة طالبين نزولكم او محاربتكم ، فلا يمكننا دفع قيام هذا الجمهور ، وهذا اخر المراسلات بيننا وبينكم والسلام » .

هذا ما ذكره الجبرتي عن المفاوضات بين زعماء الشعب وخورشيد باشا . ولم يذكر لنا في هذه النبذة مركز محمد على خلال هذه المفاوضات . لكن فولابل يلقي على هذه الناحية شيئا من الضوء فيقول في كتابه أن « محمد على » كان يميل بعد المناداة بمبايعته الى أخذ خورشيد باشا بالحسنى لأن اقتراب المماليك من القاهرة في خلال هذه الأيام قد أقلق باله، هذا فضلا عن أنه لم يكن ينظر بعين الارتياح الى استمرار الشعب ثائرا حاملا السلاح ، لأنه رأى في ذلك مصدر قلق على سلطته المستمدة . اذ كان يميل في قرارة نفسه الى الاستبداد بالحكم اذا استقر له الأمر . فرغب الى الشيوخ أن يفاوضوا خورشيد باشا في طريقة سلمية ترضي الفريقين، فأجاب خورشيد بأنه لا يسلم القلعة كما صرح بذلك من قبل الا اذا جاءه أمر من السلطان ، على أنه مع ذلك يكف عن ضرب المدينة اذا تعهد له الشيوخ بأنهم لا يتمسكون بمحاسبته على الأموال التي دخلت خزانته وأن يمكنوه من تزويد القلعة بالمؤونة اللازمة لجنود الحامية .

ويقول فولابل أن الشيوخ قبلوا الشرط الثاني أما الشرط الأول فكان محمد على ميالا الى قبوله لكن زعماء الثورة رفضوه بتاتا واصروا على ضرورة محاسبة خورشيد على

الضرائب التى جباها ، فلما علم بنتيجة المفاوضة اصر على رفض اى اتفاق على غير الأساس الذى عرضه ، فعاد الفريقان الى استئناف الحرب والقتال ، وبعث خورشد باشا الى سلحداره ليغادر الصعيد بجيشه ويجىء الى القاهرة لنجدته .»

عمر مكرم روح الحركة

كان للشعب زعماء عديدون يجتمعون ويتشاورون ويشتركون فى تدبير الامور ، ولكل منهم نصيبه ومنزلته ، ولكن من الانصاف أن يعرف للسيد عمر مكرم فضله فى هذه الحركة .

فقد كان بلا جدال روحها وعمادها ، كان اكثر الزعماء شجاعة واقداما ، واقواهم اخلاصا وايمانا ، وأكثرهم عملا وابعدهم نظرا .

كان يتقدم الصفوف ، ويشدد العزائم، ويدعو الى مواصلة الجهاد ، ويتلافى اسباب الخلاف والانقسام، تتجلى شخصيته فى كلماته ومواقفه واعماله ، فهو اول من دعا الى الاجتماع فى دار المحكمة الكبرى لاعلان خلع خورشد باشا واختيار محمد على باشا بدله ، وهو اول من دعا الى محاصرة القلعة بعد أن أبى خورشد النزول منها ، واول الثابتين فى ايمانهم بعدالة قضية الشعب .

التقى يوما بعمر بك احد مستشارى خورشد باشا ، فوقع بينهما جدل طويل فى صدد القرارات التى أصدرها زعماء الشعب ، ومن جملة ما قاله عمر بك اعتراضا على تلك

العوارات « كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم وقد قال الله تعالى : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم ؟» فأجابه عمر مكرم على الفور : « أولو الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل ، وهذا رجل ظالم ، وقد جرت العادة من قديم الزمان أن اهل البلد يعزلون الولاة ، وهذا شيء مألوف من زمان ، حتى الخليفة والسلطان اذا سار فى الناس بالجور فانهم يعزلونه ويخلعونه » .

فقال عمر بك : « وكيف تحصروننا وتمنعون عنا الماء والاكل وتقاتلوننا ؟ انحن كفرة حتى تفعلوا معنا ذلك ؟ » فقال عمر مكرم : « قد افتى العلماء والقاضى بجواز قتالكم ومحاربتكم لانكم عصاة » .

فهذه الكلمات التى فاه بها بداهة تدل على ما يجيش فى صدره من المبادىء والافكار العالية .

وكان عمر مكرم قائما على تنظيم حركة المقاومة يتعهدها ويتولى قيادة الصفوف فيها ، فتاريخها مرتبط بجهاده وأعماله .

حرض الجماهير على الاجتماع والاستعداد لحصار القلعة ، وركب هو والعلماء الى بيت محمد على بالازبكية يتبعهم الكثير من الجهادية والعامة مسلحين بالاسلحة والعصى ، وواصلوا السهر ليلا فى الشوارع والحارات وأقاموا المتاريس بالقرب من القلعة بجهات الرملة والصليبة والحطابة والطرق النافذة اليها مثل باب القرافة والحصرية

(درب الحصر) وغيرها ، ومنعــوا الصعود الى القلعة والنزول منها ، واخذ الفريقان يترامون بالبنادق ، وصعد جماعة من الثوار الى منارة جامع السلطان حسين يرمون منها القلعة ومن فيها ».

وصف الجبرتي وقائع الثورة في تلك الايام وصف شاهد عيان فذكر ما خلاصته انه في يوم الاربعاء ٢٢ صفر (٢٢ مايو سنة ١٨٠٥) ركب السيد عمر مكرم والمشايخ ومعهم جمع كثير من الناس الى الازبكية ، وبعد ركوبهم حضر الجمع الكثير من العامة وطوائف الاجناد من سائر النواحي وخاصة الحسينية ، والعطوف ، والقرافة ، والرميلة ، والخطابة ، والصليبية ومعهم الطبول والبنادق حتى غصت بهم الشوارع وذهبوا الى الجامع الازهر ثم رجعوا الى الازبكية ».

وكان الغرض من هذه الحركات وما تخللها من ذهاب ومجيء اذكاء نار الحماسة في نفوس الشعب ودعوة طبقاته الى تأييد الثورة والانضواء تحت لوائها ، قال المسيو « فلكس مانجان » في هذا الصدد : « ان هذه الجولات الحربية وما بدا على الجموع من روح القوة أثرت في نفوس جند الوالي الذين انكمشوا أمام هذه المظاهرات».

ولحقت الجموع بالمشايخ وخرج هؤلاء من عند محمد علي واستمرت الحال كذلك الى ليلة الجمعة ٢٤ مايو سنة ١٨٠٥ ، وفي تلك الليلة فيما بين المغرب والعشاء خرج

جنود الوالى من القلعـــة يريدون الاستيلاء على متـــاريس الثوار ، فتبادل الفريقان اطلاق الرصـــاص الى ما بعـــد العشاء ، ثم ارتد جنـــد الوالى على أعقابهـــم الى داخل القلعة .

ويقول الجبرتى أن العساكر الأرناؤود من جنود محمـــد على كانوا فى هذه الملاحم يحاربون جنود الـــوالى بفتـــور مراعـــين انهم « من اجنـــاسهم لأن غالبهم منهم » ، فهـــذه الشهادة قوية الدلالة على أن الثورة التى انتهت باجـــلاس محمد على على عرش مصر قامت على أكتاف الشعب دون جنود محمد على انفسهم ، وملاحظـــة الجبرتى يؤيدها ان أكبر اعوان خورشد باشا وأخص مستشاريه وهمـــا عمر بك وصالح قوش كانا من الرؤســـاء الأرناؤود يعمـــلان بكل الوسائل لمناصرته وضم الأرناؤود الى جانبه ، فلو لم يجـــد محمد على التأييد من زعماء الشعب وافراده لما وصل الى قمة السلطة ، ويؤيد هذا المعنى قول الجبرتى فى موطـــن آخر : « انتصر محمد على بالسيد عمـــر مـــكرم النقيب والمشايخ والقاضى وأهل البلدة والرعايا » ويقصد بالرعايا جمهـــور الشعب .

استمرت الحرب سجالا ، ففى يوم الجمعة ٢٤ مـــايو نزل عمر بك من القلعة وأشاع بين الجمـــاهير ان خورشد باشا عزم على النزول من القلعة والتسليم ، ولم يكن ذلك القول الا خدعة أراد بها أن يفت فى عضد الثـــوار ويضعف من عزائمهم وليتزود من الذخيرة والميرة ، فلمـــا كان يوم

الاثنين ٢٧ مايو تجدد القتال وشدد السيد عمر مكرم في حصار القلعة ، قال الجبرتي يصف ما رآه في هذا الصدد :

« ركب السيد عمر مكرم وصحبته اوجاقليه وعامه الناس بالاسلحة والعدد والاجناد ، واهل حي الخليلي والمغاربة شيء كثير جدا ، ومعهم بيارق ولهم جلبة وازدحام ، بحيث كان اولهم بالموسكي وآخرهم جهة الازهر ، وانفصل الامر على رجوع عمر بك الى القلعة ونزول عابدي بك « أخو حسن باشا أحد القواد الالبانيين » بعد أن قضوا (أي جنود خورشد) أشغالهم وعبوا ذخيرتهم واحتياجهم من الماء والزاد والغنم ليلا ونهارا مدة ثلاثة أيام ، وقد كانوا أشرفوا على طلب الامان وتبين أنهم انما فعلوا ذلك من باب المكر والخديعة واتفق الحال على اعادة المحاصرة » . ثم ذكر الجبرتي ما بذله السيد عمر مكرم في اعداد معدات الحصار . قال : ورجع السيد عمر الى منزله وأخذ في أسباب الاحاطة دفعة كالاول وذلك بعد العشاء ليلة الثلاثاء (٢٨ صفر) ووقع الاهتمام في صبحها بذلك ، وجمعوا الفعله والعربجيه وشرعوا في طلوع طائفة من العسكر والعرب وغيرهم الى الجبل (المقطم) - لضرب القلعة - واصعدوا المدافع ورتبوا عدة جمال لنقل الاحتياجات والخبز وروايا الماء تطلع وتنزل كل يوم مرتين ، وطلع اليهم الكثير من باعة الخبز والكعك والقهاوي وغير ذلك ، واستهل شهر ربيع الاول والامر على ذلك مستمر من تجمع الناس وسهرهم بالليل في سائر الاخطاط » .

اى ان حالة الثورة صارت حالة عادية الفها الناس « وكان الفتور قد تسرب الى جنود الارناؤود الذين يشاركون الثوار فى القيام على المتاريس ، وطلبوا رواتبهم من محمد على ، فاستمهلهم حتى يسلم خورشد باشا فأبوا » ولم يمتثلوا وتركوا المتاريس التى حوالى القلعة وتفرقوا فذهب جماعة من الرعية وتترسوا فى مواضعهم » هذه شهادة الجبرتى ، وهى صريحة فى ان الشعب هو صاحب السد الطولى فى تلك الثورة وانه كان يسد الفراغ الذى يحدث فى الصفوف بانصراف الجنود الارناؤود عن القتال .

كان السيد عمر مكرم شديد اليقظة والحذر ، يرقب تطور الحوادث بنظر ثاقب وجنان ثابت ، راى ان بعض المفسدين يسعون فى الايقاع بين الشعب وجنود محمد على لاحباط الحركة لأن هؤلاء الجنود لم يكتفوا بالتقاعد عن القتال بل كان كثير منهم يهاجمون الثوار فى منازلهم وينهبون ويعتدون ، فسعى جهده فى احباط الفتنة وحال دون استفحال الشر ، وكان له الصوت المسموع والكلمة التى لا ترد فى تلك الايام التاريخية ، تعقد الاجتماعات فى داره وينادى باسمه فى الاسواق وتعلن الاوامر منسوبة اليه ، قال الجبرتى فى حوادث يوم الست عشرة ربيع الاول سنة ١٢٢٠ (٨ يونيه سنة ١٨٠٥) : « حضر حسن نجاتى المحتسب وأمر الافندى بالمناداة ، فمرو امامه المنادى، يقول حسبما رسم السيد عمر الافندى والعلماء لجميع الرعايا بأن يأخذوا حذرهم وأسلحتهم ويحترسوا

فى اماكنهم واخطاطهم » .

من ذلك يتبين أن سلطه الحكم فى تلك الايام التاريخية كانت فى يد السيد عمر مكرم والعلماء وكان هو المرجع لحل المعضلات فى تلك الحركة ، فكان محمد على يتودد اليه ويراسله ويتردد على بيته ويرجع اليه فى مهمات الامور .

وحدث لن خورشد باشا بعث برسالة الى الجنود الدلاة يستنجد بهم و « يطلبهم للحضور ويذكر لهم أنه يجب عليهم معاونته صيانة لعرض السلطنة واقامة لناموسها وناموس الدين وأن الفلاحين محاصروه وما نعون عنه الاكل والشرب » فلما وصلت الرسالة الى الدلاة فى قليوب اعرضوا عن تلبية الدعوة وبعثوا بالرسالة الى محمد على فأرسلها الى السيد عمر مكرم النقيب .

وقال الجبرتى عن الاجتماعات التى عقدت فى داره : « وفى ليلة الاربعاء رابع عشر ربيع الاول (١٢ يونيه سنة ١٨٠٥) حضر كتخدا (وكيل) محمد على ، وجرجس الجوهرى (كبير المباشرين الاقباط) الى بيت السيد عمر وحضر ايضا الشيخ الشرقاوى والشيخ الامير والقاضى ، وتشاوروا على أمر ورأى رآه محمد على باشا » ولم يذكر الجبرتى ذلك الراى الذى كان موضوع الاجتماع والتشاور ، ولعله كان سرا لم يبح به المجتمعون ، فلم يصل الى علم الجبرتى ، على أن المسيو (فلكس مانجان) قد ذكره فى كتابه « تاريخ مصر فى عهد محمد على » فقال انهم اتفقوا فى

هذا الاجتماع على مضاعفة الجهد لاجبار خورشد باشا على تسليم القلعة ، فمن ذلك انهم قرروا زيادة عدد الخفافر فى الاستحكامات والمتاريس وعهدوا الى السيد عمر ارســـال المؤونة والماء كل يوم الى المقاتلة المرابطين بالمقطم .

وكان ليقظة السيد عمر مكرم وانتبـــاهه فضل كبير فى نجاح الحركة ونجاتها من الفشل ، فقد حدث فى مـــدة الحصار ان حضر على باشا السلحدار (قائد الجيش التركى فى الصعيد) بجنوده من (المنيـا) لنجــدة خورشد باشا ورابط بمصر القديمة وما جاورهــا ، وأمكنــه أن يتصــل بالقلعة من طريق الجبل وان يمد حاميتها بالمؤونة والذخيرة، واخذ يعمل من جهة اخرى على الاتصال بجنود محمد على ليفسدهم ويصرفهم عن تأييد الحركة ، فانضم اليه فعــلا كثير منهم ، واعتزم ان يركب فيمن معه من الجنود ويهجم على متاريس الاهالى جهة الصليبية ، فارسل ليلة السبت ١٥ يونيه(١٧ ربيع الاول) الى خورشد باشا ينبئه بعزمه ويطلب اليه فى حالة هجومه من تلك الناحية ان يساعده هو من القلعة بضرب المدينة والمتاريس بالمدافع ، فينزعج الناس ويدب فى صفوفهم الرعب ويستولى جنــود الوالى على المتاريس ويتم ما دبره ، واراد أن يحـــكم تدبيره بالمكر والخداع ، فأوعز الى اثنين من كبراء ضباطه ان يكتبا الى السيد عمر مكرم خطابا مضمونه انهما يريدان الحضور الى جهة القلعة ليسعيا فى الصلح ، وانهما يطلبان الاذن لهما بالذهاب الى القلعة ويلتمسان اصدار الامر الى المرابطين

فى المتاريس من الاهالى باخلاء الطريق لهما ، ولكن رجلا صادقا أمينا من رجال عمر مكرم علم بهذه المكيدة وجاءه بعد الفجر واخبره بها فاخذ اهبته لاحياطها .

حجـــاج الخضرى

قال الجبرتى : « فأرسل السيد عمر افندى الى من بالنواحى والجهات وايقظهم وحذرهم ، فاستعدوا وانتظروا وراقبوا النواحى ، فنظروا الى ناحية القرافة فراوا الجمال تحمل الذخيرة الواصلة من على باشا السلحدار الى القلعة ، ومعها انفار من الخدم والعسكر ، وعدتها ستون جملا ، فخرج عليهم (حجاج الخضرى) ومن معه من أهالى الرميلة فضربوهم وحاربوهم وأخذوا منهم تلك الجمال وقتلوا شخصين من العسكر وقبضوا على ثلاثةوحضروا بهم وبرءوس المقتولين الى بيت السيد عمر ، فأرسلهم الى محمد على باشا ، فأمر بقتل الآخرين ، فلما رأى من بالقلعة ذلك فعندها رموا بالمدافع والقنابل على البلد وبيت محمد على وحسن باشا وجهة الازهر ولم يزالوا يراسلون الرمى من أول النهار الى بعد الظهر فلم ينزعج أهل البلد من ذلك لما الفوه من أيام الفرنسيس وحروبهم السابقة » .

و (حجاج الخضرى) الذى ورد ذكره فى هذه العبارة هو شيخ طائفة الخضرية فى ذلك العصر ، واليه تنسب البوابة المعروفة ببوابة حجاج ، وتسمى أيضا بوابة الخلاء قبلى مسجد السيدة عائشة بشارع باب القرافة ، وقد ذكره

الجبرتي غير مرة ، فقال عنه انه « الشهير بنواحي الرميلة وكان مشهورا بالاقدام والشجاعة طويل القامة عظيم الهمة وكان شيخا على طائفة الخضرية صـــاحب صولة وكلمة ومكارم اخلاق بتلك النواحي ، وهو الذى بنى البوابة بآخر الرميلة عند عرصة الغلة أيام الثورة ، وشنق مظلوما »
وقال عنه انه خرج من القاهرة عقب رحيل خورشد باشـــا تخوفا على نفسه من اعتـــداء العسكر (الأرناؤود) وذهب الى بلده (المنوات) ثم عاد وارسل الى السيد عمر مكرم « فكتب له أمانا من الباشـــا (محمـــد على) فحضر بذلك الأمان وقابل الباشا وخلع عليه ونادوا له فى خطته بأنه على ما هو عليه فى حرفته وصناعته ووجاهته بين أقرانه فصار يمشى فى المدينة وصحبته عسكرى ملازم له » .

ثم ذكر الجبرتي أنه اختفى بعد ذلك بسبب ما داخله من الوهم والخوف من العسكر والظاهر انه اعتقد انهـــم ينوون قتله غيلة .

وقد ذكره المسيو (فلكس مانجان) فى كتابه وقال عنه انه كان يتولى القيادة فى الاستحكامات القريبة من القلعـــة وانه علم من احد اعوانه بقدوم الحمـــلة التى بعث بهـــا السلحدار الى خورشد باشا ، وقال لهــــذه المناسبة انه اشتهر ذكره فى حصار القلعة وانه جمع رجاله وهجموا على الجملة واستولوا على الجمال وروى الواقعـــة كمـــا ذكرها الجبرتي .

استمر القتال متراسلا بين الشعب والوالى الى اوائل

شهر يولية سنة ١٨٠٥ ، وفى غضون ذلك اشار محمد على على السيد عمر مكرم ان يأمر رجاله بنقل مدفع كبير من طابية قنطرة الليمون وهى من القلاع التى انشأها الفرنسيون لاخضاع القاهرة وتركيبه بالجبل لضرب اسوار القلعة كى يكون الضرب اشد اثرا من المدافع التى كان الثوار يستعملونها فى القتال ، فجمع السيد عمر رجاله وجلب الابقار لجر هذا المدفع الثقيل ونقلوه من مكانه واخرجوه من باب البرقية وركبوه عند باب الوزير ، واستمروا فى جره يومين كاملين وبعد أن تم تركيبه اخذ القواد يضربون به القلعة واستمر الضرب من الجانبين شديدا متراسلا ، وحاول بعض جنود الوالى أن يهجموا على ذلك المدفع لتعطيله فردهم الثوار وضربوهم وقتلوا كبيرهم ،، وكانت مدافع القلعة تصوب قنابلها على حى الازهر وعلى بيت محمد على وبيت حسن باشا .

يتبين من الحوادث المتقدمة ان السيد عمر مكرم هو المنظم للثورة الشعبية فى ذلك العصر ، وقد شهد له بذلك الكتاب الاجانب فيما دونوه من وقائع تلك الثورة ، قال (فولابل) فى هذا الصدد :

« كان من الصعب أن يسود النظام وتدبر التدابير المحكمة بين الجنود الذين اعتادوا عيشة الفوضى ، والاهالى الذين لم يألفوا من قبل حركات القتال ومتاعبه ، ولكن السيد عمر مكرم قد سد هذا النقص من جميع النواحى بهمته ونشاطه وشجاعته ، فكان دائما دائب العمل واليقظة

يحرك الجموع ويرتب مواقفهم ويبعث الحمية فى نفوسهم وبشعل فى كل لحظة نار الحماسة كلمـا خمدت جـذوتها او دب اليها دبيب الفتور » .

سرد الجبرتى حوادث الثورة الشعبية ومر عليها كانها حوادث عادية لا تختلف عن الوقائع والانباء التى كان يدونها فى تاريخه ، ومع انه كان دقيقا فى تدوينها وفاق فى بيانه واستقرائه جميع الكتاب والمؤرخين الافرنج الذين كتبـوا عنها سواء أكانوا ممن شهدوها أم سمعوا بها فانه لم يلفت نظر قارئه الى ما تنطوى عليه من السمو والعظمـة ، على انها مجموعة وقائع تاريخية رائعة ، ولا غـرو فهى تمثل نفسية جديدة للشعب المصرى ولدتها الحركة القومية التى ظهرت فى افق البلاد اواخر القـرن الشـامن عشر ، ولقـد كانت هذه الحوادث رابع ثورة قام بها الشعب فى تاريخ مصر الحديث فى فترة من الزمن لا تتجاوز تسع سنوات .

فالثورة الاولى قاوم بها نابليون .

والثانية قاوم بها كليبر .

والثالثة قام بها فى وجه المماليك .

والرابعة فى وجه الوالى التـركى ، كل ذلك يدل على مبلغ حيوية الشعب فى تلك الحقبة من الزمن .

ولقد فطن الكتاب الاجانب الى ما فى ثورة مايو سنـة ١٨٠٥ من معان سياسية كبيرة ، فلم يفتهم أن ينوهـوا بها فيمـا كتبوه عن وقائعهـا ، قال (فولابل) فى هـذا الصدد :

« أن الحوادث التى سردناها تسترعى النظر ، فلأول مرة وقع تغيير سياسى خطير فى ولاية من ولايات السلطنة العثمانية القديمة بارادة الشعب وباسم الشعب ؛ ولا جدال أن المطالب التى فرضها الشيوخ على خورشيد باشا تدل على ما يجيش بصدورهم من الاحساس بالحرية وما يشعرون به من الحاجة الى أخذ الضمانات الكافية التى تكفل مراقبة الحكومة ؛ ولقد كان هذا الشعور الى ذلك العصر مجهولا فى الشرق » .

انتصار الثورة

ظلت الحرب بين الشعب والوالى التركى سجالا الى أن جاء القاهرة من الاستانة يوم ٩ يوليو سنة ١٨٠٥ (١١ ربيع الثانى سنة ١٢٢٠) رسول يحمل فرمانا يتضمن الخطاب لمحمد على « والى جده سابقا » بتثبيته واليا على مصر « حيث رضى بذلك العلماء والرعية وان خورشد باشا معزول عن ولاية مصر » .

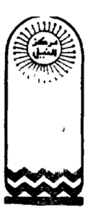
فبطل الضرب من القلعة ، وابطل الثوار الضرب من الجبل مع استمرار الحصار وبقاء المتاريس ومرابطة الثوار بالجبل الى أن أذعن خورشد باشا وسلم القلعة يوم الاثنين ٥ اغسطس سنة ١٨٠٥ (٩ جمادى الاولى سنة ١٢٢٠) ونزل منها ثم رحل عن البلاد ، فكان آخر وال عثمانى حكم مصر بارادة الاستانة واوامرها

وبذلك توجت الثورة بفوز ارادة الأمة ، واستقر فى الحكم من اختاره نواب الشعب وليا للأمر .

فهرس الكتاب

صفحة

صفحة



مركز النيل للاعلام

المحوره - القاهرة



تصدر عن
مركز النيل للإعلام
١ شارع دمياط
العجوزة – القاهرة



الثمن ٢٥٠